ميخائيل زوشينكو
قصص مختارة

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ميخائيل زوشينكو

قصص مختارة

تـــألـــيـــف: ميخائيل زوشينكو

تـــرجـــمـــة: يوسف نبيل بساليوس

مـــراجـــعـــة: أشرف الصباغ

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

أ. د. عيسى الأنصاري

د. سعاد عبداله العنزي

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-603-4

ميخائيل زوشينكو

قصص مختارة

العنوان الأصلي

Михаил Зошенко

Короткие Разказы

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018م
إبداعات عالمية - العدد 426

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)

الفهرس

مقدمة 1

المتوتّرون 11

الكلب المدرّب 15

الفقر 19

الأزمة 23

الراحة الصيفية 27

الزجاجة 31

قصة مرض 33

النحل والناس 39

روزا ماريا 49

لعبة مبهجة 55

الدكتافون 61

ما أنشد العندليب؟ 65

الكلوش 95

غيوم 99

بوشكين 105

جُثّة حيّة 109

حذاء قيصري 113

حكاية الرجل الذي طردوه من الحزب 117
قصص عن حوادث مؤسفة على نهر الفولجا 121
مغامرة قرد 127
الليلك يتورد 137
الحمَّام العام 181
المرضى 185
عندما تستعيد صحتك 189
ثلاثة قلوب 193
أضواء مدينة ضخمة 201
العرض المائي الرائع 207
ميشيل سينياجين 213

مقدمة

في قلب الثورة الدموية التي اندلعت في عام 1917 انتشر الأدب الساخر في روسيا بشكل غريب، وهو أمر لافت للنظر، فإن كانت الثورة عملاً دموياً عنيفاً في كثير من الأحيان فكيف ولماذا يحدث ذلك؟

في أوائل عام 1922 صدرت المجموعة القصصية الأولى لميخائيل زوشينكو وضجَّ الناس بالضحك، ونفد الكتاب من السوق خلال عدة أيام، ثم أخذت دور النشر والمجلات تتسابق على نشر قصص هذا الشاب المدعو ميخائيل زوشينكو حتى جابت شهرته الآفاق، وفي أعوام العشرينيات والثلاثينيات كان من ألمع الأصوات الأدبية في روسيا! وسرعان ما تُرجمت بعض أعماله ونشرت مجلة «القرص الأحمر» البلجيكية قصته المعنونة «فكتوريا كازيميروفنا» مترجمة إلى اللغة الفرنسية في عام 1923. وكان ذلك أول عمل أدبي (سوفييتي) يُنشر في الغرب بعد ثورة أكتوبر 1917. ثم تتابعت ترجمة أعماله إلى أهم اللغات الحية في العالم.

ولد ميخائيل زوشينكو عام 1894 في لينجراد (بطرسبورج حالياً)، وتوفي يوم 22 يوليو 1958. وهو من عائلة فنية. وبعد أن أنهى المدرسة الثانوية التحق بكلية الحقوق بجامعة بطرسبورج، لكنه لم يكمل الدراسة بها بعد أن قضى فيها بضع سنوات، وتطوع للذهاب إلى الجبهة، وهناك شارك في الجيش القديم أولاً (وصل في الخدمة إلى رتبة ضابط أركان، وقد حصل على عدد من الأوسمة) ثم استمر بعد ذلك بالخدمة في الجيش الأحمر.

تنقل في غضون ثلاثة أعوام بين اثنتي عشرة مدينة وعشر مهن مختلفة. ومنذ عام 1921 بدأ في العمل بالأدب، وكان واحداً من جماعة «الإخوة سيرابيون»، وهي جماعة أدبية ظهرت في عام 1921 في بتروجراد أخذت اسمها من أحد أبطال روايات الكاتب الألماني أ.هوفمان، واستهدفت البحث عن أساليب واقعية جديدة مع الأخذ بالتجريب الشكلاني ورفض القوالب وعدم الالتزام بالمذاهب السياسية.

انتخب زوشينكو فى المؤتمر الأول للكتّاب السوفييت، الذي عقد عام 1934 عضواً فى إدارة اتحاد الكتّاب السوفييت.

في عام 1935 نشر زوشينكو مجموعة قصص هجائية بعنوان «الكتاب السماوي». واعتبر النقد الأدبي السوفييتي الرسمي أن زوشينكو قد خرج في هذا الكتاب من أطر الهزل والهجاء الإيجابي، الأمر الذي جعل السلطات تفرض الحظر على نشر كتبه في الاتحاد السوفييتي.

كتب زوشينكو إبان الحرب الوطنية العظمى (1941 - 1945) عدداً من المقالات الهجائية الموجّهة ضد النازية وزعمائها، بالإضافة إلى بعض السيناريوهات للأفلام الروائية. ولكن أهم ما كتبه في تلك الفترة هو كتابه العظيم: «قبل شروق الشمس»، وقد كان موعد نشره غريباً، فبينما تسابق الكتّاب لنشر الروايات الحربية والتغني ببطولات الجندي الروسي نشر زوشينكو هذا الكتاب الذي يحاول فيه البحث عن سبب كآبته واسترجاع حوادث من الطفولة والشباب، بالإضافة إلى الأحلام للتوصل إلى سبب مرض الاكتئاب الذي أصابه، دون جدوى. ويعتقد الخبراء في علم النفس أن زوشينكو استبق في هذا الكتاب بعض الاكتشافات في مجال علم اللاوعي.

صدر في عام 1946 قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بعنوان (حول مجلتي «زفيزديا» و«لينينجراد»)، الذي انهال فيه النقد اللاذع على إبداع زوشينكو وبعض الكتّاب السوفييت الآخرين، الأمر الذي أدى إلى حرمان زوشينكو من العضوية في اتحاد الكتاب السوفييت، وفرض الحظر على نشر مؤلفاته. واضطر الكاتب للانتقال إلى إبداع الترجمة، حيث ترجم بعض القصص للكاتب الفنلندي المعروف مايو لاسيلا.

وبعد موت ستالين استعاد زوشينكو عضوية اتحاد الكتاب. ولكنه حُرِم من تقاضي المعاش التقاعدي بعد بلوغه سن التقاعد. وتمكن زوشينكو عام 1957 من إصدار مختارات من قصصه، لكن صحته تدهورت سريعاً، وقضى آخر سنوات حياته في منزله الصيفي بمدينة سيستروريتسك حيث كان يواجه أزمة نفسية صعبة. توفي زوشينكو في 22 يوليو عام 1958 نتيجة إصابته بالسكتة القلبية. ودفن في مقبرة بلدة سيستروريتسك بضواحي مدينة لينينجراد (بطرسبورج حالياً).

كنا قد بدأنا بالتساؤل عن سبب انتشار الأدب الساخر في الفترة التي تلت الثورة الروسية، وقد كانت ثورة شديدة الدموية اندلعت مع بدايتها حرب أهلية عنيفة بين الشيوعيين والحرس الأبيض. وقد جرت فظائع وأهوال كثيرة بين الجانبين، بالإضافة إلى اشتراك روسيا في الحرب العالمية الأولى ثم انسحابها.

الأكثر غرابة من ذلك أن نعرف أن زوشينكو كان مصاباً بالاكتئاب في أغلب الوقت، وقد حاول أن يتداوى من مرضه بلا فائدة، فكيف يمكن لكاتب مكتئب أن يجعل القارئ يضجّ من فرط الضحك؟

هـذه المتناقضـات العجيبـة ترتبـط طـوال الوقـت بتاريـخ الأدب الـروسي، وللسـخرية في الأدب الـروسي أصـول وآبـاء وأعـلام بدايـة مـن جوجـول العظيـم وحتـى زمـن زوشـينكو وبولجاكـوف. وكمحاولـة للإجابـة عـن هـذه الألغـاز سـنلقي النظـر عـلى الضحـك بوصفه وسـيلة للتحـرر الاجتماعـي.

مـع وصـول البلاشـفة إلى كـرسي الحكـم بـدأ فـرض نمـوذج اليوتوبيـا الشـيوعية بالقـوة، وبـدأ تدريجيـاً اضطهـاد عنيـف لأصحـاب الفكـر الحـر، وقـد قُتـل كثـير من الأدبـاء والمفكريـن ونُفي الكثـيرون، ولا عجب أن هاجـرت مجموعـة ضخمـة مـن الكتّـاب والمثقفـين في عـدة موجـات، طالـت حتـى مكسـيم جـوركي نفسـه الـذي كان شـيوعياً مخلصاً، لكنـه لم يكـن مخلصاً كفايـة بالنسـبة للشـيوعيين والأيديولوجيـين المتعصبـين.

في ظـل هـذه الأجـواء الكابوسـية التـي تُبـشر بلـون أدبي واحـد مُمثَّـل في الواقعيـة الاشـتراكية، وبنمـوذج علمـي مـادي واحـد، وفي تبنـي الدولـة وفرضهـا لأنـواع بعينهـا دون غيرهـا مـن الفنـون والعلـوم والأفـكار، قـد يُعتـبر الضحـك وسـيلة مـن وسـائل المقاومـة!

حاولـت السـلطة فـرض اليوتوبيـا الشـيوعية بـكل أنـواع الطـرق، وقـد تبنـت نموذجـاً سـلوكياً محـدداً لـدى المواطـن الشـيوعي الصالـح، وهـو أول مـا انهـال عليه الشـاب زوشـينكو بالسـخرية، وخلـف الصحك تكمـن المـرارة والاكتئـاب، ورغـم ذلـك قامت عبقريـة زوشـينكو بإخراج منتـج أصيـل في النهايـة يثـير الضحـك والتفكـر والتسـاؤل. لم يقـدم زوشـينكو مجـرد اسكتشـات هزليـة، بـل جـدَّد في الشـكل والمضمـون.

في البدايـة كان زوشـينكو يعـي التغـيرات الضخمـة التـي قـد حدثت في أذواق القـراء. قبـل انـدلاع الثـورة البلشـفية وتبنـي الشـيوعيين برامج تثقيفيـة واسـعة لم تكـن حركـة القـراءة في روسـيا مرتبطـة سـوى بفئات

محدودة، وكان الأدب الكلاسيكي الخاص بالعصر الذهبي يناسبها تماماً من حيث طبيعة الموضوعات الوجودية والأسئلة الدينية والروحية التي ميّزت الأدب الروسي في ذلك الوقت، والانشغال الكامل بالإجابة عن سؤال: «ما العمل؟».

بعد سيطرة البلاشفة اتسعت رقعة القراءة بشكل ملحوظ، وحاولت السلطة تقديم أدب مؤدلج بسيط يمكن للقارئ البسيط أن يستوعبه بسهولة، وهو منتج لا يمكننا أن نطلق عليه أدباً في الحقيقة، فهو وصفة أيديولوجية خبيثة فقيرة المضمون.

أدرك زوشينكو ذلك بوضوح فحاول تقديم منتج أدبي جديد يتميز بالبساطة المتناهية في اللغة والأفكار، ورغم ذلك يحمل عمقاً شديداً. كانت محاولته تشبه محاولة تولستوي التي قام بها في أيامه الأخيرة بشكل ما، حينما حاول أن يقدم أدباً يمكن للفلاحين أن يقرؤوه، فقد كان مدركاً هو الآخر لحرمان طبقات هائلة من القراءة، وعدم تعاطيها مع المنتج الأدبي الموجود، لكن تولستوي كان منشغلاً بالأسئلة الدينية والروحية، ومواجهة السلطة القيصرية بالعصيان السلمي، أما زوشينكو فقد كان في أجواء مختلفة تماماً، وحاول وصف المجتمع من حوله بطريقة بسيطة وعميقة في الآن ذاته.

تحدث زوشينكو عن الشقق المشتركة، وهي الظاهرة الأهم في وقته، حيث انتزعت السلطة السوفييتية الملكية من فئات واسعة من الشعب، وأعادت توزيعها، فظهرت الشقق المشتركة حيث تقطن كل أسرة في غرفة ما داخل الشقة، ويكون للشقة إدارة ذاتية، وللبناية أيضاً إدارة تدير شؤونها.

وجد الشعب الروسي نفسه في وضع يمر به للمرة الأولى، ففي شقة واحدة تجتمع مختلف الطبقات والقطاعات الروسية

المختلفة، ويصبح المطبخ هو المكان الذي يتبادل فيه الأحاديث مواطنون من كافة الاتجاهات والأعمار والوظائف حيث فُرض عليهم أن يعيشوا بعضهم مع بعض، ولم يكن هذا يخلو من المفارقات والمواقف المضحكة بالطبع.

قدَّم زوشينكو في قصصه بانوراما شاملة للمجتمع الروسي في تلك الفترة. تحدث عن الشقق المشتركة وعن الحمَّامات العامة وعن الشوارع ووسائل المواصلات وعن الكهرباء والفقر والجرائم وأزمة الإسكان والمستشفيات والنظام الطبي.. إلخ.

وكان أن أصابت محاولة التقليص بين القارئ العادي والنخبوي نجاحاً هائلاً.

جاء في مقال له بعنوان «عن نفسي، وعن النقد، وعن عملي»: «ثمَّ رأي يقول إن المطلوب اليوم هو تولستوي الأحمر، الذي تُروِّج له بعض دور النشر غير الحذرة، ولكن الوسط الذي يعيش فيه الكاتب الآن يتطلب بالطبع ليس تولستوي الأحمر.. المطلوب اليوم شكل أدبي جديد صغير، ارتبط في السابق بتقاليد أدبية سيئة».

كان الرقباء والنقاد البلاشفة، يقيّمون النص الأدبي من حيث الأهمية الاجتماعية - السياسية، حسب المنظور البلشفي، وليس حسب قيمته الفنية والجمالية. وكان غياب أيديولوجية واضحة لدى زوشينكو قد أتاح لهؤلاء مبرراً لتخوينه ووضعه في خانة أعداء الثورة والبناء الاشتراكي.

هناك بين المؤرخين من أرجع كآبة زوشينكو إلى حرمانه من العطف والحنان بعد وفاة والده وهو ما يزال صبياً يافعاً، وحياة الفقر التي عاشها مع والدته، وهناك من يرى أن سبب كآبته هو تسممه بالغاز السام حين تعرضت الوحدة العسكرية التي كان

يقودها إلى هجوم ألماني بالغاز السام خلال إحدى المعارك بالحرب العالمية الأولى. تصرُّف زوشينكو خلال هذا الهجوم يدل على حرصه على سلامة جنود وحدته أكثر من اهتمامه بسلامته الشخصية؛ حيث نبَّه الضابط الشاب جنوده بضرورة ارتداء الواقيات في حين إنه نسي نفسه، وترك الغاز السام أثراً بالغاً على صحته، وأعفي على أثرها من الخدمة العسكرية في الجيش القيصري. ولكن الغالب أن كآبته قد نجمت عن بؤس الواقع السوفييتي الذي لا مكان فيه لمثقف يفكر، ولا لكاتب يكشف عن زيف البروباجاندا السوفييتية عن الحياة السعيدة في دولة العمال والفلاحين. جاهد زوشينكو للتغلب على كآبته وكتب: «حاولت تغيير المدن والمهن. أردت الهروب من هذا الكرب الرهيب. شعرت أنه سوف يدمر حياتي».

في 5 مايو 1954 تم دعوة زوشينكو والشاعرة آنّا أخماتوفا إلى لقاء مع عدد من الطلبة الإنجليز في مقر فرع اتحاد الكتاب في لينينجراد. سأله أحد الطلبة عن رأيه في الاتهامات الموجهة إليه، وإلى الشاعرة آنّا أخماتوفا في قرار الحزب لعام 1946، فأبدى زوشينكو عدم موافقته على الاتهامات الموجهة إليه، وأجابت آنا أخماتوفا أنها تؤيد هذا القرار، وكانت مضطرة إلى ذلك لأن ابنها الوحيد كان معتقلاً في سيبيريا.

وبدأت مرحلة جديدة من اضطهاد زوشينكو وتضييق الخناق عليه، ففي 28 مايو 1954 نشرت صحيفة «لينينجراد سكايا برافدا» تقريراً عن اجتماع عقده فرع الحزب في لينينجراد جرى فيه توجيه نقد لاذع إلى زوشينكو لمعارضته العلنية لقرار حزبي. وفي 15 يونيو عقد في مقر اتحاد الكتاب اجتماع لمحاسبة زوشينكو، وطلبوا منه

إعلان ندمه على ما صرّح به للطلبة الإنجليز، وطَلَبِ العفو من الحزب واتحاد الكتاب، ولكن الكاتب المعتز بنفسه وكرامته ألقى كلمة دافع فيها عن نفسه وفنّد الاتهامات الموجهة إليه بشجاعة، وقال إنه على استعداد لتحمل عواقب اعتراضه على ما جاء من وصف مهين لشخصه وأعماله في قرار الحزب لعام 1946. كان لكلمته تأثير بالغ في نفوس معظم الحضور ما عدا قادة اتحاد الكتاب الذين تربعوا على منصة إدارة الجلسة - المحاكمة.

كان من الواضح أن زوشينكو قلب الطاولة على من أرادوا إذلاله، وأن معظم الحضور يتعاطف معه. وهنا قطع رئيس الجلسة «قسطنطين سيمونوف» الصمت وقال: «يبدو أن زوشينكو يستدر العطف». ولم يحقق الاجتماع الغرض الذي انعقد من أجله. وكان نتيجة ذلك أن اشتدت الحملة الصحافية الرسمية ضد زوشينكو ومنعه من النشر وحرمانه من راتبه التقاعدي. ولم تقتصر الحملة الجديدة على الصحف والمجلات بل ساهمت فيها أيضا الإذاعة السوفييتية. تمكن زوشينكو بصعوبة من نشر كتاب واحد يضم مختارات من أعماله في ديسمبر 1957.

قضى زوشينكو السنوات الأخيرة من حياته مريضاً ومحطماً نفسياً وفي فقر مدقع بعد حرمانه من راتبه التقاعدي، وبطاقته التموينية، وكان معظم أصدقائه القدامى يخشون من زيارته مخافة الشبهة، ولولا صديقه الوفي كورني تشوكوفسكي لمات جوعاً. ونظراً لمنع كتاباته اضطر إلى ترجمة روايات أجنبية عديدة على أمل الحصول على ما يسدّ رمقه، ولكن دور النشر اشترطت عليه ألّا يذكر اسمه كمترجم على أغلفة تلك الروايات. واضطر إلى ممارسة مهنة صنع الأحذية التي تعلمها في شبابه. وعندما توفي في يوليو

1958 رفضت السلطات في لينينجراد دفنه في مقبرة الكتّاب، فتم دفنه في مقبرة الضاحية التي سكنها في سنواته الأخيرة.

لقد قاوم زوشينكو بكل ما لديه من قوة، ولأنه كاتب حقيقي كان يحمل كل حزن الأمة الروسية على كتفيه. ظل يبحث عن سبب لكآبته دون جدوى، وقاوم بالسخرية المريرة والضحك ذلك الواقع الديستوبي التي حاولت السلطة السوفييتية تقديمه على أنه يوتوبيا ساحرة خلابة. وفي قلب سطوره البسيطة نرى عبقرية فذة، فتنتهي قصته «الفقر» التي لم يتحمل فيها أبطاله مزايا الكهرباء في الشقة حيث اطلعوا على مدى بؤس عيشهم والفاقة التي تحيط بهم: «آآه أيها الأشقاء.. النور أمر جيد، ولكن الحياة تحت ضوئه ليست كذلك». يقيناً لم تكن السلطة السوفييتية في نظر زوشينكو ضوءاً حقيقياً. لقد ظلت الأوضاع بائسة، وقد اقترنت بمزيد من التعنت والديكتاتورية والقمع، وبحرب رهيبة ضد الإنسان الحر الكريم. لا يمكننا أن نخرج من أسر عبقريته حينما يقدم المستشفيات بأسلوب ساخر مرير في قصته: «قصة مرض»، ولا يمكننا إلا أن نضج بالضحك حينما نقرأ: الأزمة - الكلب المدرب - الزجاجة - الراحة الصيفية.. إلخ.

لم يُترجم أي كتاب لزوشينكو إلى العربية، واقتصر الأمر على ترجمة بعض القصص القصيرة القليلة جداً في بعض المجلات أو المواقع، لذا حاولنا أن نجمع بين دفتي هذا الكتاب مجموعة من قصص زوشينكو القصيرة والطويلة من مختلف الأعوام لتقديم صورة شاملة عن أدبه وقصصه. اخترنا القصص بحرّية، وتركناها دون ترتيب زمني حتى يكوّن القارئ وجهة نظره بحرّية في مختلف إبداع زوشينكو.

تضم هذه المجموعة أشهر وأفضل القصص التي خطها زوشينكو، وهي في أغلبها قصص قصيرة عدا ثلاث قصص طويلة كان زوشينكو قد نشرها ضمن كتاب: «قصص عاطفية» حاول فيها تقديم لون جديد من القصص العاطفية الهزلية التي تضج بالسخرية والضحك من المجتمع الروسي، وكذلك من المدارس الأدبية التي انتشرت في ذلك الوقت كالشكلانية الروسية. ولم نجعل القصص الثلاث الطويلة في موقع واحد حتى نحافظ على إيقاع المجموعة وحيويتها وتنوعها بين القصص القصيرة والطويلة.

بقي أن أشير إلى استقائي بعض المعلومات عن زوشينكو في هذه المقدمة من مقالات قدّمها عنه: د.أنور إبراهيم، وأشرف عبدالحميد ودودت هوشيار، فلهم الشكر جميعاً على ما قدموه من معلومات.

وأدعو الله أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا العبقري الروسي وتقديمه بصورة لائقة إلى القارئ العربي، وأنوي أن أكمل ترجمة أهم أعماله في المرحلة القادمة بإذن الله.

المتوتّرون

منذ مدة غير طويلة اندلعت مشاجرة في شقتنا المشتركة[1]. لم تكن مجرد مشاجرة؛ بل معركة حقيقية. تقع الشقة في تقاطع جلازوفايا وبروفايا[2]).

لقد تشاجروا بالطبع بضمائر حية، وكادوا تقريباً أن يفصلوا آخر ما تبقى من جسد جافريلوف المُقْعَد؛ ألا وهو رأسه. السبب الرئيسي في ذلك أن الشعب أصبح متوتراً جداً، يفقد أعصابه لأتفه الأسباب، ويثور. وفي أثناء هذا يتشاجرون بقوة كما لو أنهم مشوشون تماماً. يقولون إنه بعد الحرب الأهلية[3] أصبحت أعصاب الناس متوترة على الدوام. قد يكون هذا صحيحاً، ولكن هذه النظرية لن تجعل رأس جافريلوف المُقْعَد تنمو ثانية سريعاً.

على سبيل المثال، تذهب ماريا فاسيليفنا شيبتسوفا - إحدى الساكنات - إلى المطبخ في التاسعة مساءً وتشعل وابور الجاز. هي

---

(1) في العشرين من أغسطس 1918 أُصدِر مرسوم حول مصادرة الملكية الخاصة للعقارات في المدن. بدأ بعدها توزيع شقق الأغنياء على العائلات بحيث تعيش كل عائلة في غرفة، وظهر ما عرف باسم «الشقق المشتركة»، وكان المطبخ هو المكان الذي يلتقي فيه سكان الشقة على اختلاف مهنهم من مثقين إلى عمال إلى أصحاب المهن البسيطة، وهناك كان الحديث يدور في شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافة؛ فضلاً عن الشجار والخلافات التي كانت تقع بين سكان الشقة.

(2) شارعان في لينينجراد.

(3) المقصود الحرب الأهلية التي اندلعت منذ عام 1917 بعد قيام الثورة البلشفية بين الشيوعيين وأنصار النظام القديم.

دائماً ما تشعله - كما تعلمون - في مثل هذا الوقت، وتضغط على المكبس وتشرب الشاي.

هكذا تذهب إلى المطبخ، تضع الوابور أمامها وتبدأ بإشعاله، لكنها تجده قد تعطل تماماً، ولا تشتعل النيران.

تفكر في نفسها قائلة: «لماذا لم يشتعل؟ أيكون السخام قد أفسده تماماً؟».

تمسك المكشطة[4] بيدها اليسرى كي تنظف الوابور من السخام. وبينما تهم بتنظيفه تمر جارتها داريا بتروفنا كوبيلينا، وهي صاحبة الإبرة، وترى إبرتها في يد ماريا فتقول لها:

- بالمناسبة.. يمكنك أن تعيدي المكشطة إلى مكانها أيتها العزيزة ماريا فاسيليفنا.

غضبت بالطبع شيبتسوفا من هذه الكلمات فأجابتها:

- يمكنك أن تذهبي وتخنقي نفسك بها يا داريا بتروفنا. إني حتى أشمئز من أن ألمس مكشطتك، فضلاً عن أخذها من يدك!

وبالطبع اشتعلت داريا بتروفنا كوبيلينا غضباً من هذا، وأخذتا تتحدثان. تعالى صوت ضجيجهما، وساد الهرج والمرج.

ظهر الزوج إيفان ستيبانيتش كوبيلين صاحب المكشطة على أثر سماعه للضجيج، وهو رجل قوي، بل ضخم البطن أيضاً، لكنه عصبي هو الآخر. قال:

- إني أعمل كالثور[5] في التعاونية من أجل 32 روبل وبضعة كوبيكات، وأبتسم للزبائن، وأزن لهم السجق وما إلى ذلك، وقد

(4) قطعة من الأسلاك المتداخلة تشبه القنفذ تستخدم في تنظيف أدوات الطعام من السخام.

(5) في النص الأصلي يقول أعمل كالفيل، لكن المرادف الأكثر قرباً في ثقافتنا العربية: أعمل كالثور.

اشتريت المكشطة من عرق جبيني، ولم يهمني، لكني لن أسمح لأي غريب أن يستخدم مكشطتي.

وتصاعد الضجيج ثانية، واندلع الحديث حول المكشطة. بالطبع تَجَمَّع كافة السكان داخل المطبخ، وأخذوا يتحركون بقوة. وظهر جافريلتش المُقْعَد هو الآخر بالمكان.

- لماذا هذه الضجة وما من قتال؟

وبعد هذه الكلمات تحديداً تأكد الأمر.. اندلع القتال.

المطبخ كما تعلمون ضيق، ما من مساحة للشجار.. إنه ضيق للغاية.. وابورات الجاز والأواني في كل مكان. لا مكان حتى كي تلتفت فيه، وهناك اثنا عشر شخصاً قد وجدوا طريقهم إليه. على سبيل المثال إن أردت أن تضرب أحدهم فستصيب الضربة ثلاثة. وبطبيعة الأمر يتناطح الجميع ويتساقطون.. حتى وإن كانت لديك ثلاثة أرجل فليست لديك أدنى فرصة كي تمنع نفسك من السقوط، مثلك مثل المُقْعَد الذي لديه ساق واحدة تماماً.

ولكن المُقْعَد - مثير الشجار هذا[6] - تمكّن من أن يشق طريقه بشكل ما وسط هذا الجمع الكثيف. صرخ فيه إيفان ستيبانيتش - صاحب المكشطة - قائلاً:

- اخرج يا جافريلتش من هنا. حاذر.. سوف يقطعون لك ساقك الأخرى.

ويجيبه جافريلتش:

- سوف أفقد ساقي إذن! لكني لن أغادر.. لقد حطموا كبريائي كمقاتل تماماً.

وفي تلك اللحظة ضربه أحدهم على وجهه، لكنه لم يغادر،

(6) في النص الأصلي وصفه الكاتب بـ «حُق الفلفل» إشارة لقدرته على إشعال الأمور كما نشعر بالاحتراق من الفلفل.

بـل هجـم عليـه، وحينهـا انهـال شـخص آخـر بإحـدى أواني المطبـخ عـلى رأسـه.

سقط المصاب فجأة على الأرض.. سقط وحده!

في تلك اللحظة هرع أحد الطفيليين ليبلغ رجال الميليشا[7].

ظهر رجل الميليشيا بالمكان وصاح:

- جهزوا أنفسكم أيها الشياطين للدفن.. سوف أطلق النار حالاً.

وحـين سـمعوا تلـك الكلـمات فقـط، عـاد المواطنـون إلى رشـدهم، وذهـب كل منهـم إلى غرفتـه.

وفكّروا في أنفسهم قائلين:

- هنـاك كثـير مـن الدمـاء فعـلاً، فلـماذا نغضـب نحـن - المواطنـين المحترمـين - بهـذا الشـكل؟

وهـرع كل إلى غرفتـه عـدا جافريلتـش المُقْعَـد.. وحـده لم يذهـب إلى غرفتـه. ظـل يرقـد وحيـداً عـلى الأرض كـما تعلمـون، والدمـاء تتسـاقط مـن رأسـه.

بعـد أسـبوعين مـن هـذه الواقعـة انعقـدت محكمـة. كانـت محكمـة شـعبية، وكان القـاضي هـو الآخـر عصبـي المـزاج فحكـم علينـا بعقوبـة قاسـية.

1924

(7) في ذلك الوقت لم تكن هناك قوات شرطة نظامية، وقد استبدلت بها السلطة السوفيتية عناصر مدنية تشكل ميليشيات لحفظ الأمن والنظام.

الكلب المدرَّب

سُرق معطف التاجر إيرميا بابكين المصنوع من فرو الراكون.

انتحب التاجر إيرميا بابكين شاعراً بالآسف على ضياع معطفه. وقال: «كان معطفاً رائعاً أيها المواطنون. يا للخسارة! إني مستعد لدفع أي مبلغ حتى أجد المجرم وأبصق على وجهه».

وهكذا أحضر إيرميا كلباً مدرباً. أتى به إليه رجل يرتدي قبعة ووشاحاً، وبصحبته كلب.. كلب ضخم بُنّي بفم مفترس لا تظهر عليه أية رحمة.

دفع الرجل الكلب ليتعقب الأثر خلف الباب وقال: «بِسس» وتركه يبتعد. تشمم الكلب رائحة الطريدة في الهواء وقلَّب نظره في الجمع، فقد اجتمع المواطنون بالطبع، واقترب فجأة من العجوز «فيوكلا» التي تقطن في المنزل رقم 5 وتشمم تنورتها. حاولت العجوز الاختفاء وسط الحشد، والكلب مازال عند تنورتها. تنحَّتْ جانباً والكلب من خلفها، ثم أمسك بتنورتها ولم يتركها.

انهارت العجوز على ركبتيها أمام المحقق قائلة:

- نعم.. إني أنا.. لقد انكشفت.. لن أنكر؛ لقد سرقت خمسة مقادير من الخميرة، المقادير موجودة فعلاً.. ستجدونها جميعاً في الحمّام، اذهبوا بي إلى رجال الميليشيا!

وصاح الجمع متعجبين، ثم سألوها:

- وماذا عن المعطف؟

- لا أعرف شيئاً عن المعطف.. لا أعرف عنه شيئاً على الإطلاق، لكن بخصوص الباقي فقد قلت الصدق. اقبضوا عليّ.. عاقبوني.

وذهبوا بالعجوز بعيداً.

أخذ المحقق كلبه مرة ثانية، وتشمم الكلب الرائحة مجدداً، وقال له الرجل: «بِسس» وتركه يبتعد.

قلّب الكلب ناظريه وتشمم الرائحة في الهواء، ثم اقترب فجأة من مواطن آخر.. اقترب من رئيس لجنة أحد المنازل. شحب وجه المواطن وسقط على وجهه قائلاً:

- اقبضوا عليَّ أيها المواطنون المبجلون الطيبون! لقد جمعت مالاً من أجل الماء وبدَّدته على نزواتي الخاصة.

وبالطبع تزاحم السكان حول رئيس لجنة المنزل وأوثقوه. وفي تلك اللحظة كان الكلب يقترب من مواطن آخر يقطن بالمنزل رقم 7 وأمسك ببنطاله.

شحب وجه المواطن وانهار أمام المواطنين قائلاً:

- أنا مذنب.. مذنب. حقاً، لقد غيّرت تاريخ ميلادي في سجل العمل، أنا بغل حقيقي.. كان يجب أن أكون في الجيش أدافع عن الوطن، بينما أعيش الآن في المنزل رقم 7 وأستمتع بالطاقة الكهربائية، وبدلاً مني ذهب سكان آخرون إلى الجيش. أمسكوا بي!

تجمّد المواطنون من المفاجأة وقالوا:

- أي كلب مدهش هذا؟!

غمز التاجر إيرميا بابكين ونظر من حوله، وأخرج مالاً ومنحه للمحقق قائلاً:

- هيا.. وجِّه كلبك إلى هؤلاء الخنازير أبناء الخنازير.. دعه يجلب معطفي المختفي المصنوع من الفرو. أطلقْه على أولاد الكلب.

ولكن الكلب تسمَّر في مكانه، كان يقف أمام التاجر ويهزّ ذيله. فقد التاجر آرميا بابكين شجاعته وتنحّى جانباً، والكلب من خلفه. اقترب منه وأخذ يتشمم كلُّوشه[8]. ارتعش الرجل وشحب وجهه وأخذ يتمتم:

- ولكن.. الله يرى الحقيقة.. أنا غشاش ابن كلب، وهذا المعطف أيها الأشقاء ليس لي، لقد اختلسته من أخي. إني أبكي وأنتحب.

هرع المواطنون هاربين في كافة الاتجاهات، ولم يعد بإمكان الكلب أن يتشمم أحداً مرة أخرى.. لقد أمسك باثنين أو ثلاثة تصادف أن ظهروا أمامه.

اعترفوا جميعاً.. أحدهم قد أضاع بعض الأموال الحكومية، وآخر ضرب زوجته بالمكواة، أما الثالث فقال شيئاً أخرق لا يمكن ذكره هنا.

هرب المواطنون وتركوا الساحة. بقي الكلب وحده بصحبة المحقق.

وفجأة اقترب الكلب من المحقق وأخذ يهز ذيله. شحب وجه المحقق وسقط أمام الكلب:

- عضّني أيها المواطن.. إنني أحصل على ثلاثة قطع من فئة العشر روبلات لأجلب لك طعامك، لكنني أحتفظ باثنتين لنفسي..

(8) الكلوش: حذاء فوقي مطاطي.

ما حدث بعد ذلك غير معروف، فقد هربت على الفور بعيداً عن هذه الخطايا.

1923

الفقر

تُرى يا أشقائي، ما أكثر الكلمات حداثة الآن؟

قطعاً ما من كلمة أكثر حداثة الآن من كلمة: «الكهرباء».

من المهم جداً - بلا جدال - أن تستنير روسيا السوفييتية بالكهرباء، ولكن هناك جوانب أخرى بالموضوع لا تحمل أهمية كبيرة. أنا لا أقول أيها الرفاق إنه يكلفنا ثمناً كبيراً.. لا.. إننا لا ندفع مالاً كثيراً مقابل الكهرباء. ليس هذا ما أقوله.

ولكن الأمر يدور عن الآتي:

عشت أيها الرفاق في منزل ضخم. كان المنزل بأكمله مضاءً بالكيروسين. لدى البعض مصباح زيتي، ولدى آخرين مصباح صغير، والبعض ليس لديه شيء على الإطلاق، يضيئون منازلهم بشمعة.. إنهم الأكثر فقراً!

ثم بدؤوا في توصيل الكهرباء..

بدؤوا أولاً في إنارة مقر مدير المنزل، ثم أخذوا يوصلون الكهرباء هنا وهناك. إنه رجل هادئ، لا يظهر ما يفكر فيه. لكنه بدأ يتصرف بغرابة، ويسير واضعاً يده في أنفه مستغرقاً في التفكير.

وها هي عزيزتنا ربة المنزل يليزافيتا إيجناتيفنا بروخوروفا تأتي ذات يوم باقتراح أن نضيء الشقة[9]. تقول:

- الجميع يوصلون الكهرباء، حتى مدير المنزل نفسه قد فعل ذلك.

حسناً.. فلنفعل ذلك.

ووصّلنا الكهرباء، وأضيء المكان.. ولكن يا إلهي! المكان متعفن وقذر.

في السابق كان المرء يغادر صباحاً إلى العمل، ويعود بالمساء، ويشرب الشاي وينام. ولم يكن المرء يرى شيئاً عندما كنا نستخدم الكيروسين، أما الآن فقد أضيء المكان وأصبحنا نرى..؟ أصبحنا نرى حذاء أحدهم المهترئ في أحد الأركان، وفي ركن آخر نرى ورق الحائط الممزق، وبَقّ الفراش يسرح في مكان آخر هارباً من الضوء، وخرقة غير واضحة المعالم تخص أحدهم، وبإمكانك أن ترى بصقة هنا، وعقب سيجارة هناك، وبرغوثاً يتراقص.

يا إلهي على ما يفعله النور! إنه يجعلك تودّ أن تبكي وأنت تنظر إلى هذا المنظر الحزين أمامك.

على سبيل المثال، تلك الأريكة الصغيرة التي لدينا في شقتنا.. كنت أعتقد أنها أريكة جيدة، كنت أجلس عليها كثيراً في الأمسيات. أما الآن فقد أضاءت الكهرباء المكان.. يا إلهي على النور! آآه.. يا لها من أريكة! إنها مهترئة تماماً.. ممزقة تماماً.. خرجت منها كل بطانتها تقريباً، لا يمكنني أن أجلس على هذه الأريكة.. روحي تنفر منها.

(9) كما أشرنا سابقاً كانت مجموعة من الأسر أو الأفراد تتقاسم الشقة الواحدة إن كانت كبيرة، فلكل أسرة غرفة مثلاً، والحمّام والمطبخ مشترك بين الجميع.

لكني أفكر في نفسي وأقول: «لكني لست غنياً». كل ما تنظره عيني مقزز.. لم يعد بإمكاني العمل جيداً.

وبإمكاني أن أرى أيضاً صاحبة ربة المنزل يليزافيتا إيجناتيفنا تبدو حزينة، وتذهب إلى المطبخ وتحاول أن تلهي نفسها بالتنظيف والترتيب. أسألها:

- لما تتسكعين في المكان؟

لكنها تلوِّح فقط بيدها وتقول:

- لم أكن أدري يا عزيزي أني أعيش في فقر مدقع كهذا.

نظرتُ إلى ربة المنزل وأخذتُ أفكر.. الأمر قذر ومزرٍ فعلاً، ولا يمكنك ألا تنظر إليه تحت هذا الضوء الساطع.

أصبحت أعود إلى المنزل في مزاج متكدر.

أصل إلى المنزل وأضيء النور، وأنظر إلى المصباح بإعجاب، وأهرع للفراش على الفور.

بعد أن فكرت ملياً وحصلت على مرتبي، اشتريت مبيضاً وبدأت العمل. مزَّقت ورق الحائط، وقتلت البقّ، وأزلت العناكب، وأصلحت الأريكة، وطليت المكان وزيّنته. الآن تسعد الروح وتطرب.

ومع أن النتيجة كانت جيدة إلا أنها لم تكن جيدة كفاية.. لقد بددت المال عبثاً يا أشقائي، فقد قطعت ربة المنزل الأسلاك الكهربائية. قالت لي:

- الأمر سيئ جداً.. إني فقيرة على أن أحيا في الضوء.

حاولت أن أقنعها، ولكن عبثاً كان هذا.

- إني لا أريد أن أنير المكان.. لا أريد أن أعيش في النور. ليس لديَّ المال لأصلح أشيائي.

وهل من السهل أن أترك المكان وأنتقل إلى آخر إن كنت قد أنفقت كثيراً من المال على الإصلاحات؟ لذا فقد استسلمت للأمر.

آآه أيها الأشقاء.. النور أمر جيد، ولكن الحياة تحت ضوئه ليست كذلك.

1925

الأزمة

مؤخـراً أيهـا المواطنـون جلبـوا حمولـة مـن الطـوب إلى الشـارع.. حقـاً فعلـوا هـذا!

وكـما تتوقعـون طبعـاً أخـذ قلبـي يـدق فرحـاً، لأننـا نقـوم بالبنـاء أيها المواطنـون.. لا يمكـن أن يكونـوا قـد أتـوا بـكل هـذا الطـوب عبثـاً. لابـد وأنهـم يبنـون منـزلاً في مـكان مـا. لقـد بـدؤوا.. لا تنظـروا إلى الطـوب.. يـا منجـي[10]!.

في غضـون عشريـن عامـاً أو أقـل، ربمـا يصبـح لـدى كل مواطـن غرفـة كاملـة لـه! وإن لم يـزد عـدد السـكان بشـكل كبـير، وسـمحوا مثـلاً بعمليـات الإجهـاض، فربمـا تصبـح لـدى كل مواطـن غرفتـان لا واحـدة.. بـل ربمـا تصبـح لـدى كل مواطـن ثـلاث غـرف بحـمّام مسـتقل أيضـاً.

وحينهـا سنسـتمتع بالحيـاة فعـلاً أيهـا المواطنـون. يمكـن أن نقـول مثـلاً: سـينام المـرء في واحـدة، وفي الثانيـة يسـتقبل الضيـوف، وفي الثالثة لابـد أنـه سـيفعل شـيئاً مـا.. مـازال العـدد قليـلا! سـيكون هنـاك كثـير مـن الأمـور ليقـوم بهـا المـرء في هـذه الحيـاة الحـرة!

ولكـن الأمـور الآن لا تسـير عـلى مـا يـرام بالنسـبة للسـكن بسـبب الأزمـة.

---

(10) وكأنه يلقي تعويذة خوفاً من الحسد.. يشبه الأمر عادة الإشارة بالأصابع الخمس مثلاً تجنباً للحسد.

عشت أيها الأشقاء في موسكو، ولم أعد من هناك إلا مؤخراً وقد عايشت بنفسي الأزمة.

وصلت كما تعلمون إلى موسكو، سرت مصطحباً متاعي في الشوارع، ولم أجد مكاناً لأسكن فيه. ولم يقتصر الأمر على أني لم أجد مكاناً لأذهب إليه؛ بل إنني لم أجد حتى مكاناً لأضع فيه متاعي.

لأسبوعين كاملين وأنا أسير في الشوارع مصطحباً متاعي. نَمتْ لحيتي وفقدتُ معظم أغراضي تقريباً. فكما تعلمون من الأسهل أن تسير خفيفاً دون متاع. أخذت أبحث عن سكن.

أخيراً قابلت أحدهم يهبط درجات السلم في أحد المنازل. قال لي:

- يمكنك أن تعيش في الحمّام مقابل ثلاثين روبل.

يقول إن الشقة واسعة، تحوي ثلاث غرف وحمّام. يقول إنه بإمكاني أن أعيش في الحمّام، وعلى الرغم من عدم توفر نافذة به، فإن هناك باباً، وسيكون الماء في متناول اليد، ويمكنني أن أملأ حوض الاستحمّام بالماء كاملاً وأستلقي فيه اليوم كله.

قلت له:

- أنا لست سمكة أيها الرفيق العزيز، ولا حاجة لي بالغطس. أفضّل أن أحيا جافاً. أخفض السعر قليلاً مقابل هذا البلل.

أجابني قائلاً:

- لا يمكنني أيها الرفيق، كنت أود هذا لكن ليس بإمكاني، الأمر ليس في يدي كاملاً.. إنها شقة مشتركة، وسعر الحمّام لدينا مدروس بدقة.

- وما العمل؟ حسناً.. موافق.. خذ الثلاثين روبل واذهب بي إلى هناك سريعاً. لثلاثة أسابيع وأنا مشرد على الأرصفة وأخشى أن أشعر بالتعب!

حسناً.. لقد سمحوا لي بالانتقال إلى هناك، وسكنت فعلاً.

والحمّام فعلاً عظيم؛ الرخام في كل مكان فيه.. حوض استحمّام ومحابس مياه.. وبالمناسبة ما من مكان لتجلس فيه. من الممكن فقط أن تجلس على حافة حوض الاستحمّام، ولكن من الممكن أن تنزلق وتسقط فيه.

وضعت بنفسي بعض ألواح الخشب عليه، وتدبرت معيشتي. وبالمناسبة.. بعد شهر تزوجت.

كما تعلمون.. وقعت على فتاة جميلة طيبة القلب شابة، لكن ليست لديها غرفة.

اعتقدت أنها يمكن أن ترفضني بسبب معيشتي في الحمّام، وبهذا لن أنعم أبداً بالسعادة الأسرية والراحة. أخبرتها بالأمر، لكنها عبست فقط قليلاً ثم أجابتني:

- هناك كثير من الناس الطيبين يعيشون في الحمّامات، وبالإضافة إلى ذلك يمكنك أن تضع حاجزاً.. على سبيل المثال هنا حجرتي وهناك حجرة تناول الطعام.

قلت:

- من الممكن أيتها المواطنة أن نضع حواجز فعلاً، ولكنّ السكان الآخرين.. هؤلاء الشياطين لن يسمحوا بذلك.. إنهم يقولون: ما من حواجز.

حسناً.. سنعيش على هذا الوضع.

وفي أقل من عام حظيت أنا وزوجتي بطفل. دعوناه فولودكا، واستمرت حياتنا. كنا نُغسِّله هنا وكذلك نعيش في المكان ذاته.

أتعلمون.. كانت الأمور تسير على وجه حسن.. الطفل يستحمّ كل يوم، ولم يصب بالبرد أبداً.

كان هنـاك أمـر واحـد لا يبعـث عـلى الراحـة؛ في المسـاء يـأتي المواطنـون إلى الحـمَّام للاغتسـال. في مثـل هـذه المناسـبات كان علينـا أن نخـرج جميعـاً مـن الحـمَّام إلى الردهـة. قلـت للسـكان:

- أيهـا المواطنـون.. فلتغتسـلوا في أيـام السـبت. مـن المسـتحيل أن تغتسـلوا كل يـوم.. إلى أيـن أذهـب؟ فكِّـروا أرجوكـم في وضعنـا.

آه مـن هـؤلاء الأوغـاد الاثنـين والثلاثـين! كلهـم يسـبونني، بـل وهـددوني بتحطيـم وجهـي.

ولكن ما العمل؟ ليس في يدي شيء.. واصلنا على هذه الحال.

وبعـد مـدة غـير طويلـة انتقلـت حـماتي مـن بلدتهـا لتعيـش معنـا في الحـمّام.. عاشـت خلـف الحـوض. قالـت:

- منـذ وقـت طويـل وأنـا أحلـم بهدهـدة حفيـدي.. لا يمكنكـما أن تحرمـاني مـن هـذه المتعـة.

قلت:

- لا يمكننـي أن أرفـض طلبـك، اللعنـة عليـكِ.. مـن الممكـن أن تملئـي حـوض الاسـتحمَّام بالمـاء وتغرقـي فيـه أنـتِ وحفيدك!

وقلت لزوجتي:

- أتنتظريـن أيتهـا المواطنـة أقـارب آخريـن كي يأتـوا إلينـا؟ إن كان الأمـر هكـذا قـولي سريعـاً ولا تتعبينـي.

فقالت:

- سيأتي أخي في احتفالات عيد الميلاد..

لكنـي لم أنتظـر وصـول شـقيقها.. لقـد تركـت موسـكو، وأُرسـل النقـود الآن لأسرتي بالبريـد.

1925

الراحة الصيفية

بالطبع ستوافقونني إن قلت إنه إن حظيت بشقة خاصة بك وحدك فهو أمر يَسِمُك بالمادية الشديدة التي تجدها في الطبقات البورجوازية.

على البشر أن يعيشوا بشكل مشترك، في أسر جماعية، ولا يغلقوا على أنفسهم داخل حصونهم المنزلية.

يجب أن يعيش البشر في شقق مشتركة، حيث تعيش جماعات من الناس. هناك تجد من تتحدث معه، ومن يسدي إليك النصح، ومن تتشاجر معه.

بالطبع هناك بعض العيوب في الشقق المشتركة. على سبيل المثال تسبب الكهرباء بعض المشكلات.. فأنت لا تعرف كيف تحسبها بالضبط، وكم من المال يتعين على كل فرد أن يدفعه.

بالطبع عندما تتطور صناعتنا في المستقبل، سيكون بإمكان كل ساكن في كل زاوية أن يضع عدَّادَي قياس خاصَّين به، وحينها سيحدد كل عدَّاد كمية الطاقة المستهلكة بدقة. حينها ستشرق الحياة كالشمس في شققنا المشتركة.

أما في الوقت الحالي فنحن نواجه فعلاً مشكلات عديدة.

على سبيل المثال لدينا تسع أسر في شقتنا المشتركة، وخط كهربائي واحد، وعدّاد واحد، وفي نهاية كل شهر يجب أن نسوّي الحساب. حينها تندلع مناوشات قوية وسوء تفاهم، وفي أحيان أخرى ينشب الشجار.

لكنك ستقول: حسناً.. احسبوها بحسب استهلاك المصباح الكهربي لدى كل شخص.

حسناً.. لنحسبها طبقاً للمصباح الكهربي، ولكنك ستجد أحد السكان الواعين مثلاً يشعل المصباح لخمس دقائق كي يخلع ثيابه أو يصطاد بعض البراغيث، بينما يشعل ساكن آخر النور حتى الثانية عشرة من منتصف الليل، ويلوك العلكة في فمه ولا يفعل شيئاً، ولا يريد أن يُطفئ النور، مع أنه لا يقوم بتصميمات أو رسومات مثلاً.

وتجد ثالثاً - ولابد أن يكون أحد المثقفين - لا يطفئ النور قبل الواحدة ليلاً أو بعدها، منهمكاً في قراءة كتاب، دون أن يُقدّر الظرف العام. بل ويمكن أن يزيد من قوة المصباح كي يحظى برؤية أوضح، وينهمك في قراءة كتاب علم الجبر خاصته وكأنه في ضوء النهار!

على مثقف كهذا أن يغلق على نفسه داخل عرينه ويُسخّن المياه أو يُعد المكرونة. يمكنكم أن تفهموا هذا بالطبع!

كان لدينا أحد السكان يعمل حمّالاً، وقد أصابه الجنون حقاً من هذه المسألة. توقف عن النوم كي يعرف من يظل مستيقظاً يقرأ الجبر تحت ضوء المصباح بالمساء ويطهو الطعام بالكهرباء. لم يعد إنساناً.. لقد جنّ فعلاً.

وبعد أن جنّ شغل أحد أقربائه الغرفة. حينها تحديداً تحول الأمر إلى فوضى عارمة.

في كل شهر يتضح أننا تجاوزنا المبلغ المحدد بعض الشيء؛ اثني عشر روبل مثلاً، وفي أسوأ الظروف لن يتجاوز المبلغ الثلاثة عشر أبداً. هذا بالطبع يحدث تحت إشراف الساكن الذي أصابه الجنون؛ لقد كان يُحكم السيطرة حول الأمر. يمكنني أن أقول إنه لم يكن ينام فعلاً لليالٍ، وطوال الوقت يُجري حساباته المالية، ويفتش هنا وهناك، ويُهدد الجميع بضربهم بالفأس إن أفرط أحدهم في استهلاك الكهرباء. من المدهش أيضاً أن بقية السكان لم يصبهم الجنون من تلك الحياة.

وهكذا لم يكن المبلغ يرتفع في الشهر عن اثني عشر روبل.

وفجأة نجد المبلغ في أحد الشهور قد وصل إلى ستة عشر روبل! عفواً! كيف حدث ذلك؟ مَن الكلب الذي تسبب في هذه الزيادة؟ لابد أن السبب أن أحدهم قد سخَّن طعاماً أو استخدم مزيداً من الكهرباء في الطهي أو شيئاً كهذا.

أخذ يسب بعضهم بعضاً، وفي النهاية دفعوا المبلغ.

في الشهر التالي جاءنا المبلغ أيضاً ستة عشر روبل. حينها قال الشرفاء من السكان: «لم يعد من الممكن أن نعيش هنا. إننا أوغاد حقاً.. نقتصد في الكهرباء بينما يفرط الآخرون في استخدامها كما يشاؤون. طالما الأمر كذلك فسنستخدمها كما نشاء ونعد المكرونة ونسخن الطعام بالكهرباء».

في الشهر التالي وصلت الفاتورة إلى تسعة عشر روبل! صرخ السكان من هول الصدمة لكنهم دفعوا الفاتورة، وحينها بدأ العبث! لم يعد أحد يطفئ المصابيح، وبدؤوا يقرؤون الروايات، ويستخدمون المقابس الكهربائية.

بعد شهر جاءت الفاتورة ستة وعشرين روبل.

حينها بدأت فوضى كاملة.

باختصار حينما تصل المديونية إلى ثمانية وثلاثين روبل يتحتم قطع الكهرباء. رفض الجميع الدفع. أخذ أحد المثقفين يستجدينا وهو يمسك بالسلك الكهربائي، لكننا لم نعره انتباهاً. وقطعوا التيار.

بالطبع كان هذا مؤقتاً، فلا أحد يعارض التيار الكهربائي. في الاجتماع العام قالوا: إنه لا أحد يعارض توصيل التيار الكهربائي، وإنهم سوف يلتمسون في المستقبل إعادة توصيله ثانية. ولكن في أثناء هذا كان كل شيء يسير على ما يرام. الربيع قد اقترب أيضاً والطقس صيفي.. الطيور تصدح، والشمس مشرقة، ولم يعد الضوء الكهربائي لازماً لأحد، فلا أحد يقوم بعمل التصميمات، ولكن في الشتاء سوف نفكر في الأمر. من الممكن أن نعيد الكهرباء شتاءً، أو نصل إلى نظام جيد من التحكُّم، لكن طالما نحن في الصيف فعلينا أن نستريح، وقد أنهكتنا تلك الأمور الخاصة بالشقق!

1929

الزجاجة

من فترة غير طويلة حطَّم أحد الشباب زجاجة بالشارع، كان يحمل شيئاً ما، لا أعرف ما هو تحديداً، ربما كان كيروسيناً أو بنزيناً، أو ربما يكون حتى عصير ليمون، باختصار كان سائلاً بارداً. الطقس حار، والمرء يود أن يشرب شيئاً بارداً في مثل هذا الطقس.

هكذا مضى هذا الشاب، وفغر فمه متثائباً وألقى بالزجاجة على الرصيف.

كما تعلمون لدينا حمقى بين الناس. إنه ليس ذلك الرجل الذي يمكنه أن يُنحِّي حطام الزجاجة جانباً بقدمه، لا.. بل يكسرها فقط ويمضي بعيداً.. عليه اللعنة! وعلى بقية المارة أن يسيروا فوق حطام الزجاجة.. أمر لطيف حقاً!

جلست عمداً على حافة الطريق بالقرب من إحدى البوابات لأنظر ما سيحدث.

رأيت الناس يسيرون فوق الزجاج.. يسبون ويلعنون بسبب الزجاج لكنهم يواصلون السير، وهو أمر كما تعلمون أحمق جداً. ما من واحد منهم يود أن يقوم بواجبه الاجتماعي.

ماذا سوف يُكلفه هذا؟ لن يستغرق الأمر من أحدٍ ثوانيَ قليلة حتى يزيح بقبعته شظايا الزجاج بعيداً. ولكن لا.. يمضون

فقـط ويواصلـون طريقهـم!

لا يـا أعـزائي.. مازلنـا لم نفهـم مسـؤولياتنا الاجتماعيـة.. نسـير فقـط فـوق الزجـاج!

ثم رأيت بعض الصبية يقتربون، ويقولون:

- آآه.. أمـر يدعـو للأسـف أنـه لم يعـد هنـاك كثـير مـن الحفـاة هـذه الأيـام، وإلا لـكان أحدهـم قـد قُـضي أمـره تمامـاً!

وفجـأة يقـترب أحـد المـارة.. إنـه عامـل بسـيط جـداً.. بروليتـاري. يقـف هـذا الرجـل عنـد شـظايا الزجـاج، ويهـز رأسـه الطيـب ويـئن وينحنـي ليزيـح شـظايا الزجـاج بعيـداً بجريدتـه.

أقـول في نفـسي: «لقـد قـام بعمـل ممتـاز».. لا داعـي للحـزن أو التحـسر إذن؛ مـازال الوعـي موجـوداً وسـط العامـة.

ولكـن فجـأة يمـر بالقـرب مـن هـذا الرجـل العجـوز البسـيط أحـد الجنـود ويسـبه قائـلاً:

- مـاذا تظـن أنـك فاعـل أيهـا الغبـي؟ لقـد أخبرتـك أن تزيـل هـذا الزجـاج، بينـما تقـوم فقـط بإبعـاده صـوب أحـد الأركان؟! طالمـا أنـت البـواب المسـؤول عـن هـذه العـمارة فعليـك أن تنظـف المـكان هنـا مـن الزجـاج!

تمتـم البـواب بـشيء مـا غـير واضـح وذهـب صـوب سـاحة الـدار، وعـاد بعـد دقيقـة وفي يـده مكنسـة وجـاروف، وبـدأ في تنظيـف المكان.

ظللـت جالسـاً مـدة طويلـة أفكـر في كل أنـواع الهـراء حتـى أبعدوني عـن المـكان في النهاية.

أتعرفـون أكـثر الأمـور عجبـاً في هـذه القصـة؟ هـو أن الجنـدي هـو مـن أمـر بإبعـاد الزجـاج!

قصة مرض

بصراحة.. أفضِّلُ أن أظل مريضاً بالمنزل.

بالطبع قد يكون المستشفى أكثر إضاءة وأكثر تحضراً، وقد يكون الطعام هناك أفضل ويخضع لعناية أكثر، ولكن كما يقولون: لا مكان مثل البيت أبداً.

أخذوني إلى المستشفى لإصابتي بالتيفوس. ظنت إدارة المنزل أن هذا سوف يعالج آلامي غير المحتملة، لكنهم لم يحققوا هذا الهدف، فقد أرسلوني إلى مستشفى من نوع خاص جداً، حيث لم يكن كل شيء يسير على هواي.

يصلون بالمريض هناك ويسجلون وصوله في سجّل المستشفى، ثم يقرأ المريض فجأة على الحائط: «تسليم الجثامين من الثالثة وحتى الرابعة».

لم أكن أعرف شيئاً عن المرضى الآخرين، لكنّ قدمَيَّ أخذتا ترتعشان عندما قرأت هذا الإعلان. الأمر الرئيس أن درجة حرارتي كانت مرتفعة، وقد تكون حياتي بشكل عام مازالت تومض بصعوبة بالغة داخل جسدي، ثم أقرأ فجأة هذه الكلمات!

قلت للرجل الذي سجّل دخولي:

- لمَ تعلقون أيها الرفيق المسعف هذه الكلمات الخشنة؟ لن ينفع المريض أن يقرأ مثل هذه الكلمات.

عند سماعه هذا تعجب المسعف، أو ذلك الـ. ماذا تدعونه بالضبط؟ وقال لي:

- غريبة! مريض يسير بصعوبة، وينفث البخار تقريباً من فمه من فرط الحرارة، ومع ذلك مازال ينتقد كل شيء. إن شُفيت - وهو أمر مستبعد إلى حد كبير - فانتقد كما تشاء، وإلا سلمنا جثمانك فعلاً بين الثالثة والرابعة كما هو مكتوب، وحينها ستتأكد من ذلك.

أردت أن أتشاجر مع هذا الرجل، ولكن نظراً لارتفاع درجة حرارتي التي وصلت إلى 39.8 لم أفعل ذلك. قلت له فقط:

- انتظر حتى أُشفى يا سماعة الطبيب أنت، وحينها سيتوجب عليك أن تبرر وقاحتك هذه. أيمكن أن يسمع مريض مثل هذه الكلمات؟ إن هذا يفتُّ في عضده كاملاً.

تعجب المسعف من أن مريضاً متعباً يتحدث معه بهذه الحرية ويجادله بهذه الطريقة، فأنهى الحوار على الفور، وظهرت حينها إحدى الممرضات وقالت:

- تعال أيها المريض لننظفك.

لكنني تضايقت أيضاً من هذه الكلمات.

- الأفضل ألا تقولي هذا؛ بل تعال إلى دورة المياه. هكذا تكون الكلمة أجمل وترفع من معنويات المريض.. لستُ جواداً تنظفونه.

قالت الممرضة:

- ألا يكفي أنه مريض! بل إنه أيضاً يدلي بكافة الملحوظات حول أدق التفاصيل. من المؤكد أنك لن تُشفى طالما تدس أنفك في كل شيء.

ثم اصطحبتني إلى دورة المياه وطلبت مني أن أخلع ثيابي.

بدأتُ في خلع ثيابي، وفجأة رأيتُ فوق محبس المياه رأساً ما تبرز من الحائط؛ رأيت فجأة كما لو أن إحدى العجائز تجلس في حوض الاستحمَّام، لابد أنها قَطْعاً من المرضى. قلت للممرضة:

- إلى أين تذهبون بي أيها الكلاب؟ إلى حمّام السيدات؟ هناك امرأة تستحمّ.

قالت الممرضة:

- نعم.. هناك فعلاً إحدى العجائز المرضى تجلس هناك. لا تُلق إليها بالاً.. درجة حرارتها مرتفعة، وهي لا تتفاعل مع شيء مطلقاً. يمكنك أن تخلع ثيابك دون أدنى قلق، وفي أثناء هذا سنخرج هذه العجوز وننعشك ببعض المياه.

قلت:

- العجوز لا تتفاعل، لكني أنا الذي يمكنه أن يتفاعل! بالتأكيد لن أشعر بالراحة عندما يكون لديكم شخص ما يسبح في حوض الاستحمَّام هناك.

وحينها ظهر المسعف فجأة مجدداً وقال:

- إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مريضاً يصعب إرضاؤه بهذا الشكل! يقول على هذا (وقح) وعلى ذاك (سيئ). عجوز أوشكت على الموت تستحم، فيشتكي، وربما تكون درجة حرارتها قد وصلت إلى أربعين، وهي لا تبالي بشيء، وترى كل شيء كما لو أنه يتساقط من منخل. على أية حال لن تجعلها رؤيتك تعيش في العالم خمس دقائق إضافية. لا.. إني أفضّل أن يأتي إلينا المرضى غير واعين بشيء، على الأقل لن يعترضوا على شيء، وسيرضون بكل شيء، ولن ينخرطوا معنا في أية مناقشات علمية.

عندها تعالى صوت العجوز التي تستحم:

- حاذروا! سأخرج من المياه، وسينكشف أمامكم كل شيء.

وحينها انشغلوا مع العجوز وطلبوا مني أن أخلع ثيابي.

وبينما انخرطت في خلع ثيابي ملؤوا حوض الاستحمّام بالمياه الساخنة وطلبوا مني أن أجلس داخله.

ولأنهم عرفوا طبيعة شخصيتي فلم يجادلوني في شيء، وحاولوا أن يوافقوني على كل شيء. وبعد الاستحمّام منحوني ثياباً داخلية كبيرة جداً لا تناسب حجمي على الإطلاق. قلت في نفسي لابد أنهم أتوا بهذه الثياب التي لا تناسب حجمي عن عمد بدافع من خبثهم، لكني اكتشفت بعد ذلك أن هذه ظاهرة طبيعية في المكان. لديهم مرضى صغار الحجم يرتدون قمصاناً واسعة كما لو أنها القاعدة، بينما يرتدي المرضى كبار الحجم قمصاناً ضيقة.

بل ويبدو أن الثياب التي منحوني إياها أفضل من غيري، فعلامة المستشفى على القميص موجودة على الكم فقط، لذا فهي لا تفسد منظره، بينما عند الآخرين موجودة على كامل الظهر، والبعض لديهم العلامة على الصدر، وهذا أمر يهدر الكرامة الإنسانية.

ولكن في أثناء هذا كانت درجة حرارتي تواصل الارتفاع، لذا لم أعد أتجادل حول مثل هذه الأمور.

وضعوني في عنبر متوسط الحجم، حيث يوجد فيه ما يقرب من ثلاثين مريضاً من مختلف الحالات؛ البعض منهم كان في حالة خطرة، والبعض - على النقيض من ذلك - بدأ في التعافي، والبعض كان يُصفِّر، وآخرون يلعبون الشطرنج. كان ثلاثة منهم يتسكعون في العنبر ويقرؤون بصوت عال ما هو مكتوب على الحوائط فوق رؤوس المرضى. قلت للممرضة:

- قد يكونون قد أرسلوا بي إلى مستشفى مجانين، فإن كان الأمر كذلك فأخبريني. إني أذهب للمستشفيات في كل عام ولم أر شيئاً مماثلاً لهذا. الهدوء والنظام في كل مكان، بينما المكان عندكم يشبه السوق.

قالت:

- ربما تود أن تطلب أن يضعوك في عنبر خاص، ويعيّنوا عليه الحرس حتى تطارد الذباب والبراغيث بحرّية؟!

صرخت فيها طالباً أن يأتوني بكبير الأطباء، ولكن بدلاً منه ظهر ذلك المسعف فجأة مرة أخرى. كنت أشعر بالضعف الشديد، وعندما رأيته فقدتُ وعيي تماماً.

لم أعد إلى وعيي إلا بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أيام على ما أعتقد. قالت الممرضة لي:

- لديك جسد صلب.. لقد نجوت من كل شيء، حتى إننا وضعناك بجانب نافذة مفتوحة دون قصد، ومع ذلك بدأت صحتك في التحسن على نحو غير متوقع. أما الآن، فإن لم تلتقط عدوى من زملائك من المرضى فيمكن حقاً أن نهنئك بشفائك كاملاً.

ومع ذلك لم يستسلم جسدي ثانية لأي مرض. الشيء الوحيد الذي أصابني قبل أن أغادر كان مرضاً طفولياً؛ أصبت بالسعال.

قالت الممرضة:

- لابد أنك التقطت العدوى من الجناح الأيمن، لدينا هناك قسم الأطفال، ولا بد أنك تناولت الطعام دون حذر بنفس الأدوات التي يستخدمها طفل مريض بالسعال، ولهذا أصابك المرض.

حسناً.. سريعاً ما تولى جسدي المقاومة، وعادت إليه الصحة مرة أخرى، ولكن عندما حان الوقت لإطلاق سراحي من المستشفى جاءتني المشكلات من كل صوب.. مرضت ثانية، ولكن تلك المرة

كان مرضاً عصبياً. من جراء الضغط العصبي انتشرت على جسدي بقع كثيرة تشبه الطفح الجلدي. قال الطبيب:

- توقف عن الانفعال العصبي، وستُشفى بمرور الوقت.

ببساطة كنت أشعر بالانفعال لأنهم لم يطلقوا سراحي؛ إما أنهم نسوا، وإما أن شيئاً ما حدث لا أعرفه، وإما لأن أحدهم لم يأت بعد، ومن المستحيل معرفة الحقيقة. أخيراً بدأت زوجات المرضى في التحرك، وتحطمت أنوف كافة العاملين بالمستشفى. قال المسعف:

- كنا مشغولين جداً حتى إن الوقت لم يُتح لنا لإطلاق سراح أي مريض. الأهم من ذلك أننا لم نتأخر أكثر من ثمانية أيام، بينما تثيرون كل هذه الضجة! لدينا بعض المرضى الذين تعافوا منذ ثلاثة أسابيع ولم يُطلق سراحهم، ومع ذلك فقد صبروا.

لكنهم أطلقوا سراحي سريعاً، وعدت إلى منزلي. قالت زوجتي:

- أتعرف يا بيتيا.. منذ أسبوع ظننا أنك رحلت إلى العالم الآخر، فقد جاءنا إخطار من المستشفى يقول: «بمجرد أن يصلك الإخطار يمكنك أن تأتي لتسلُّم جثمان زوجك».

هرعت زوجتي إلى المستشفى، لكنهم اعتذروا لها هناك على هذا الخطأ الذي قامت به إدارة السجلات؛ لقد مات شخص آخر ظنوا أنه أنا، ومع أني حتى وقتنا هذا في تمام الصحة إلا أن بعض البقع الجلدية تظهر على جلدي من جراء الانفعال العصبي. بشكل عام أشعر بالضيق الشديد من هذه الحادثة، وأشعر دوماً أني أريد أن أهرع للمستشفى حتى أتشاجر مع أحدهم هناك، لكني أتذكر وقتها ما يحدث هناك، ولا أذهب كما تعرفون.

أمكث في البيت الآن عندما أشعر بالمرض.

1936

النحل والناس

ذات مرة وصل أحد جنود الجيش الأحمر إلى (كولخوز) إحدى المزارع التعاونية[11] في زيارة، وجلب معه هدية إلى أقاربه؛ إناء عسل زهري. راق العسل للجميع حتى إن أعضاء المزرعة الجماعية قرروا إنشاء خلية نحل.

لم يكن أحد في المزرعة بأكملها قد مارس العمل مع خلايا النحل من قبل، وعليهم الآن أن يبدؤوا كل شيء من الصفر.. عليهم أن يصنعوا خلية النحل ويستقطبوا النحل من الغابة إلى موطنه الجديد.

وبعد أن أدركوا صعوبة الأمر شعروا بالإحباط. قالوا: «إنه عمل طويل جداً، وقد أوشك الصيف على الحلول، ولن نحصل على العسل حتى العام القادم، بينما نحن نريده الآن».

من بين العاملين بالمزرعة كان هناك إنسان رائع يدعى إيفان بانفيلتش، وهو رجل كبير السن يصل عمره إلى الثانية والسبعين. عمل في شبابه بتربية النحل. قال الرجل:

- كي نتمكن من شرب الشاي بالعسل في هذا العام علينا أن نسافر إلى مكان ما حيث يُربُّون النحل، ونشتري ما نحلم به من هناك.

---

(11) كولخوز: وهي المزارع الجماعية السوفييتية التي أنشأتها السلطة السوفييتية.

أجابه العاملون بالمزرعة المشتركة:

- مزرعتنا تقدّر بمبلغ هائل قد يصل إلى المليون. لن تُشكّل التكلفة أية مشكلة بالنسبة إلينا. لنشتري خلية بنحلها، فإن استطعنا أن نجتذب النحل من الغابة فلن يكون هذا مهماً حينها، وقد تنتج عسلاً سيئاً كعسل شجر الزيزفون بينما نحن في حاجة إلى عسل الزهور.

وهكذا أعطوا إيفان بانفيلتش المال اللازم وأرسلوه إلى مدينة تامبوف.

وصل إلى المدينة، وهناك قالوا له:

- صنعت خيراً بالمجيء إلينا. لقد نقلوا ثلاثة من قُرانا بعيداً في اتجاه الشرق، ولذلك لدينا فائض من خلايا النحل. من الممكن أن نمنحك تلك الخلية بمبلغ زهيد جداً. ما يهم الآن هو أن نفكر في الطريقة التي سننقل بها الخلية. إنها سلعة من الممكن أن تفسد وتضيع بسهولة.. من الممكن أيضاً أن يتفرق النحل في كل مكان، ونخشى أن تصل إلى المكان المنشود بخلية نحل واحدة، ويرقانة وحيدة.

أجاب بانفيلتش:

- سأنقلها بطريقة ما.. إني أعرف كيف أتعامل مع النحل. لقد عشت طوال عمري بجواره.

وهكذا جلب بانفيلتش ست عشرة خلية إلى المحطة على عربتين. ودخل المحطة ووضع الخلايا في إحدى العربات المكشوفة، وغطّى الخلايا بالقماش.

وسريعاً ما تحرك قطار البضائع، وتحركت معه العربة المكشوفة.

وقف بانفيلتش بابتهاج في العربة وتحدث مع النحل:

- لا تخافوا يا صغاري.. سوف نصل سريعاً إلى هناك. نصبر فقط قليلاً في الظلام ثم سأطلقكم ثانية صوب الزهور بالغابة. وهناك على ما أعتقد ستصلون إلى مبتغاكم. أهم ما في الأمر أنه لا داعي للقلق من الظلام الذي نحن فيه الآن، ولذلك غطيت خلاياكم بالقماش عن عمد حتى لا تتناثروا في كل مكان مع حركة القطار، ففي هذه الحالة لا أعتقد أنكم ستتمكنون من العودة إلى القطار.

وظل القطار في طريقه لمدة يوم كامل، وتلاه يوم آخر.

في اليوم الثالث بدأ بانفيلتش يشعر بالاضطراب. القطار يسير ببطء، ويتوقف في كل محطة، ويستغرق وقتاً طويلاً، ولم يعد واضحاً متى سيصل تحديداً إلى وجهته.

في محطة «بوليا» غادر بانفيلتش عربة القطار وتوجه إلى ناظر المحطة وسأله:

- قل لي رجاءً أيها المحترم.. هل سيتوقف القطار طويلاً في محطتك؟

فأجابه ناظر المحطة:

- الحقيقة أني لا أعرف.. قد ينتظر حتى المساء.

فقال بانفيلتش:

- إن كان القطار سينتظر حتى المساء فسأنزع القماش إذن عن الخلايا وأطلق النحل في حقولكم. لقد أنهك في الطريق، فاليوم الثالث على التوالي وهو في خلاياه والقماش يغطي الخلايا. إنه يشعر بالجوع والعطش ولا يطعم اليرقات.

فقال الناظر:

- افعل ما يحلو لك! لست أبالي على الإطلاق بركابك المجنحين! لديَّ ما يكفيني من العمل، وعليَّ الآن أن أهتم بنحلك! تُرى ما كل هذا الغباء!

عاد بانفيلتش إلى عربته وأزال القماش.

كان الطقس رائعاً؛ السماء زرقاء، وشمس يوليو تسطع في السماء، والحقول من حولك، والزهور تنمو، والبساتين الكستنائية مزهرة.

وهكذا نزع بانفيلتش القماش عن الخلايا، وسرعان ما انطلق جيش من النحل إلى قبة السماء.

تجمع النحل في دوائر ثم نظر من حوله، وتوجه إلى الحقول والغابات. أحاط الركاب بالعربة، ووقف بانفيلتش في وسط العربة ليبدأ محاضراته لهم عن فوائد النحل.

ولكن في أثناء المحاضرة خرج ناظر المحطة إلى الرصيف، وأخذ يشير إلى سائق القطار حتى يبدأ التحرك.

عندما رأى بانفيلتش هذه العلامات صرخ على الفور، ومن فرط الهلع قال لناظر المحطة:

- أيها المحترم.. لا تُحرِّك القطار، إن نحلي كله في الهواء.

فقال الناظر:

- صفِّرْ له إذن حتى يعود سريعاً ويجلس في مكانه! لا يمكنني أن أعطل القطار أكثر من ثلاث دقائق.

قال بانفيلتش:

- أتوسل إليك.. عطِّل القطار حتى الغروب، سيعود النحل إلى مكانه مع الغروب، على الأقل فكّ عربتي من القطار، لا يمكنني الرحيل دون النحل، لديَّ هنا ألف فقط، وخمسة عشر

ألفاً في الحقول.. أرجوك تفهّمْ الوضع.. لا تتركني هكذا لمصيبتي!

قال الناظر:

- هنا ليس منتجعاً للنحل بل محطة سكك حديدية! فكّر في الأمر: لقد طار النحل، وسيقولون في القطار القادم: لقد طار الذباب، أو قد يقولون لقد فرّت البراغيث من عربات النوم.. أعليّ أن أعطّل القطارات من أجل هذا؟ كفى سخرية!

ومن ثم أعطى ناظر المحطة إشارته ثانية لسائق القطار حتى يتحرك، وبدأ القطار في التحرك فعلاً.

أما بانفيلتش، وقد شحب وجهه كالقماش، فظل واقفاً في عربته، وأخذ يلوح بيديه وينظر في كافة الاتجاهات مرتعشاً من فرط الحزن، ولكن القطار سار في طريقه.

حسناً.. نجح بعض النحل في العودة إلى الخلايا أثناء حركة القطار، ولكن العدد الأعظم ظلّ في الغابات والبساتين، ثم غاب القطار عن الأنظار.

عاد الناظر إلى محطته، وعاود العمل، انهمك في كتابة شيء ما، وشرب شاياً بالليمون، وفجأة سمع ضجة ما في المحطة؛ فتح ناظر المحطة النافذة حتى ينظر ما يحدث، فرأى اضطراباً عظيماً يموج بين الركاب، وهرجاً ومرجاً عظيمين.

سأل الناظر:

- ماذا حدث؟

فأجابوه:

- لدغ النحل ثلاثة ركاب، والآن يلدغ البقية.. لقد أتى النحل بعدد عظيم حتى إن السماء غامت من كثرة العدد.

وشاهد الناظر هناك سحابة كاملة من النحل تطير حول المحطة.

كان النحل يبحث تلقائياً عن عربته، لكنها لم تكن موجودة، لقد غادرت المحطة، لذلك كان النحل يندفع صوب الناس وكل ما حوله.

وما إن أوشك الناظر على الابتعاد عن النافذة ليدخل المحطة، حتى هجمت من النافذة مجموعة هائلة من النحل الغاضب. تناول الناظر إحدى المناشف وأخذ يلوِّح بها كي يطرد النحل من الغرفة.

ولكن كان من الواضح أنّ هذا لم يُجْدِ نفعاً!

لدغته نحلتان في عنقه، والثالثة في أذنه، والرابعة على جبهته.

بعد أن غطى الناظر نفسه بالمنشفة استلقى على الأريكة، وأخذ يطلق تأوهات بائسة.

سرعان ما ركض نحوه المساعد وقال له:

- لقد لدغ النحل أيضاً عامل التلغراف المناوب، وهو يرفض العمل الآن.

أجابه الناظر وهو مستلقٍ على الأريكة:

- آآه.. وما العمل؟

وحينها اقترب منه موظف آخر وقال له:

- عاملة التذاكر.. زوجتك كلافدا إيفانوفنا.. لدغها النحل حالاً في أنفها.. لقد فسد منظر أنفها تماماً.

تأوه الناظر أكثر وقال:

- لابد أن نعيد العربة سريعاً؛ تلك التي تحوي مربي النحل المجنون هذا.

نهض ناظر المحطة من الأريكة، وتناول الهاتف ليتصل بأحدهم. أجابوه من المحطة التالية قائلين:

- حسناً.. سوف نفكّ العربة حالاً، لكن ليست لدينا قاطرة لتقطرها إليك ثانية.

صرخ ناظر المحطة:

- سنرسل نحن إليكم القاطرة.. فكوا العربة بسرعة، لقد لدغ النحل فعلاً زوجتي، وقد هجر الركاب رصيف محطتي، واختبأ كافة الركاب تحت السقيفة. لا شيء هنا في الهواء سوى النحل، ولن أخرج إلى الشارع، ولا أبالي حتى إن كان هناك حادث.

وهكذا أرسلوا له العربة سريعاً.

تنفّس الجميع الصعداء عندما شاهدوا العربة قد عادت، تلك التي كان بانفيلتش يقف فيها.

أمرهم بانفيلتش أن يضعوا العربة في نفس موضعها التي كانت فيه تماماً، وما إن رأى النحل العربة حتى طار إليها سريعاً.

كان النحل كثيراً جداً، حتى إنه سحق بعضه. ارتفع أزيزه جداً حتى إن كلباً أخذ ينبح، وارتفع بعض الحمَّام إلى السماء.

وقف بانفيلتش في قلب العربة وأخذ يقول:

- اهدؤوا يا أطفالي.. لا تتسارعوا، مازال أمامنا متسع من الوقت، فلتجلس كل نحلة في مكانها الذي حجزته قبلاً!

وفي غضون عشر دقائق خيَّم الهدوء على المكان.

وما إن تأكد بانفيلتش من أن كل شيء على ما يرام حتى خرج من العربة.

أما الركاب الموجودون في المحطة فأخذوا يصفقون له، وأخذ بانفيلتش ينحني أمامهم كفنان يتلقى تحية جمهوره. وقال:

- أخفضوا ياقاتكم ثانية واكشفوا عن وجوهكم، لا تخافوا على مصيركم، لن يلدغكم النحل ثانية.

وما إن قال ذلك حتى توجه بانفيلتش إلى ناظر المحطة.

أما الناظر الذي كان يلفّ نفسه بمنشفة فظل مستلقياً على الأريكة؛ كان يئنّ ويتأوه عندما دخل بانفيلتش إلى غرفته. قال بانفيلتش:

- أعتذر لك جداً أيها المحترم على اللدغات التي أصبت بها من قِبل نحلي، لكنك أنت المذنب في الأمر كله، من المستحيل ألا يبالي المرء بأي شيء، بغضّ النظر عما إن كان الأمر كبيراً أم صغيراً، لا يتحمل النحل مسؤولية الأمر، فهو في مثل هذه الحالة سيلدغ الناس دون جدال.

ازداد تأوه الناظر، فأكمل بانفيلتش:

- من المؤكد تماماً أن النحل لا يتحلى بالبيروقراطية أو اللامبالاة فيما يخص مصيره، لذلك فإن تمت معاملته بهذا الشكل، فمن المؤكد أنه سيتصرف هو أيضاً مع الناس كذلك، وسيكون هذا عقابك.

نظر بانفيلتش من النافذة وأضاف:

- لقد غربت الشمس، وقد عاد أتباعي إلى أماكنهم، تشرفت بك، وحان موعد الرحيل.

أومأ ناظر المحطة برأسه بضعف شديد كما لو أنه يقول: هيا.. اذهب سريعاً. وتمتم بصوت خفيض:

- أحصلت على نحلك كله؟ انظر ملياً لئلا تكون نحلة هنا أو هناك.

فأجاب بانفيلتش:

- إن بقيت لديك نحلتان أو ثلاث فسيكون هذا لصالحك، سيذكرك أزيزهما بتلك الحادثة.

وبهذه الكلمات غادر بانفيلتش المكان.

في اليوم التالي وصل صديقنا العظيم بانفيلتش إلى وجهته وفي صحبته بضاعته الحية، واستقبله الرفاق في المزرعة التعاونية بالموسيقى.

مارس 1941

روزا ماريا

نـوى أحـد سـكان القريـة «ف» - ويُدعـى الرفيـق ليبيديـف - أن يُعمِّـد[12] طفلتـه الصغـيرة.

حتـى ذلـك الوقـت كان معادياً للديـن؛ لم يكـن يـزور الكنائـس، ولا يشـترك في أي مـن طقوسـها، بـل عـلى العكـس، كان واحـداً مـن الملحديـن ذوي الآراء التقدميـة.

ولكن في ذلك الوقت حظي بطفلة، وفكَّر في أن يقوم بتعميدها.

في الواقـع كانـت زوجتـه الجبانـة هـي التـي دفعتـه للقيـام بذلـك، بـل إنـه في الحقيقـة كان والداهـا قصـيرا البـصر هـما أسـاس الأمـر كلـه؛ لذلـك أخـذا يتحدثـان عـن توافـه الأمـور:

- ليـس حسـناً ألا تقـوم بتعميـد الطفلـة، فقـد تنمـو فجـأة، أو عـلى العكـس، فقـد تمـوت دون أن تنعـم بالنصرانيـة.

وأمـور أخـرى مـن هـذا القبيـل، إنهـا بعـض الأحاديـث السياسـية غـير الجـادة التـي ينخـرط فيهـا الرجعيـون مـن النـاس.

ليبيديـف لم يـرد أن يُعمِّـد طفلتـه، لكنـه لم يسـتطع أن يقـاوم طويـلاً الضغـط الـذي يقومـون بـه عليـه، وبسـبب تناقضاتـه الداخليـة أذعـن في النهايـة. قـال لهـم:

---

(12) المعموديـة هي أحد أهم الطقوس النصرانية، وفيها يقوم الكاهن بغمر الطفل في الماء ثلاث مرات باسـم الآب والابن والروح القدس حتى تحل عليه النعمة ويصير نصرانياً، وتتجدد طبيعته البشرية كما يعتقد النصارى.

- حسناً.. فلنعمِّدها. لا أريد فقط أن يثير هذا الأمر الضجيج من حولنا، لا شك في أني أنا وحدي من أتحكم في آرائي. إن أردت أن أعمِّدها، فلأعمِّدها، وإن لم أرد فلن أعمِّدها. ولكن في كل الحالات سيُثار الضجيج حول الأمر، وسيقول الكثيرون: لقد عمَّد هذا الكلب ابنته، وسيقول آخرون: لقد ذهب إلى الكنيسة، ويضيف آخرون: ليس عبثاً إذن أنّ عمّه كان في وقت السلم يعمل كمدير للبوابين عند أحد مُلّاك الأراضي[13].

لكن زوجته قالت له إنه إن لم يتحدث هو عن تعميد ابنته، فلن يثير أحد ضجة حول الأمر.

وهكذا اتفق الوالدان مع أحد الكهنة حتى يُعمِّد الابنة. ووافق الكاهن على هذا لقاء خمسة روبلات وحدَّد لهم اليوم والساعة.

في هذه الأثناء سجَّل الوالدان طفلتهما في مكتب التسجيل باسم «روزا»، وحصل على شهادة بذلك من هناك، وفي اليوم المحدد ذهب إلى الكنيسة كي يُتم الأمر.

في ذلك اليوم كان الكاهن يعمد في الكنيسة طفلاً آخر أيضاً، وبينما كنا ننتظر دورنا أخذنا نراقب كيف يتم الأمر.

ولكن ليبيديف الذي كان معارضاً للدين، ولديه -كما يقول- نظرة ناقدة لكل ما هو كنسي، لم يتمكن قطعاً من أن ينظر ما يحدث أمامه صامتاً. لم يستطع ألا يفعل شيئاً، وظل يدلي بملحوظاته الحادة حول الكاهن.

(13) الانتماء للكنيسة في ذلك الوقت يعد علامة على الرجعية، فالدين بأكمله لدى السلطة السوفيتية مخدر يواسي الفقراء والطبقات المطحونة على قبول أوضاعهم، لذا يورد هنا الكاتب المقابلة بين الانتماء للكنيسة والعمل لدى أحد ملاك الأراضي.

أياً كان ما يفعله الكاهن، كان ليبيديف يبتسم بسخرية لاذعة، أو ببساطة يرميه بأي قول يترامى إلى ذهنه. «حسناً.. إنه يتكلم من أنفه!» أو يقول: «انظروا إلى ما يفعله!» أو ينظر إلى شعر الكاهن الضارب إلى الحمرة ويقول: «لم أر شعراً كهذا بين الكهنة من قبل».

وأثارت تلك الملحوظة الأخيرة الضحك بين الأقارب حتى إن الكاهن أوقف طقوس العماد لبرهة، وأخذ ينظر إليهم بغضب.

وعندما حان دور ابنة ليبيديف، فَقَدَ ليبيديف القدرة على التحكم في نفسه تماماً، وبدأ في وخز الكاهن بملحوظاته الساخرة علناً حتى إنه قال ساخراً:

- حسناً أيها الملتحي.. احرص على ألّا تُصاب ابنتي بالبرد أثناء العماد، وإلا أضرمت النار في كنيستك هذه!

ارتعشت يدا الكاهن عندما سمع ذلك، وقال لليبيديف:

- اسمع.. أنا حقاً لا أفهمك. إن كنتَ قد أتيت إلى هنا لتضايقني، فإني أشعر فعلاً بالعجب! هل فكرت في نتيجة ما تفعله؟ إني في هذه اللحظة أمسك بابنتك، وبدلاً من أن أصلي بقلب طاهر، يمكن أن تشتعل روحي بالحقد والفحشاء، وهذا ما سأنقله إلى ابنتك. قد تعيش طوال حياتها محمومة، أو صماء بكماء.

فقال ليبيديف:

- إن آذيت ابنتي فسأمزّقك إرباً إرباً. ضع هذا في اعتبارك.

قال الكاهن:

- أتعرف؟ من المستحسن أن تلفّ ابنتك وتخرج من الكنيسة، وسأرد لك الخمسة روبلات، ولنفترق بالحسنى، فلِمَ يجب عليّ أن أستمع طوال الوقت إلى هذه الوقاحة؟

حينها أخذ الأقارب في إبعاد ليبيديف، وهم يقولون له: «كفى! انتظر حتى تخرج من الكنيسة وحينها سنزهق روحك. لا تضايق الكاهن، وإلا رمى ابنتك على الأرض.. انظر! إن يديه ترتعشان».

ومع أن ليبيديف كان يتمزّق في داخله من فرط المتناقضات إلا أنه سيطر على نفسه ولم يُجب الكاهن بشيء. قال له فقط:

- حسناً.. لن أتحدث ثانية.. فلْتُتمّوا فقط عماداً نبيلاً عن حق.

لذا فقد بدأ الكاهن في الصلاة ثانية، ثم التفت إلى ليبيديف وقال له:

- ماذا أسميتموها؟ ما اسم طفلتك؟

فأجاب ليبيديف:

- أسميناها روزا.

فقال الكاهن:

- كم من المشكلات جلبتها لي! أخذت تضايقني، ثم يتضح أيضاً أنك لم تمنح الطفلة اسماً مناسباً! روزا.. إنه اسم يهودي، وإني أرفض أن أعمد الطفلة تحت هذا الاسم، لفُّوها داخل الملاءة واخرجوا من الكنيسة.

فقد ليبيديف شجاعته تماماً وقال:

- ما كل هذا؟! في البداية يتمنى أن تصيب الحمى الطفلة، ثم يرفض تعميدها تماماً! اسم روزا يعني نباتاً.. زهرة. الأمر الآخر خذ مثلاً: روزاليا سيمينوفنا.. موظفة الخزينة بالتعاونية. لن أجادلك في أن اسمها يهودي، ومع ذلك فلن ترفض طبعاً أن تعمدها.

قال الكاهن:

- هيّا لفّ طفلتك داخل الملاءة.. لن أعمّدها أبداً. ليس لدي مثل هذا الاسم مطلقاً في تقويم القديسين[14].

فقال الأقارب للكاهن:

- اسمع.. لقد سجلناها بهذا الاسم في الأوراق الرسمية، فإلامَ سيؤدي كل هذا الجدال الذي تثيره؟

وقال ليبيديف:

- لقد قلت هذا سابقاً. انظروا إلى هذا الكاهن.. إنه يسير ضد القوانين الرسمية، يمكن للجميع الآن أن يدركوا مدى وقاحة آرائه السياسية.

أما الكاهن، وقد رأى أن الأقارب لم يغادروا الكنيسة، ولم يأخذوا منه الطفلة، فبدأ يخلع ثيابه الكهنوتية؛ خلع رداءه المزركش، ورآه الجميع وهو لا يرتدي شيئاً سوى سرواله الداخلي، وحذاءه عالي الساق. واقترب بهذه الهيئة الدنسة من الأيقونات وأشعل أمامها الشموع وأراد أن يفرغ جرن[15] المعمودية من مائِه.

في أثناء ذلك وصل شخص آخر إلى الكنيسة، لقد جاء في الأساس بهدف فحص التعاونية، ولأنه لم يجد شيئاً ليفعله، دخل الكنيسة عن عمد ليرى كيف تسير الأمور فيها الآن.

والآن بدأ هذا الشخص في التحدث:

- على الرغم من أني ضد الطقوس الدينية، بل وأشعر بالعجب أيضاً من رجعية أولئك المواطنين المحليين، ولكن منذ أن قام الوالدان بتعرية الطفلة، وأرادوا بكل شوق أن يُعمِّدوها، فلابد أن

(14) تقويم يشمل في كل يوم ذكرى مولد أو وفاة قديس مع نبذة عن حياته.

(15) جرن مليء بالماء حيث يقوم فيه الكاهن بتعميد المتقدم للعماد.

يحدث هذا إذن. وكي يمكننا أن ننهي ذلك الموقف الصعب أقترح أن تسموا ابنتكما اسماً مركباً. على سبيل المثال: أطلقتما على ابنتكما: روزا.. فلنضف إليها مثلاً: ماريا، فيكون اسمها: روزا ماريا. هناك حتى أوبرا اسمها: روزا ماريا، وهذا يدل على أن الاسم موجود في أوروبا.

- ليس لدي في تقويم القديسين أسماء مركبة، بل وإني أشعر بالدهشة مما تفعله معي. إن أردتم يمكننا أن ندعوها: ماريا، لكن إن ظلت روزا فلن أعمدها أبداً.

قال ليبيديف:

- عليه اللعنة! دعه يسميها ماريا، وسنطلق عليها ما نشاء بعد أن نغادر على الفور.

ارتدى الكاهن رداءه الكنسي ثانية، وقام سريعاً بطقوس العماد، ولم يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق.

تحدث ليبيديف مع ذلك الرجل، وبفضل ذلك لم يطلق أياً من ملحوظاته على الكاهن أثناء العماد.. وهكذا انتهى الأمر بسلام.

ولكن الآمال التي علقها ليبيديف ألا يثير الأمر أي ضجيج لم تتحقق. كما ترون، فقد انتشرت القصة بأكملها في الصحف، ولكن لم يحدث هذا عبثاً. لا تذهب أبداً إلى الكنيسة إن كنت معارضاً لها، وإن ذهبت، فتصرف بأدب، ولا تزعج الكاهن بملحوظات غبية.

1938

لعبة مبهجة

منذ فترة غير طويلة تناولت طعامي في أحد المطاعم، ثم مررت بغرفة البلياردو، أردت أن ألقي نظرة على الكرات وكيف تتدحرج كما يقولون.

لا شك مطلقاً في أنها لعبة مثيرة.. إنها مسلية، وبإمكانها أن تبعد كافة الأحزان عن الإنسان، بل إن البعض يعتقدون أنها تزيد من شجاعة المرء وحِدّة بصره وقدرته على الانقضاض على هدفه. بل يؤكد الأطباء أنها لعبة مفيدة أيضاً للرجال الذين لا يشعرون بالاتزان.

لا أعرف، لكني لا أعتقد ذلك. قد يقوم أحد الرجال الذين لا يشعرون بالاتزان، بشرب كميات كبيرة من الجعة بينما يلعب البلياردو، حتى إنه يعود إلى منزله زاحفاً. وأشك أيضاً أنها لعبة مفيدة بالنسبة للمتوترين والمحبطين.

وبالنسبة لما يقولونه عنها من أنها تزيد من حدة البصر فالأمر ليس كذلك. كان أحد الرفاق في منزلنا يهدف إلى تصويب الكرة فضرب عينيه بالعصا، ومع أنه لم يفقد البصر كاملاً إلا أنه أصبح أحول. هذا هو ما يدّعونه حول زيادة حدة البصر! وإن حدث هذا مع عينه الأخرى فسيفقد البصر كاملاً.

لـذا فـما يدّعونـه مـن فوائـد للعبـة البليـاردو هـي مجـرد حكايـات خرافيـة للجـدات كـما يقولـون.

لكنهـا قطعـاً لعبـة مسـلية.. وبخاصـة عندمـا يلعبونهـا لمـدة طويلة. مـن الجـذاب جـداً أن تراقـب اللعـب.

نـادراً مـا يلعبونهـا الآن مـن أجـل المـال.. لكنهـم يفكـرون في بديـل آخـر مبـدع للـمال. بعضهـم يجعـل الخـاسر يزحـف تحـت منضـدة البليـاردو، وآخـرون يجبرونـه عـلى شراء الجعـة لهـم.

عندمـا مـررت هـذه المـرة بغرفـة البليـاردو شـاهدت منظـراً مضحكاً حقاً.

أمـر الفائـز شريكـه الخـاسر ذا الشـاربين بـأن يزحـف أسـفل المنضدة حامـلاً كافـة كـرات اللعـب. لقـد وضـع الكـرات في كافـة جيوبـه، وملأ يديـه الاثنتـين بالكـرات، والأكـثر مـن ذلـك أنـه أسـند كـرة أسـفل ذقنـه. وبهـذا المنظـر المضحـك زحـف الخـاسر أسـفل المنضـدة.

وبعـد أن لعبـوا دوراً آخـر فعلـوا الأمـر ذاتـه مـع الخـاسر ذي الشـاربين، بـل وأضافـوا كـرة أخـرى بـين أسـنانه، وأثـار هـذا المسـكين قهقهـة[16] الحاضريـن إلى أقـصى درجـة.

ولم يعرفـوا مـاذا يفعلـون بعـد دور جديـد مـن اللعـب. قـال الرجـل ذو الشاربين:

- دعونا نقُم بأمر أسهل مما فعلتموه معي.

ومع أن شاربيه قد تدليا، إلا أنهما كانا يرتعشان.

قال الفائز:

- لا تكـن أحمـق.. بهـذه الطريقـة سـوف ألقنـك درسـاً حقيقيـاً في

(16) في الأصل الروسي وصف الضحك بالهوميري، نسبة إلى هوميروس، وربما يقصد ضحكاً شديداً جداً كما في الأساطير ففضلنا ترجمتها بقهقهة.

كيفية لعب البلياردو.

وكان هناك أحد الأصدقاء بصحبة الفائز، فقال:

- لقد جاءتني فكرة؛ إن خسر ثانية فليزحف أسفل المنضدة حاملاً الكرات، ولنضف صندوقاً من الجعة على قدميه، وليزحف على هذا الوضع.

انفجر الفائز ضحكاً وقال:

- برافو.. سوف نشاهد عرضاً حقيقياً.

شعر الرجل ذو الشاربين بالاستياء، وقال:

- إن كان الصندوق مليئاً بالجعة فلن ألعب. حتى إن كان الصندوق فارغاً فسيكون الزحف به صعباً جداً.

وخسر الرجل، وزحف ثانية أسفل المنضدة مثيراً ضحكاتهم وهو يحمل الكرات في جيوبه وفي أسنانه، وقد زاد الأمر بصندوق على قدميه. زاد على ذلك أن قام صديق الفائز برمي الخاسر بالكرات وهو يزحف حتى يسرع في زحفه أسفل المنضدة.

حتى هذه اللحظة كان الفائز يقهقه بقوة حتى إنه سقط على أحد المقاعد من فرط الضحك.

أما الرجل ذو الشاربين فقد خرج من أسفل المنضدة في حالة مغايرة تماماً. نظر إلى كافة الحاضرين نظرة كئيبة، ولم يتحرك في البداية قيد أنملة من مكانه، ثم بدأ في إخراج الكرات من جيبه، وبدأ يفك الصندوق عن قدميه، وقال إنه لن يلعب مجدداً.

أما الفائز فقد كان يدمع من فرط الضحك، وقال:

- عزيزي يجوروف.. لتلعب معنا دوراً آخر.. لقد توصلت إلى فكرة آخرى مثيرة.

فقال:

- فيم فكرت؟

فقال الفائز وهو يكاد يختنق من فرط الضحك:

- دعنا نلعب يا يجوروف تلك المرة على شاربك. دائماً ما كنت أشعر بالضيق من هذا الشارب الرقيق. إن ربحت فسوف أحلق لك شاربك.. اتفقنا؟

فقال الرجل ذو الشارب:

- لا.. لن ألعب على شاربي إلا إذا أعطيتني أربعين نقطة مقدماً.

وخسر أيضاً تلك المرة.. وقبل أن يلتقط أحد من الحاضرين أنفاسه كان الفائز قد تناول سكيناً وبدأ يحلق هذا الشارب الرقيق لرفيقه البائس.

كاد الحاضرون أن يموتوا من فرط الضحك.

وفجأة اقترب أحد الحضور من الفائز وقال له:

- بالطبع رفيقك أحمق كي يوافق على مثل هذا الإجراء لقاء خسارته، وأنت تستغل هذا وتسخر من إنسان في مكان عام.

فقال صديق الفائز:

- وما الذي يجعلك تتدخل فيما لا شأن لك به؟ لقد وافق الرجل طواعية على هذا.

قال الفائز ليجوروف بصوت هادئ:

- تعال هنا يا يجوروف.. أخبر الحاضرين رجاءً أنك قد وافقت طواعية على كل ذلك.

أما الأخير، وقد علق يده على شاربه المحلوق، أجاب:

- معذرة.. لقد وافقت على الأمر طواعية يا إيفان بوريسوفيتش.

فقال الفائز متوجهاً صوب الحضور:

- البعض يجبرون السائق على الانتظار في قلب الصقيع لثلاث ساعات، لكني أتعامل مع الآخرين بإنسانية. هذا الرجل يعمل سائقاً لدينا في العمل، وأنا دائماً أجلبه معنا للداخل كي ينعم بالدفء. إني لا أتعامل معه أبداً بفوقية؛ بل إني ألعب معه البلياردو بطريقة ودّية. أعلّمه اللعب وأعاقبه بشكل طفيف، فعلام تنتقدونني الآن؟

قال السائق:

- هل هناك من بين الحاضرين من يعمل حلّاقاً؟ أريد من أحد أن يُسوِّي فقط شكل شاربي.

فخرج واحد من قلب الحضور وقال وهو يخرج المقص من جيبه:

- بكل سرور.. إن أردت يمكنني أن أجعل شاربك يشبه شارب شارلي شابلن.

وقاد الرجل السائق بعيداً، بينما اقتربت أنا من الفائز وقلت له:

- لم أكن أعلم أن هذا الرجل يعمل سائقاً لديكم.. اعتقدت أنه صديقك.. لم أكن لأسمح لك أن تقوم بمثل هذه الأفعال.

أما الفائز، وقد شعر بالخوف قليلاً، فقال:

- وأي نوع من الطيور أنت؟

- سوف أكتب مقالاً عنك.

فأجاب بعد أن فقد شجاعته:

- وأنا لن أخبرك بلقبي[17].

(17) المقصود اسم الجد أو اسم العائلة.

- سأكتب فقط ما حدث، وأصفك فقط برجل سمين كستنائي الشعر يدعى إيفان بوريسوفيتش. بالطبع يمكنك أن تفلت بفعلتك هذه، ولكن إن حدث ذلك، فعلى الأقل سوف تنتفض روحك المتعفنة أمام الصحف.

أما صديق الفائز، وما إن سمع حديثاً عن نشر الواقعة في الصحف وما شابه حتى تلاشى فوراً عن الأبصار.

تكدّر الفائز طويلاً، وأخذ يشرب الجعة صائحاً إنه لا يبالي بأحد.

حلقوا شاربَي السائق، وبدا أكثر شباباً وجمالاً، حتى إني قررت أن أقلل قليلاً من حدّة المقال.

وما إن وصلت إلى المنزل حتى كتبت المقال كما ترون. وأنتم تقرؤونه الآن، وبالطبع ستتعجبون من وجود مقامرين بهذه الضراوة، ومن أنكم قد تلتقون بمثل هؤلاء الرجال الممتلئين ذوي الشعر الكستنائي.

1938

الدكتافون[18]

يا لذكاء الشعب الأمريكي! كم قاموا باختراعات مدهشة، وكم سجلوا براءات اختراع! البخار، ماكينات جيليت للحلاقة الآمنة، دوران الأرض حول محورها.. كل هذا قد اكتُشِف واخترع من قبل الأمريكيين، وإلى حد ما من قبل الإنجليز أيضاً.

والآن لو تسمحون لي؛ لقد ابتهجت الإنسانية ثانية، فقد منح الأمريكيون العالم جهازاً جديداً، إنه الدكتافون.

بالطبع يمكن أن نقول إن هذه الآلة قد اخترعت قبلاً بشكل ما، لكنها لم تصل إلينا إلا في عام 1920 تحديداً.

لقد كان يوماً عظيماً مبهجاً عندما وصلت إلينا.. اجتمعت حشود الشعب لتنظر هذا الدكتافون.

أزال المبجل كونستانتين إيفانوفيتش ديرفياشكين اللثام عنها أمام الجمع، وفي تلك اللحظة شاهد المرء الآلة بأم عينيه واقتنع بعبقرية من اخترعها. اجتمع في الآلة عدد كبير حقاً من اللوالب الصغيرة والأقراص الجذابة، حتى إنه كان من المدهش أن يفكر المرء كيف يمكن لهذه الآلة التي تبدو ظاهرياً شديدة الرقة والضعف أن تعمل وتؤدي وظيفتها بدقة متناهية.

---

(18) جهاز شديد الحساسية يسجل كل ما يُملى عليه.

آآه.. أمريكا.. أمريكا.. كم هي بلد عظيم!

عندما فحصوا الآلة، وبعد أن أعرب الرفيق المبجل ديريفياشكين عن إعجابه بالأمريكيين تحدث قليلاً عن فوائد هذه المخترعات الرائعة، ثم حان دور التجربة العملية.

قال كونستانتين إيفانوفيتش:

- من فيكم يرغب في التحدث عن هذه الآلة الرائعة؟

وتقدم حينها الرفيق المبجل فاسيلي تيكين[19]، وهو نحيل طويل، يتقاضى راتب موظف في الدرجة السادسة بالإضافة إلى أجر ساعات العمل الإضافية من العمل. قال:

- لو تسمح لي، أود أن أجربه.

وسمحوا له بذلك.

اقترب من الآلة دون أي ارتباك، وأخذ يفكر طويلاً ماذا يجب أن يقول، لكنه لم يتوصل إلى شيء، وبعد أن لوَّح بيديه ابتعد عن الآلة حزيناً جداً على جهله الشديد.

ثم اقترب شخص آخر، ولم يفكر طويلاً وصاح بملء صوته:

- يا لك من أحمق لعين!

وحينها أزالوا الغطاء على الفور ونزعوا القرص ووضعوه في مكانه المحدد.. أتعرفون ماذا حدث؟ سجَّل القرص كل ما قيل وأعاده على مسامع الحضور جميعاً.

وحينها تدافع جميع المعجبين بالجهاز نحوه، وحاولوا أن يقولوا مختلف أنواع الكلام؛ ككلمة أو عبارة أو شعار، وسجلت الآلة كل ما قالوه وأعادت تشغيله بدقة.

(19) تيكين هو اسم العائلة بينما فاسيلي هو اسم الشخص، وفي اللغة الروسية كثيراً ما يذكرون اسم العائلة أولاً ثم اسم الشخص ذاته لذا فقد كانت في الأصل الروسي: تيكين - فاسيلي.

وعند ذلك تقدم فاسيلي تيكين الذي يتقاضى مرتب موظف في الدرجة السادسة بالإضافة إلى أجر ساعات العمل الإضافية وطلب من أحدهم أن ينطق أمام الجهاز ببعض السباب الفاحش.

في البداية حال الرفيق المبجل كونستانتين إيفانوفيتش تماماً دون السباب أمام الجهاز، بل إنه قام بالدفع بقدميه، ثم إنه بعد بعض الاحتكاكات اقتنع بالفكرة، وطلب منهم أن يأتوه بجاره. كان بحاراً بالبحر الأسود، وهو إنسان فظّ كثير السباب بطريقة مفزعة.

ولم يتركه البحّار ينتظر طويلاً، وظهر سريعاً.

- أين أسب تحديداً؟ أمام أية فتحة؟

وأشاروا له بالطبع إلى المكان المحدد. وكم جفلوا! كم جفلوا! حتى المبجل ديرفياشكين أشاح بيده كما لو أنه يقول: سُبّ نفسك ولا تسبّ أمريكا!

وبعد أن أبعدوا الرجل عن الجهاز أعادوا وضع الغطاء، وأعاد الجهاز كل ما سجله بالحرف.

حينئذ أخذوا يقتربون منه ثانية وأخذوا يجرّبون السباب أمام فتحة التسجيل بالجهاز ثانية، بكل طريقة ممكنة. ثم أخذوا في إطلاق كافة أنواع الأصوات: التصفيق بالأيدي، النقر بالأرجل على الأرض، وإصدار كافة الأصوات الممكنة باللسان، وأعادت الآلة تشغيل الأصوات دون تأخير.

وتعجب الجميع من عظمة هذا الاختراع وروعته.

كانت المشكلة الوحيدة أن تلك الآلة بدت ضعيفة للغاية وغير مجهزة للأصوات شديدة الحدة. على سبيل المثال أطلق كونستانتين إيفانوفيتش طلقة من مسدسه، بالطبع لم يصوبها إلى

فتحة التسجيل، بل إلى أحد جوانب الجهاز، كي يسجل التاريخ تسجيل الجهاز لصوت تلك الطلقة، ولكن أتعلمون ماذا حدث؟ يبدو أن الجهاز قد تعطل.. تعطل تماماً.

إن نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر هذه، فإن أكاليل الغار التي يتقلدها المخترعون الأمريكيون وبعض الوسطاء قد تقل أهميتها وتنخفض بعض الشيء.

على الرغم من ذلك تبقى إنجازاتهم عظيمة ومهمة في عيون الإنسانية!

1924

ما أنشد العندليب؟

كم سيسخرون منا بعد حوالي ثلاثمئة عام! سيقولون كم عاش هؤلاء البشر بشكل غريب! سيقولون إنه كان لديهم نوع ما من المال وجوازات السفر، وكانت لديهم بطاقات هوية مدنية غريبة ومساحات يعيشون بها تقاس بالمتر المربع!

حسناً.. دعهم يسخروا!

ثمّ شيء واحد مهين في الأمر: لن يفهم هؤلاء الملاعين حتى نصفه، وكيف يمكنهم أن يفهموه من الأساس إن أصبحت حياتهم أمراً لا يمكننا أن نتخيله أو حتى نحلم به؟!

لا يعلم المؤلف أو حتى ينوي أن يتخيل كيف ستكون حياتهم، فلماذا يتعب المرء أعصابه ويفسد صحته؟ الأمر سواء.. لن يستطيع أحد تخيل شيء عن ذلك. الأمر سيان، فقطعاً لن يرى المؤلف شيئاً من تلك الحياة الرائعة المستقبلية.

ولكن أسيكون المستقبل حقاً رائعاً؟ حتى يريح المؤلف نفسه سيفترض أنه في المستقبل سيكون هناك كثير من الهراء.

ورغم ذلك ربما سيكون هناك قليل منه فقط.

فلنقل مثلاً -واعذروني على فقر الفكرة- إن أحدهم قد بصق على مركبة فضائية، أو إن بعض رماد إحدى المحارق الطقسية

اختلط برماد آخر، فبدلاً من أن تنثر رماد قريبك المتوفى نثرت رماد شخص غريب متعفّن للغاية. بالطبع لا يمكن تجنّب أمور كريهة تافهة من قبيل تلك الأمور التي تحدث في كل يوم.

ومع ذلك فتلك الحياة المستقبلية سوف تكون رائعة وسامية حقاً.

قد لا تكون هناك حتى نقود لدى الناس، وربما يكون كل شيء مجانياً على سبيل الهبة. فلنقل مثلاً إنه سيمكن لأي إنسان أن يحصل مجاناً على معطف من الفرو ووشاح من المتاجر المختلفة.. سيقولون له مثلاً: تعال أيها المواطن.. لدينا معطف ممتاز من الفرو!

ثم تقترب منهم ولن يرتعش قلبك، وتقول لهم:

- لا أيها الرفاق المبجلون.. ماذا أفعل بمعطفكم هذا؟ لديَّ ستة معاطف مثله.

آآه.. اللعنة.. يا للمستقبل السعيد الجذاب الذي يصوره لنا المؤلف!

لكن عليك أن تتوقف هنا لتفكر قليلاً، فإن أخرجنا من الحياة مثل هذه الحسابات المالية والحوافز المادية، فتُرى كيف ستكون هذه الحياة الرائعة! وأي سمات مذهلة ستكتسبها العلاقات الإنسانية في حياة كهذه! الحب مثلاً.. كم سيكون عبير الأزهار رائعاً، ذاك الذي يعبِّر عن أرق المشاعر!

آآه.. يا لها من حياة! يا لها من حياة! بأي سعادة غامرة يفكر المؤلف في مثل هذه الحياة، وحتى إن فكرنا فيها من بعيد، ودون أدنى ضمان للوصول إليها! فلنأخذ الحب مثالاً.

لابد أن نتحدث بشكل خاص عن الحب. كثير من العلماء عامة يميلون إلى الحط من شأن هذه العاطفة. يقولون: معذرة..

أي حب تتحدثون عنه؟ لا يوجد شيء يُدعى الحب. لم يكن أبداً شيء كهذا وهو غير موجود الآن أيضاً. إنه بشكل عام فعل طبيعي للمواطن العادي، كالدفن مثلاً.

والمؤلف لا يمكنه الاتفاق معهم في ذلك.

لا يودّ المؤلف أن يُدلي باعترافه أمام قارئ لا يعرفه، ولا يود أن يكشف عن حياته الحميمية لتتعرض للنقد الشديد، لكنه بينما يتأمل فيها يتذكر إحدى الفتيات في أيام شبابه. كان لديها ذلك الوجه الأبيض السخيف، وكذلك اليدان والأكتاف البائسة. ويا للبراءة التي غرق فيها المؤلف! ويا للمشاعر الحسية التي مر بها، من انغماسه في كافة أنواع العواطف النبيلة، حتى إنه كان يركع ويُقَبِّل الأرض كالأحمق!

الآن وبعد أن مر خمسة عشر عاماً على ذلك، وشاب المؤلف من مختلف الأمراض ومن صدمات الحياة، ومن القلق أيضاً، ولأن المؤلف لا يريد ببساطة أن يكذب، وليس لديه سبب من الأساس كي يكذب، وطالما أنه يريد في النهاية أن يرى الحياة كما هي دون أي كذب أو تجميل، فهو لا يشعر بالخوف إذن من أن يكشف عن سخافة الإنسان في القرن الماضي، بل ويؤكد أنهم في الدوائر العلمية والاجتماعية قد أخطؤوا كثيراً في هذا الأمر.

ولكن ذلك الحديث عن الحب سوف يستلزم كمية وافرة من العقوبات القاسية من قِبل بعض الشخصيات العامة.

يقولون:

- أيها الرفيق.. إن شخصيتك لا يمكنها أن تكون مثالاً صالحاً. لماذا تزعجنا بمغامراتك العاطفية؟ شخصية مثل شخصيتك لا تتواءم جيداً مع عصرنا، بل إنها قد وصلت عرضاً إلى يومنا هذا!

أتـرون؟ عرضـاً! إن تسـمحوا لي بالتسـاؤل: مـاذا تقصـدون بـ «عرضـاً»؟ أتريـدون أن تأمـروني بـأن ألقـي نفـسي أسـفل عربـة الـترام؟

ويجيبون:

- نعـم.. إن كان هـذا يـروق لـك. أسـفل الـترام أو مـن فـوق الجـسر، المهـم أن تختفـي مـن الوجـود. انظـر إلى البسـطاء وغـير المتعلمـين مـن النـاس، وسـترى كيـف يفكـرون بشـكل مختلـف[20].

آآه.. معـذرة أيهـا القـارئ عـلى هـذا الفاصـل مـن الضحـك! منـذ مـدة غـير طويلـة قـرأ المؤلـف في صحيفـة «برافـدا»[21] كيـف قـام أحـد الحلاقـين الشـباب بعـضّ أنـف أحـد المواطنـين مـن فـرط الغـيرة.

أليـس ذلـك حبـاً؟ أتقولـون إنـه نفـس الـشيء كـما تتـبرز خنفسـاء مثـلاً؟!

أيكـون عـضّ الأنـف في رأيكـم قـد حـدث بدافـع مـن الرغبـة في التـذوق مثـلاً؟

سـحقاً! لا يـود المؤلـف أن يزعـج نفسـه ويثـير الغضـب في داخلـه، فعليـه أن ينهـي القصـة أولاً، ثـم يرحـل إلى موسـكو، ثـم يقـوم ببعـض الزيـارات الثقيلـة عـلى نفسـه لبعـض النقـاد الأدبيـين كي يطلـب منهـم ألا يتسرعـوا في كتابـة المقـالات والمراجعـات النقديـة بشـأن هـذه القصـة.

حسناً.. الحب!

فليعتقـد كل امـرئ مـا يشـاء عـن هـذه العاطفـة الرائعـة، ورغـم أن المؤلـف يـدرك جيـداً عـدم أهليتـه وعـدم قدرتـه عـلى الحيـاة، وحتـى

(20) تحمل هذه السطور نقداً مريراً لانتقادات النقاد الرسميين المنتمين إلى النظام السوفييتي لزوشينكو.

(21) كلمة برافدا تعني: الحق، والبرافدا صحيفة روسية كانت من أكبر صحف العالم توزيعاً خلال الفترة السوفيتية. تأسست جريدة البرافدا في عام 1912 في سانت بطرسبرج، وكان لينين أحد المساهمين المؤسسين لها.

إن رمى بنفسه أسفل عربة الترام كما يقولون له -سحقاً لهم- فسيظل ثابتاً على رأيه.

يودّ المؤلف فقط أن يحكي للقارئ عن قصة حب واحدة بسيطة حدثت في هذه الفترة. سيقولون مجدداً: هل جننت أيها الشاب؟ ومن يودّ أن يسمع قصصك هذه في قلب هذا الكون الفسيح؟

وسيطلب منهم المؤلف بأمانة وصراحة:

- لا توقفوني أيها الرفاق.. أعطوا لي فرصة أن أعبر عن نفسي، ولو من باب المناقشة!

كم أصبح صعباً أن يمارس المرء الأدب!

يتفصد المرء عرقاً عندما يطرق غابات كثيفة غير مطروقة.

وما الهدف من كل ذلك؟ من أجل قصة حب تخص المواطن بيلينكين. إنه ليس صديقاً ولا أخاً للمؤلف، ولم يستدن منه المؤلف شيئاً، ولا حتى تربطه به أية روابط أيديولوجية. الحق يُقال إن المؤلف لا يبالي به على الإطلاق، وليست لديه رغبة في تصوير شخصيته تصويراً قوياً، بل إنه حتى لا يذكر وجه هذا المواطن جيداً؛ هذا المدعو: فاسيلي فاسيليفيتش بيلينكين.

الأمر كذلك بالنسبة للشخصيات الأخرى التي شاركت بشكل أو بآخر في هذه القصة، أو تلك التي مرت أمامه ولم تثر فضولاً لديه، باستثناء ليزوتشكا روندوكوفا التي يذكرها المؤلف جيداً، لأسباب خاصة جداً، يمكن أن نطلق عليها: أسباب شخصية.

يذكر المؤلف أيضاً - ولكن بصورة أضعف - شقيقها ميشكا روندوكوف، كان شخصاً عدوانياً وقحاً. بالنسبة لمظهره الخارجي كان ذا شعر يميل إلى اللون الرمادي ووجه منتفخ.

ولا يود المؤلف أن يتوسع أكثر من ذلك في وصف مظهره. لقد وصل به العمر إلى مرحلة انتقالية. يمكنك أن تصفه، وستجد ابن الكلب هذا قد ظهر لك فجأة فور ظهور الكتاب، وسترى إلى أين يصل بك الأمر مع ميشكا روندوكوف. وربما تجد شارباً قد نما على وجهه بينما لم يكن لديه مثله أثناء أحداث القصة.

أما فيما يتعلق بتلك العجوز والدة روندوكوفا، فأعتقد أن القارئ لن يعارض إطلاقاً أن نتجنب الحديث عنها، وبخاصة أنه من الصعب جداً أن نصفها بشكل فني. إنها امرأة عجوز.. هذا كل ما في الأمر، وحتى مَن يبالي بها على الإطلاق، ومن يهتم بأي شيء في وصفها، ولنقل أنفها مثلاً؟ إنه مجرد أنف.. ولن يجعل وصفها القارئ يعيش بصورة أفضل.

بالطبع لا يمكن للمؤلف أن يُبدع قصة فنية حقيقية إن لم تكن لديه سوى تلك المعلومات التافهة عن أبطاله. لديه بالطبع ما يكفيه من المعلومات.

على سبيل المثال يمكن للمؤلف أن يرسم حياتهم بدقة. لديهم منزل صغير.. منزل مظلم مكون من طابق واحد. إنها الشقة رقم 22 في الواجهة، وهناك لوحة تذكارية معلقة على الحائط مرسوم عليها صنارة. تُرى في حالة الحريق من يمكنه أن يحمل هذه اللوحة؟ على آل روندوكوف أن يسحبوا الصنارة، ولكن هل لديهم صنارة؟ آآه.. ربما لا! ولكن مثل هذه الأمور ليست تفاصيل فنية، بل إنها أمور قد تسترعي انتباه إدارة المقاطعة.

أما عن جوهر منزل آل روندوكوف، وطريقة تشكيله من الداخل - إن جاز التعبير - فمازال الأثاث جلياً في ذاكرة المؤلف، تتكون الشقة من ثلاث غرف صغيرة. الأرض منحنية، وهناك بيانو

غريب من نوع بيكر، لا يمكن لأحد أن يعزف عليه. يا له من أثاث! ثمة أريكة، وقط - أو قطة - يجلس عليها، ويمكنك أن تنظر في المرآة ساعة أسفل مصباح الزاوية المترب. المرآة نفسها معتمة، تُظهر لك صورة غير حقيقية، وهناك أيضاً صندوق ضخم تفوح منه رائحة النفثالين والذباب الميت.

كم سيكون من الممل لسكان لعاصمة أن يحيوا في منزل كهذا!

كم سيكون من الممل أن تدخل مطبخاً وتجد الثياب الداخلية الرطبة معلقة على بعض الخيوط!

تُعد العجوز على الموقد بعض الطعام. على سبيل المثال تنظف البطاطس وتقشرها، فيبدو القشر أسفل السكين كوشاح.

ولا تعتقد أيها القارئ أن المؤلف يصف هذه التفاصيل الصغيرة التافهة بأي شعور من الإعجاب أو المحبة.. لا على الإطلاق!

ليس هناك أقل قدر من العذوبة أو الرومانسية في تلك التفاصيل. يعرف المؤلف مثل هذه المنازل وتلك المطابخ جيداً.. لقد شاهدها وعاش فيها، وقد يكون فيها حتى الآن. ما من شيء حسن في ذلك على الإطلاق.. بؤس خالص! ادخل فقط إلى مطبخ كهذا، ولابد أن يلتصق وجهك بأحد الثياب الداخلية الرطبة، ولن يكون الأمر سيئاً جداً إن وجدت في ذلك الجزء النبيل من الحمّام داخل الخزانة شيئاً على الإطلاق سوى جورب مبتل.. معذرة أيها السادة!

يا إلهي! كم هو أمر مقزز أن يلتصق وجهك بجورب مبتل! اللعنة على هذه القذارة!

ولأسباب لا تتعلق بالأدب توجَّب على المؤلف أن يذهب عدة مرات إلى منزل آل روندوكوف، وكان المؤلف يتساءل دائماً كيف

عاشت تلك الآنسة الصغيرة الرائعة.. تلك الكونفالاريا الكبوسين[22] التي تدعى ليزوتشكا روندوكوفا في ذلك المكان؟!

دائماً ما كان المؤلف يشعر بالأسف الشديد على تلك الآنسة الفاتنة، وسيتحدث عنها في الوقت المناسب بدقة وإسهاب، أما الآن فعلى المؤلف أن يتحدث قليلاً عن المواطن فاسيلي فاسيليفيتش بيلينكين.

لابد للمؤلف أن يحكي عنه ويذكر من أين جاء، وما إن كان موثوقاً فيه من الناحية السياسية[23] أم لا، وما العلاقة التي تربطه بآل روندوكوف المبجلين، وما إن كان قريباً لهم أم لا.

لا.. إنه ليس من أقربائهم؛ بل ظهر في حياتهم فجأة بشكل عرضي تماماً.

وقد حذَّر المؤلف القراء مسبقاً من أنه لا يذكر هيئة بيلينكين هذا جيداً، ومع ذلك فإن أغمض عينه قليلاً فبإمكانه أن يتخيله كما لو أنه حي أمامه.

دائماً ما كان يسير هذا المدعو بيلينكين ببطء، بل مستغرقاً تماماً في التفكير، ويداه خلف ظهره، وكثيراً ما يغمز بعينيه بشكل مريع.. محني الكتفين قليلاً، كما لو أنه يحمل هموم العالم فوق كتفيه.. وكعبا حذائه متآكلان تماماً.

بالنسبة لمستوى تعليمه فهو لم يتجاوز الصف الرابع في المدرسة الثانوية القديمة.

وبالنسبة لأصله الاجتماعي فهو غير معروف.

(22) نوعان من الزهور.

(23) تحمل كافة نصوص زوشينكو نقداً مستتراً للسلطة السوفييتية، والمقصود هنا هل البطل يؤمن بالأفكار الشيوعية أم لا.

لقد وصل من موسكو في قلب أحداث الثورة، ولم يتحدث كثيراً عن نفسه.

أما سبب مجيئه، فغير واضح أيضاً. هل بدت له الحياة في موسكو أفضل من ناحية توفر الغذاء؟[24] أم أنه لا يحب أن يمكث في مكان واحد، وكما يقولون، يحب المغامرات؟ عليه اللعنة هو وقرارته! لا يمكن للمرء أن يدرك الأبعاد النفسية داخل كل شخص.

لكن يبدو أن الاحتمال الغالب هو أنه قد ظن أن في موسكو سوف يجد مزيداً من الطعام، لأنه في الفترة الأولى قد اعتاد أن يذهب إلى السوق، وينظر الخبز الطازج، ويُملِّي نظره من أكوام المنتجات الغذائية المختلفة.

ولكن كيف تمكن من شراء الطعام؟ مازال هذا لغزاً أمام المؤلف. ربما تسوَّل الطعام، وربما جمع سدادات زجاجات المياه المعدنية وعصائر الفاكهة، ثم باعها. مثل هذه العمليات البائسة معروفة في المدينة.

ما نعرفه فقط أنه عاش في فقر.. بدا في حالة سيئة وبدأ يفقد شعره.. كان يسير منسحقاً مجرجراً قدميه وهو ينظر في كافة الجوانب، حتى عيناه توقفتا عن الغمز، وبدأ يحدق بعينيه بثبات، والكآبة تلوح عليهما.

ولسبب غير واضح، تحسنت أحواله فجأة بشكل غريب. في الوقت الذي بدأت فيه قصة الحب التي نحكي عنها، كان بيلينكين يتمتع بوضع اجتماعي ثابت في الوظيفة الحكومية التي يعمل بها

(24) بعد اندلاع الثورة في عام 1917 وقيام الحرب الأهلية بين الشيوعيين وأنصار النظام القديم حدثت أزمة كبيرة في توفر المؤن الغذائية.

مع حصوله على مرتب من الدرجة السابعة بالإضافة للأجر الذي يتقاضاه على ساعات العمل الإضافية.

وفي هذا الوقت استدار جسد بيلينكين بشكل ما، وصبوا داخل جسده عصارة الحياة ثانية إن جاز التعبير، وعاد ليغمز بعينيه ثانية.

عاد ليسير في الشارع ثانية بخطوات ثقيلة لإنسان عادت إليه قوة الحياة ثانية، وأصبح لديه الحق في أن يعيش وهو يعرف قيمة نفسه جيداً.

وبالفعل في بداية تلك الأحداث كان يبدو رجلاً لم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر.

كان يتنزه كثيراً في الشوارع، ملوحاً بعصاه، ويقطف الزهور من الشارع أو حتى العشب أو حتى ورق الشجر. أحياناً كان يجلس على إحدى الدكك على الرصيف، ويملأ رئتيه بالهواء المنعش ويبتسم في سعادة.

فيمَ كان يفكر؟ وتُرى.. ماذا كانت طبيعة هذه الأفكار الاستثنائية التي تدور في رأسه؟ لا أحد يعرف. ربما لم يكن يفكر في شيء. ربما كان ببساطة يشعر بالفرحة لوجوده فقط، أو ربما كان يفكر أن عليه أن يغير شقته في أسرع وقت.

في واقع الأمر لقد عاش لدى فولوساتوف الشماس بالكنيسة، ونظراً لعمله الحكومي فقد خاف من الإقامة لدى شخص لديه آراء سياسية فاسدة[25].

وظل يسأل مراراً وتكراراً؛ ألا يستطيع أحد أن يدله على شقة

(25) مجرد أن يكون الشخص منتمياً للكنيسة في هذا الوقت فهو أمر قد يجلب إليه المشكلات نظراً لمعارضة السلطة السوفييتية للدين بشكل عام، والكنيسة بشكل خاص.

جديدة أو حتى غرفة؟ فلم يعد في إمكانه أن يعيش في شقة أحد خدام طائفة دينية معينة.

وأخيراً دله أحد الطيبين على غرفة مساحتها 2 متر مربع. وكانت الغرفة بمنزل آل روندوكوف، وسرعان ما ذهب إليها بيلينكين. شاهد الغرفة في يوم، وفي اليوم التالي انتقل إليها من الصباح الباكر، وقد استأجر نيكيتا حمال المياه كي يساعده في الانتقال.

ولم يكن الشماس في حاجة مطلقاً إلى بيلينكين، ومع ذلك تأذى بسبب غياب مشاعره تماماً، وأخذ يسبه سباباً مقذعاً، بل وهدَّده بأن ينهال عليه ضرباً إن سنحت له الفرصة. وعندما بدأ بيلينكين في تحميل أغراضه على إحدى العربات نظر الشماس من النافذة وأخذ يتصنع الضحك، وقد تمنى أن يجعله هذا يبدو وكأنه لا يبالي مطلقاً برحيل بيلينكين.

ومع ذلك كانت زوجة الشماس تركض من وقت للآخر صوب الساحة، وتلقي بأي شيء على العربة وهي تصرخ:

- رحلة سعيدة.. أتمنى أن تسقطا كالحجر في المياه.. لن نؤخركما!

تجمّع المارة والجيران وأخذوا يضحكون برضى، وهم يُلقون بالتلميحات على وجود علاقة غرامية بين بيلينكين وزوجة الشماس.. والمؤلف لا يمكنه الجزم بشأن ذلك الأمر، إنه لا يعرف شيئاً عن الأمر، وهو لا يريد أن يستخدم الشائعات في بنائه الأدبي.

ولقد أجّروا الغرفة لفاسيلي فاسيليفيتش بيلينكين دون أية نية للربح ودون حاجة لفعل ذلك. من الواضح جداً أن العجوز داريا فاسيليفنا روندوكوفا خافت أن تقوم الحكومة بإسكان بعض

الأفظاظ من الناس أو عناصر غير مرغوب فيها عنوة في شقتها بسبب أزمة الإسكان.

وقد استفاد بيلينكين تماماً من هذه الفرصة. وبينما كان يمر بالقرب من بيانو بيكر، جلس عليه بغضب ولاحظ دون طيب خاطر أن هذه الآلة كانت غير ضرورية بشكل عام، وأنه إنسان هادئ قد أتعبته الحياة، وقد حارب في جبهتين ضمن سلاح المدفعية، وهو لم يعد يستطيع أن يتحمل أية أصوات بورجوازية ثانية.

قالت العجوز باستياء إن هذا البيانو موجود لديهم منذ أربعين عاماً، وإنهم لن يتخلصوا منه إرضاءً لرغباته، أو حتى ينزعوا منه أوتاره ودواساته، والأهم من ذلك أن ليزوتشكا روندوكوفا تتدرب عليه، وقد يكون هذا هو الشيء الأهم في حياتها بأكملها.

ابتعد بيلينكين عن العجوز بغضب واضح بعد أن قال إنه قد قدَّم اقتراحه هذا في صورة طلب مهذب، ولم يقصد على الإطلاق أن يصوغه في صورة أمر صارم.

ولكن العجوز كانت قد استاءت من الأمر، وانهمرت الدموع من عينيها، وكانت على وشك أن ترفض تأجير الغرفة له لولا أنها فكرت في احتمالية أن يُسكنوا أحداً عندها عنوة.

انتقل بيلينكين في الصباح، وأخذ يعمل حتى المساء في ترتيب أغراضه داخل الغرفة لتلائم ذوقه الذي يتلاءم مع العاصمة.

مر يومان أو ثلاثة بهدوء ودون أي تغيير واضح. كان بيلينكين يذهب إلى عمله، ويعود في وقت متأخر، ويظل مدة طويلة بغرفته، سائراً على أرض الغرفة مرتدياً خفيه الملبدين. وفي المساء يأكل طعاماً خفيفاً، وينام في النهاية، ويصدر صوت شخير خفيفاً من أنفه.

في هذين اليومين كانت ليزوتشكا روندوكوفا صامتة تماماً، وقد سألت أمها عدة مرات وكذلك ميشكا عن بيلينكين وشخصيته، وما إن كان يدخن التبغ أم لا، وهل لديه أية علاقة بمفوضية التموين بالبحرية أم لا.

أخيراً في اليوم الثالث شاهدت بيلينكين.

كان هذا في الصباح الباكر، وكان بيلينكين كعادته يستعد للذهاب إلى العمل.

ذهب صوب الردهة في ثياب النوم وياقته مرفوعة، والحمالة معلقة في سرواله من الخلف مفكوكة من كل اتجاه. كان يتحرك ببطء، ويمسك في إحدى يديه بالمنشفة وصابونة معطرة، وبالأخرى يملس شعره الناعم الأشعث من نوم الليلة الماضية.

كانت واقفة في المطبخ تؤدي بعض الأعمال المنزلية تشعل السماور[26] أو تضرم النار في بعض قطع الحطب الجافة.

ما إن شاهدته حتى صاحت صيحة خفيضة، وهرعت صوب إحدى الزوايا، وهي تشعر بالخجل من هيئتها غير المهندمة.

أما بيلينكين الذي ظل واقفاً عند المدخل، فأخذ يرمق الآنسة بخليط من الدهشة والإعجاب.

وقد كانت جميلة حقاً في ذلك الصباح.

كان لديها ذلك الوجه الشاب المنتعش الناعس، وكان تدفق شعرها الأشقر المنساب جميلاً بحق، وكذلك أنفها المرتفع قليلاً، وهذه العيون اللامعة. كانت متوسطة الطول لكنها ممتلئة بعض الشيء.. كل ذلك كان يضفي عليها جاذبية غير عادية.

(26) وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وبعض بلدان الشرق الأوسط. (الفاحص).

كانت لديها تلك اللامبالاة الساحرة، بل ويمكن أن تقول ذلك الإهمال المميز في المرأة الروسية التي تقفز من فراشها في الصباح دون أن تغتسل أو تصفف شعرها، وهي ترتدي خفيها الملبدين وتبدأ في أعمالها المنزلية.

ربما يُكِنُّ الكاتب إعجاباً لمثل هؤلاء النساء، وليست لديه البتة أية اعتراضات عليهن.

في واقع الأمر ما من شيء حسن في تلك النساء الممتلئات ذوات الأعين الكسولة.. إنهن لا يتميزن بالحيوية ولا بالبهاء ولا اللطف ولا بأي نوع من الدلال.. إنهن يتحركن قليلاً، ويرتدين خفوفاً ناعمة، ولا يسرحن شعورهن. بشكل عام - إن تسمحوا لي - مظهرهن منفّر، ولكن.. حسناً.. هكذا هو الأمر.

إنه أمر غريب أيها القارئ.

سيدة تشبه الدمية، والتي هي نتاج الثقافة البورجوازية الغربية - إن جاز التعبير - لا يمكنها أن تروق للمؤلف أبداً. الله وحده يعلم ما هذه التسريحة الغريبة! ربما تكون تسريحة يونانية. على أية حال لن تجرؤ على لمسها وإلا تحول الأمر لفضيحة حقاً، وهذا الفستان الغريب.. من المستحيل لمسه أيضاً. من يمكنه أن يقول لي من تلزمه مثل هذه الثياب؟ أين جمالها أو الفرحة التي يمكنها أن تشعها؟

على سبيل المثال فعندما تراها تجلس، يمكنك أن ترى بوضوح سيدة تجلس حقاً، وليس الأمر أنها تشبه مسماراً صغيراً كالأخريات، فمن يريد امرأة تشبه مسماراً؟ من يشعر أنه في حاجة إليها؟

يكنُّ المؤلف إعجاباً كبيراً للثقافة الأجنبية، إلا فيما يخص النساء، فالمؤلف يظل متمسكاً برأيه القومي في هذه المسألة.

ويبدو أن بيلينكين هو الآخر يحمل إعجاباً لهذا النوع من النساء.

في كل فرصة تتاح له كان يقف أمام ليزوتشكا روندوكوفا، وفمه مفتوح بعض الشيء من فرط البهجة، دون أن يربط حتى حمالاته، وينظر إليها بدهشة وسرور.

لكن ذلك كان يستمر لدقيقة واحدة.

أما ليزوتشكا روندوكوفا، فبعد أن تشعر بالدهشة تندفع صوب المطبخ وتذهب بعيداً لتسوي من شعرها وتعدل من ثيابها.

قبالة المساء وعندما عاد بيلينكين من العمل ذهب ببطء صوب غرفته آملاً أن يلتقي بليزوتشكا في الردهة.. لكنه لم يلتقها.

وفي وقت متأخر ذهب إلى المطبخ خمس مرات أو ستاً كي يلتقيها، وأخيراً التقاها، فانحنى لها بأدب بالغ وشجاعة وهو يميل برأسه صوب أحد الجوانب، ورفع يده بإشارة غير محددة تعبّر عن إعجابه وسروره الرهيب برؤياها.

تكرَّر اللقاء لعدة أيام في الردهة وفي المطبخ، وقد زاد ذلك من قربهما.

الآن أصبح بيلينكين يعود إلى المنزل ويستمع لليزوتشكا وهي تعزف بعض النغمات على البيانو ويطلب منها بإلحاح أن تستمر في هذا العزف المؤثر.

وتعزف ليزوتشكا «فالس» لعيناً أو بعض نغمات الشيمي[27] أو بعض النغمات الصاخبة من السلم الثاني أو الثالث، بل ومن الممكن أن تعزف بعضاً من الرابسوديا الرابعة لليسزت[28]، الله أعلم بها.

(27) Shimmy: نوع من الرقصات التي تتم على نغمات الجاز.

(28) فرانو ليسزت: عازف بيانو ومؤلف موسيقي هنغاري.

أما هذا المدعو بيلينكين والذي حارب سابقاً في الجبهات كافة، وتعرَّض لقصف المدفعية الثقيل، ما إن كان يستمع إلى هذه النغمات الركيكة لبيانو بيكر، بينما هو جالس في غرفته، حتى ينحني على ظهر المقعد حالماً، ويفكر في جماليات الوجود الإنساني.

بالنسبة لميشكا روندوكوف فقد بدأ حياة فاخرة للغاية، فقد منحه بيلينكين مرتين عشرة كوبيكات، بل وقد منحه ذات مرة خمسة عشر كوبيكاً، وطلب منه أن يصفر صوب غرفته حينما تذهب العجوز إلى المطبخ وتكون ليزوتشكا بمفردها في غرفتها.

أما لماذا أراد بيلينكين أن يعرف هذا، فما زال أمراً غامضاً للمؤلف. وكانت العجوز تنظر وهي في ملء البهجة إلى الحبيبين، وتفكر في تزويجهما بحلول الخريف على أقصى تقدير.

لم يحاول ميشكا روندوكوف هو الآخر أن يفحص أغوار بيلينكين النفسية، لكنه كان يصفّر ما يقرب من ست مرات في اليوم كي يذهب بيلينكين إلى هذه الغرفة أو تلك.

دخل بيلينكين الغرفة وجلس بالقرب من ليزوتشكا. في البداية تحدث معها قليلاً، ثم طلب منها بعد ذلك أن تعزف بعضاً من موسيقاها المفضلة. وعندما توقفت ليزوتشكا عن العزف على البيانو، وضع بيلينكين أصابعه - وهي أصابع شخص ذي مزاج فلسفي عانى من الحياة وتعرض لقصف المدفعية الثقيل - على يد ليزوتشكا البيضاء، وطلب من تلك الآنسة أن تقصّ له عن حياتها، وأبدى اهتماماً كبيراً بحياتها الماضية.

أحياناً كان يسألها ما إن كانت شعرت من قبل برعشة الحب الحقيقي، أم أن هذه هي المرة الأولى.

كانت الآنسة تبتسم بكآبة بعض الشيء وتقول:

- لا أعرف.

لقد أحبا بعضهما حباً قوياً حالماً.. لم يستطيعا أن يلتقيا مرة دون دموع أو ارتعاش.

وفي كل مرة يلتقيان فيها كانا يختبران مزيداً من الفرحة.

ومع ذلك فقد كان بيلينكين يختبر بعض الخوف في قلبه، ويستغرق بالتفكير في أنه ذهب مرتين إلى الجبهات كافة، وقد دفع ثمناً فادحاً كي يكتسب حق الوجود، وأنه يمكنه بسهولة الآن أن يمنح حياته من أجل أبسط نزوة لهذه الآنسة الصغيرة.

وبينما هو يسترجع في ذاكرته أولئك النساء اللاتي مررن بحياته، وحتى زوجة الشماس التي كان على علاقة بها - والمؤلف على يقين من ذلك - كان يفكر بثقة أنه الآن فقط، في عامه الثاني والثلاثين، قد عرف الحب الحقيقي، وهذا الشعور الرائع بالارتجاف.

هل كانت الحياة تموج بداخله، أم أن هناك ميلاً داخل الإنسان إلى هذه المشاعر الرومانسية المجردة؟ يظل الأمر غامضاً.

سواء كان هذا أم ذاك، فقد رأى بيلينكين أنه الآن قد أصبح إنساناً آخر يختلف عما كان عليه من قبل، وأن تركيبة دمائه قد تغيرت داخل جسده، وأن كل شيء في الحياة يعد أمراً تافهاً أمام قوة الحب غير العادية.

وبيلينكين هذا الساخر الذي مرَّ بمصاعب عديدة في حياته، وانهالت عليه القذائف والتقى بالموت وجهاً لوجه عدة مرات.. هذا الإنسان المخيف أخذ ينظم الشعر، ونظم عشر قصائد مختلفة، وأغنية عاطفية.

والمؤلف لا يعرف من قصائده سوى واحدة بعنوان: «لها وللأخرى» كان قد أرسلها إلى صحيفة: «ديكتاتورية البروليتاريا»

وتم رفضها من المحررين بوصفها غير ملائمة للعصر الاشتراكي، وأصبحت معروفة فجأة للمؤلف بفضل السكرتير التنفيذي إيفان أبرامانوفيتش كرانتس.

لدى المؤلف بعض الآراء بخصوص الأبيات الشعرية والشعر غير المحترف، لذا فلن يزعج القراء ومنضدي الحروف المطبعية بكتابة القصائد كاملة. يود المؤلف فقط أن يلفت انتباه منضدي الحروف المطبعية إلى أكثر المقاطع الشعرية قوة في قصيدته:

وبداخل قلبي شعار
الحب هو التقدم
ويذكر قلبي جمال
وجهه الفاتن الريان
آآه يا ليزا.. هذا أنا
احترقت كالرماد من نار الحب
وصداقتنا نار الحب

من وجهة نظر المدرسة الشكلية لا تبدو هذه المقاطع شديدة السوء، لكنها بشكل عام وضيعة إلى حد ما، ولا تحتوي على موسيقى شعرية، ولا حتى تتلاءم مع روح العصر.

فيما بعد لم يعد بيلينكين يشعر بالانجذاب صوب الشعر، ولم يكمل طريق الشعر المحفوف بالمتاعب. كان بيلينكين طوال الوقت يشعر بالانجذاب صوب الروح العملية الأمريكية، لذا فقد تخلص سريعاً من منتجه الأدبي، ودون شعور بالأسف دفن موهبته في باطن الأرض، وعاد ليعيش كما الماضي دون أن يخط أفكاره المجنونة على الورق.

استمر بيلينكين وليزوتشكا في لقاءاتهما في الأمسيات، بل وكانا يخرجان من المنزل، ويتسكعان حتى المساء في الشوارع والأزقة

المهجورة. أحياناً كانا ينعطفان صوب النهر، ويجلسان عند ضفته الرملية ويرمقان تيارات المياه السريعة لنهر كازيافكا في سعادة عميقة ساكنة. وأحياناً كانا يمسكان بأيدي بعضهما ويتنهدان بصوت خفيض، وشعور بالسرور يحيط بهما من جمال الطبيعة المبهر أو من سحابة جميلة تمر في السماء.

كان كل ذلك جديداً عليهما، وساحراً، وشعرا بأنهما يشاهدان ذلك للمرة الأولى.

أحياناً كان الحبيبان يفارقان المدينة ويتوجهان صوب الغابة، وهناك تتشابك أصابعهما ويسيران كثيراً حتى يتوقفا عند شجرة صنوبر أو شجرة مخروطية وينظران إليها بدهشة حقيقية وإعجاب مخلص بفتنة الطبيعة وجمالها، والتي أخرجت من تحت الأرض ما هو صالح ومفيد للإنسان.

أما فاسيلي بيلينكين المفتون بسحر الوجود على الأرض، والذي يُكنّ إعجاباً شديداً لقوانين الطبيعة، فكان يمنح نفسه الفرصة للتعبير عن عواطفه، ويجلس على ركبتيه أمام الآنسة ويقبّل الأرض من حول قدميها.

والقمر يعلو من فوقهما، والليل الغامض يكتنفهما، والعشب تحت أقدامهما، وتئزّ حشرات اليراعي من حولهما، والغابة ساكنة سوى من أصوات الضفادع والهوام. الجمال والسلام يخيمان على الأجواء.. إنه ذلك الفرح بالوجود البسيط الذي لا يريد المؤلف أن يترك نفسه ينساق خلفه إلى النهاية، لذا لا يريد بأي شكل أن يقحم نفسه بشكل غير ضروري في قلب هذا المشهد الساحر.

ازداد بيلينكين وليزوتشكا حباً لهذه الجولات التي كانا يقومان بها خارج المدينة. ولكن في إحدى هذه الجولات الساحرة، أصيب

بيلينكين بالبرد ونقلوه إلى الفراش في إحدى الليالي الرطبة. أصابه مرض يطلق عليه الأطباء التهاب الغدد النكافية.

وقبالة المساء شعر بيلينكين برعشة وألم حاد في حلقه، وبدا وجهه يتورم بشدة.

دخلت ليزوتشكا غرفته وهي تبكي بصوت خافت بشعر غير مرتب، مرتدية خفين خفيفين وهي تتعثر في خطواتها صوب الفراش، ولا تعلم ماذا عليها أن تفعل، وما العمل وكيف يمكن أن تنقذ المريض.

أما روندوكوفا الأم فكانت تمر على الغرفة عدة مرات في اليوم الواحد، وتسأل ما إن كان المريض يرغب في بعض حلوى التوت التي كانت تعتبرها مفيدة في كل أنواع الأمراض.

خلال يومين، وبعد أن ازداد تورم وجه بيلينكين جداً حتى أصبح لا يمكن التعرف عليه هرعت ليزوتشكا لتحضر طبيباً.

وبعد أن فحص الطبيب المريض ووصف بعض الأدوية، غادر المكان وهو يسب نفسه على الحضور بسبب الأجر التافه الذي تقاضاه.

هرعت ليزوتشكا روندوكوفا من خلفه، وأوقفته في الشارع وأخذت تعتصر يديه وهي تتمتم: ولكن.. ولكن كيف؟ ماذا حدث؟ أهناك أمل؟ على الطبيب أن يفهم أنها لا يمكنها أن تستمر إن خسرت هذا الإنسان.

وحينها قال الطبيب بلا مبالاة، وهو الذي تعود على مثل تلك المشاهد من واقع عمله إن المريض لديه التهاب بالغدد النكافية، وإن ذلك لا يمكنه -للأسف - أن يتسبب في موت أحد.

تكدرت ليزوتشكا بعض الشيء عندما علمت أن المرض ليس خطيراً، وعادت إلى المنزل بحزن، وبدأت في رعاية المريض بإيثار شديد، دون أن ترحم قواها الضعيفة وعدم تمتعها بصحة جيدة، ودون أن تخشى أن تلتقط عدوى ذلك المرض منه.

في الأيام الأولى كان بيلينكين يشعر بالخوف حتى من أن يرفع رأسه عن الوسادة، وكان يتحسس حلقه الذي يؤلمه بأصابعه، ويسأل بهلع ما إن كانت ليزوتشكا قد توقفت عن حبه بعد إصابته بالمرض الذي جعلها تشاهده في هذه الصورة القبيحة. ولكن الآنسة كانت تطلب منه ألا يقلق، بل وتقول إنه قد أصبح في نظرها أكثر جمالاً من السابق.

ضحك بيلينكين بهدوء ورضى وقال إن هذا المرض قد أثبت قوة حبهما أكثر من أي شيء آخر. وقد كان حباً فاتناً بحق.

ومنذ أن تعافى بيلينكين من مرضه وأخذ يرفع رأسه وعنقه ثانية بطريقة طبيعية بدا له أن ليزوتشكا روندوكوفا قد أنقذته من هلاك محقق.

لم يختبر فرحةً أو سماحةً كهاتين في أية علاقة سابقة كان قد انخرط فيها.

في أحد الأيام بعد تعافيه بمدة بسيطة أخذ بيلينكين ليزوتشكا من يدها، وبلهجة حاسمة طلب منها أن تستمع إليه جيداً وألا تطرح عليه أية أسئلة أو تقاطعه بأية كلمات غبية.

تحدث بيلينكين طويلاً بسرور، وقال إنه يعرف تماماً هذه الحياة، ويدرك بقوة صعوبة الوجود على هذه الأرض، وإنه بالماضي عندما كان غراً ساذجاً كان يتعامل مع الحياة بخفة بالغة، وإنه عانى بقوة في حياته، لكنه الآن، وبعد أن اكتسب خبرة كبيرة، فإنه

يعلم تماماً كيف عليه أن يعيش، وقد تعرف على قوانين الحياة الأساسية التي لا تتغير، وبوضع ذلك في الاعتبار فقد قرَّر إجراء بعض التغييرات على حياته.

باختصار طلب بيلينكين من ليزوتشكا بشكل رسمي الزواج، وطلب منها ألا تشعر بالقلق من المستقبل، حتى وإن ظلت عاطلة عن العمل، ولم تستطع أن توفر ولو كوبيكاً واحداً من أجل مصاريف معيشتهما.

في البداية خجلت قليلاً، وكي تزيد من فتنة هذه اللحظة تحدثت قليلاً عن الحب الحر، ثم أعربت عن قبولها بابتهاج لعرضه، قائلة إنها كانت تنتظره منذ مدة، وإنه لو لم يكن قد فعل هذا لكانت قد اعتبرته أسوأ المحتالين. أما بالنسبة للحب الحر، فمع أنه كان جميلاً في زمنه إلا أنه ليس كذلك الآن.

ومن فرط فرحتها بالخبر هرعت ليزوتشكا روندوكوفا فوراً صوب والدتها وإلى الجيران أيضاً داعية إياهم إلى حفل القران الذي سوف ينعقد قريباً في نطاق أسري متواضع.

هنأها الجيران بحرارة قائلين إنها تستحق أن تستريح أخيراً بعد كل هذا العناء الذي تكبدته طوال الفترة الماضية.

وبالطبع ذرفت والدتها الدموع، وذهبت صوب بيلينكين كي تتأكد من الخبر.

وأكد لها بيلينكين الخبر، بعد أن طلب منها بابتهاج أن تسمح له بمناداتها: «ماما». أما هي فبكت ومسحت أنفها في مئزرها، وقالت له إنها تبلغ من العمر الآن ثلاثة وخمسين عاماً، لكن هذا اليوم هو الأسعد من بين أيامها جميعاً. وبدورها طلبت منه

أن يسمح لها بأن تناديه: «فاسيا[29]»، وبالطبع وافق بيلينكين على هذا بلطف.

أما فيما يتعلق بميشكا روندوكوف، فلم يكن يبالي - إلى حد ما - بتلك التغييرات في حياة شقيقته، وكان يهيم في الشوارع في تلك اللحظة وهو يهز رأسه ويخرج لسانه.

لم يعد العاشقان الآن يتنزهان خارج المدينة، بل يمكثان في المنزل أغلب الوقت، يثرثران حتى وقت متأخر من الليل، ويتناقشان في تفاصيل حياتهما المستقبلية.

وفي إحدى تلك المحادثات تناول بيلينكين قلمه الرصاص، وبدأ يكتب على الورق الخطط المزمعة للغرف المستقبلية التي ستكون لهما، والتي ستكون صغيرة منفصلة في شقتهما المريحة.

وبالطبع تشاحنا حتى أوشكت أنفاسهما على التوقف، حول المكان الأفضل لوضع الفراش، وأين يضعان المنضدة والمزينة[30].

وأقنع بيلينكين ليزوتشكا بألا يرتكبا حماقة بوضع المزينة في زاوية الغرفة. قال:

- سوف يعيق هذا الحركة تماماً. أي فتاة شابة كانت لتفعل ذلك. من الأفضل تماماً وضع الكومود في الزاوية بدلاً منها، وتغطيته بمفرش جلدي تحيكه لنا ماما، وهي لن تعارض ذلك في شيء.

- وضع الكومود في الزاوية سيعيق الحركة كذلك. أما بالنسبة لأمر المفرش الذي ستحيكه ماما، فهذا ليس أمراً مقرراً، بل يجب أن نسألها أولاً.

هكذا قالت ليزوتشكا وهي تكاد تبكي تقريباً.

(29) فاسيا هي صيغة التصغير من فاسيلي والتي تنم عن التحبب وقرب العلاقة.
(30) منضدة خفيفة ذات أدراج ومرآة.

- هـراء.. وكيـف يمكـن أن ترفـض أن تحيكـه؟ لا يمكـن أن نـترك ثيابنـا الداخليـة عـلى عتبـة النافـذة.. هـذا هـراء كامـل!

- تحـدث أنـت معهـا إذن يـا فاسـيا (قالـت ليزوتشـكا بصرامـة) تحـدث معهـا ببسـاطة كـما تتحـدث مـع والدتك. قـل لهـا: ألا تمنحينا كومـوداً يـا ماما؟

- هـراء (قـال بيلينكـين) ومـع ذلـك فـإن كنـتِ تريدينني أن أفعـل ذلـك، فسـأذهب إليهـا عـلى الفـور.

وذهـب بيلينكـين إلى غرفـة العجـوز. كان الوقـت متأخـراً وكانـت العجـوزة قـد غطّـت في النـوم.

أخـذ بيلينكـين يهزهـا طويـلاً ليحـاول إخراجهـا مـن عـالم أحلامهـا، ولم تـرد أن تسـتيقظ وكأنهـا تفهـم الأمـر.

- اسـتيقظي يـا ماما (قالهـا بيلينكـين بصرامـة) ألا يمكـن أن نعتمـد عليـك أنـا وليزوتشـكا في أمـر صغـير؟ لا يمكننـا أن نـترك ثيابنـا الداخليـة عـلى إطـار النافـذة.

فهمـت العجـوز الأمـر بصعوبـة، وقالـت لـه إن هـذا الكومـود لم يتحرك مـن مكانـه منـذ واحـد وخمسـين عامـاً، وإنهـا لا تنـوي أن تحركـه إلى مـكان آخـر في العـام الثـاني والخمسـين، لا إلى اليمـين ولا إلى اليسـار، وإنهـا لم تصنـع هـذا الكومـود، وإن الوقـت قـد فـات عليهـا كي تتعلـم النجـارة وتصنـع واحـداً. حـان الوقـت إذن لفهـم ذلـك وعـدم إزعـاج العجـوز.

حـاول بيلينكـين أن يجعلهـا تشـعر بالخـزي، قائـلاً إنـه قـد ذهـب إلى الجبهـات كافـة، وتعـرّض مرتـين لقصـف مدفعيـة ثقيـل، وإنـه قـد حـان الوقـت أخـيراً كي ينعـم ببعـض الراحـة.

- يـا لـه مـن أمـر يدعـو للخـزي يـا ماما! هـذا الكومـود سـيجلب لـك الخـزي، ولـن يمكنـك أن تأخذيـه معـك إلى التابـوت. عليـكِ أن تعـرفي هـذا جيـداً.

- لـن أعطيـك الكومـود (صرخـت فيـه العجـوز) عندمـا أمـوت يمكنكـم وقتهـا أن تأخـذوا الأثـاث كافـة.

- فلتموتي إذن! (قال بيلينكين بسخط) سننتظر ذلك!

وعندما رأت العجوز أن الأمر قد أصبح جدياً فعلاً أخذت تنوح وتولول قائلة إنه في مثل هذا الوضع على ميشكا روندوكوف - هذا الطفل البريء- أن يقول الكلمة الأخيرة في الأمر، وبخاصة أنه الرجل الوحيد الآن في عائلة آل روندوكوف، والكومود ملكه في الحقيقة لا لليزوتشكا.

أما ميشكا روندوكوف الذي تنبه قليلاً فلم يكن ينوي أن يتخلى عن الكومود أبداً. قال:

- نعم.. البعض كرماء كفاية كي يمنحوك عشرة كوبيكات، ثم يأتونك طالبين الاستيلاء على الكومود. الكومود يكلفك مالاً أيضاً!

حينها صفق بيلينكين الباب من خلفه بقوة، وذهب إلى غرفته، ووبخ ليزوتشكا بمرارة قائلاً لها إنه دون كومود كرجل دون يد، وإنه عانى كثيراً كي يعرف ماهية الحياة، ولن يتراجع قيد أنملة عن أفكاره.

أخذت ليزوتشكا تنتقل بين بيلينكين وأمها، وتترجاهما أن يصلا إلى تسوية بشأن الأمر، واقترحت عليهما أن يُنقل الكومود من غرفة لغرفة من فترة للأخرى.

ثم طلب بيلينكين من ليزوتشكا التوقف عن التشاحن، وأن تذهب للنوم الآن كي تستجمع قواها في الصباح من أجل حسم هذا الأمر.

ولم يأت الصباح بجديد. تحدثت الأطراف جميعاً طويلاً بمرارة وغضب.

ومن فرط الغضب قالت العجوز بحسم يائس، إنها قد قضت مدة طويلة مع فاسيلي فاسيليفيتش بيلينكين، وإنها تعرف أنه يطلب منها اليوم الكومود، وغداً سوف يطهوها ويأكلها مع الخبز.. يا له من إنسان!

صرخ فيها بيلينكين قائلاً إنه سوف يجعل السلطات تقبض عليها بسبب نشرها للشائعات الكاذبة والتفوّه بشتائم غير لائقة.

وأخذت ليزوتشكا تهرع من واحد لآخر، وتسأل كلاً منهما ألا يصيح وأن يحاول أن يهدأ ويناقش القضية بهدوء.

حينها قالت العجوز إنها تجاوزت السن التي تسمح لها بالصراخ، وإنها تقول للجميع بهدوء إن بيلينكين منذ أن أتى للسكن معهم قد تناول الغداء ثلاث مرات، ولم يحاول - ولو حتى بدافع من اللطف - أن يعرض أن يدفع شيئاً.

اضطرب بيلينكين بصورة مريعة، وقال إنه تنزه مع ليزوتشكا كثيراً، واشترى لها كثيراً من الحلوى، واشترى لها مرتين باقة من الزهور، ولم يرسل لماما أي قائمة بالحساب أبداً.

حينها زمّت ليزوتشكا شفتيها، وقالت إنه يجب عليه أن يتوقف عن مثل هذا الكذب الشائن، وإنه لم يجلب لها حلوى أبداً، بل جلب لها نوعاً حمضياً من الحلوى[31]، وباقة صغيرة من البنفسج لا تساوي أكثر من بضعة كوبيكات، ولم تلبث أن ذبلت في اليوم التالي.

وما إن قالت ذلك حتى خرجت ليزوتشكا من الغرفة باكية، تاركة كل شيء للقدر.

(31) Acid drop حلوى بحجم قطع السكاكر الصغيرة الملونة تباع في علب صغيرة للأطفال.

أراد بيلينكين أن يلحق بها وأن يعتذر لها عما بدر منه، لكنه سرعان ما تشاحن ثانية مع العجوز ناعتاً إياها بالشيطانة، ولم يخرج من الغرفة إلا بعد أن بصق عليها.

ترك بيلينكين غرفته لمدة يومين، ولم يعلم أحد أين هو طوال تلك المدة، وعندما ظهر قال بلهجة رسمية إنه لن يستطيع أن يظهر ثانية في هذا المنزل.

بعد يومين كان بيلينكين قد انتقل إلى شقة أخرى عند آل أوفتشينيكوف. ولم تبارح ليزوتشكا غرفتها في ذلك الوقت احتجاجاً على ما فعله.

والمؤلف لا يعرف تفاصيل ذلك الانتقال إلى الشقة الجديدة، ولا يعرف أيضاً حجم المرارة التي عانت منها ليزوتشكا، وما إن كانت قد تجاوزت الأمر أم لا، وهل ندم بيلينكين على ما فعله، أم إنه قام بذلك بكل وعي وتصميم.

كل ما يعرفه المؤلف، هو أنه بعد أن انتقل بيلينكين بوقت طويل، بل بعد زواجه من ماروسا أوفتشينيكوفا ذهب إلى ليزوتشكا روندوكوفا. جلس كلاهما بجانب بعضهما وقد تأذيا من الصدمة وتبادلا بعض الكلمات البسيطة. ورغم ذلك كانا أحياناً يتذكران بعض المواقف السارة التي مرت بهما في الماضي، ويتحدثان عنها بحزن وأسف، وتنهمر الدموع.

وأحياناً كان بيلينكين يذهب إلى غرفة العجوز، ويبكيان على نصيبهما.

ثم توقف بيلينكين عن زيارة منزل آل روندوكوف. وإن حدث أن التقى ذات مرة بليزوتشكا في الشارع فكان ينحني لها بأدب واحترام ويكمل طريقه.

وهكذا انتهت قصة حبهما.

بالطبع في وقت آخر.. بعد ثلاثمئة عام مثلاً، لم يكن لهذا الحب أن ينتهي.. كان سينمو أيها القارئ العزيز ليصبح زهرة رائعة مبهرة.

ولكن الحياة تفرض قوانينها.

في نهاية هذه القصة يود المؤلف أن يقول إنه بعد أن انتهى من رواية قصة الحب البسيطة هذه، وانجذب بعض الشيء لشخوصها، لم يعد يدري أين هو العندليب الذي جاء ذكره بغموض في عنوان القصة.

ويخشى المؤلف أن يشعر قارئ شريف بالغضب، أو أن يشعر الكاتب على الآلة الطابعة بالغضب، أو حتى ناقد يائس، بعد أن يقرأ هذه القصة.

سوف يقول أحدهم: ولكن معذرة؛ أين العندليب تحديداً؟ وما الهدف من التحذلق على القارئ، وخداعه بعنوان مضلل؟

كان من العبث حقاً أن نبدأ السرد بقصة الحب هذه. لم يكن المؤلف ينوي هذا، بل كان يريد فقط أن يستعيد بعض التفاصيل إلى ذاكرته مجدداً.

كانت هذه هي لحظة الذروة عندما كان بيلينكين يصطحب الآنسة في نزهات خارج المدينة ويتسكعان حتى حلول الليل في الغابة، وهناك عندما استمعا لأصوات الحشرات وصوت العندليب وقفا مطولاً ساكنَين تماماً، حينها أشاحت ليزوتشكا بذراعيها علامة على الاستفهام وسألت:

- فاسيا.. في ظنك ما ينشد العندليب؟

ولكن فاسيا بيلينكين أجاب بثبات كما هو عهده دائماً:

- إنه يشعر بالجوع فحسب، وهذه طريقته في التعبير عن جوعه.

فيما بعد، وعندما تعرف جيداً على شخصية الآنسة، أجاب بيلينكين عن سؤالها بشكل أكثر تفصيلاً، وبغموض بعض الشيء، وأجابها قائلاً إن العندليب يتغنى بالحياة المستقبلية الرائعة.

والمؤلف يعتقد كذلك أيضاً.. يغني العندليب عن الحياة المستقبلية الرائعة التي ستحل بعد ثلاثمئة عام مثلاً أو أقل. نعم أيها القارئ.. سريعاً ما ستحل هذه الحياة وتنقضي الأعوام التي تفصلنا عنها سريعاً.

ولكن إن كانت الأمور بهذا السوء في هذه الحياة المستقبلية، فسيوافق المؤلف إذن بقلب حزين مكلوم على أنه قد أصبح لا حاجة به إلى تلك الحياة.

وقتها يمكنه أن يلقي بنفسه أسفل عربات الترام!

1925

الكلوش[32]

ليس من العسير بالطبع أن تفقد كلوشاً في الترام.. وبخاصة عندما تبذل مجهوداً كبيراً في دفع أحدهم، ذاك الذي يتلاصق بك بشكل مريب من الخلف، ثم تنظر فتجد نفسك دون كلوشك!

إن فقدان كلوش أمر تافه.

فقدت كلوشي مرتين في وقت متقارب جداً. من الممكن أن تقول إني لم أعد أتعجب من الأمر.

أدخل عربة الترام ولديَّ كلوشان على قدميّ الاثنتين، وأخرج فأجد كلوشاً واحداً على إحدى قدميَّ، والآخر قد اختفى. الحذاءان موجودان وكذلك الجوربان، والسراويل التحتية أيضاً مازالت في مكانها، ولكن أحد الكلوشين قد اختفى.

وبالطبع لا يمكنك أن تركض لتلحق بالترام.

خلعت الكلوش المتبقي، ووضعته داخل الصحيفة وأكملت طريقي.

أفكر أن أبحث عنه بعد العمل. أليس من الممكن أن يكون قد سقط مثلاً على أحد الأرصفة؟ سأبحث عنه في مكان ما.

رحت أبحث عنه بعد العمل. أول شيء فعلته أن استشرت أحد السائقين الذين أعرفهم، فأكد لي مباشرة قائلاً:

---

(32) حذاء فوقي مطاطي.

- الحمد لله أنك قد فقدته في عربة الترام. لو أنك فقدته في مكان آخر لم نكن لنجده أبداً، ولكن بما أنك فقدته في عربة الترام فأنت محظوظ حقاً. لدينا غرفة خاصة بالأغراض الضائعة. اذهب إلى هناك وخذ كلوشك.. يا لك من محظوظ!

قلتُ له:

- شكراً.. كنت أشعر أني أحمل جبلاً فوق كتفيَّ. كان الكلوش جديداً إلى حد كبير، فهذا هو الموسم الثالث فقط الذي أرتديه فيه.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى غرفة المفقودات. قلت لهم:

- هل أعاد إليكم أحدٌ كلوشاً؟ لقد فقدته في إحدى عربات الترام.

- ما شكله؟

- كلوش عادي مقاس 12.

- قد يكون لدينا الآلاف بهذا المقاس. صفه لنا تفصيلاً.

- إنه عادي جداً، متآكل بعض الشيء من الخلف، وليس به بطانة.

- قد تكون لدينا نفس المواصفات بأعداد أكبر.. أليس به تفاصيل مميزة؟

- بالطبع له.. إنه ممزق من عند مقدمة الإصبع، وتقريباً ليس به كعب.. متآكل تماماً، لكنه مازال سليماً من عند الجوانب

- انتظر.. سوف أبحث لك عنه.

وفجأة جاؤوا بكلوشي؛ فرحت جداً وتأثرت للغاية.

انظروا إلى ما حدث.. أعتقد أن نظامنا يعمل بشكل رائع.. ويا لهم من أناس مثاليين كي يعتنوا بأمر كلوشي بهذا الشكل! قلت:

- سأظل أشكركم يا أصدقائي حتى الممات، أعطوني إياه سريعاً، سوف أرتديه الآن.. شكراً لكم.

- لا أيها الرفيق المبجل.. لا يمكننا أن نمنحك إياه.. إننا لا نعلم؛ قد لا تكون فقدت كلوشاً فعلاً.

- لا.. لقد فقدته، «بشرفي» [33] فقدته.

- نحن نصدقك تماماً بل ونتعاطف معك، لكن لا يمكننا أن نعطيك إياه. عليك أن تجلب لنا دليلاً على أنك فقدت كلوشاً فعلاً. فلتجعل إدارة المنزل الذي تقطن فيه تؤكد لنا ذلك، وسنمنحنك إياه دون مزيد من الجدال.

- يا أشقائي.. يا رفاقي الطيبين.. إنهم لا يعرفون شيئاً عن هذا في المنزل، ربما لا يمنحونني مثل هذه الشهادة.

- سيمنحونك إياها، هذا عملهم، وإلا فما عملهم تحديداً؟

رمقت الكلوش بنظرة أخيرة وغادرت المكان.

في اليوم التالي ذهبت إلى ممثل لجنة المنزل الذي أقطن فيه وقلت له:

- امنحني شهادة بأني فقدت كلوشي.

- وهل فقدته فعلاً أم أنك تخادع؟ يمكن أن تكون قد رغبت في الحصول على واحد إضافي من السوق.

- أقسم بالله إني قد فقدته.

- بالطبع لا يمكنني أن أمنحك الشهادة بناءً على كلامك فقط. إن كنت تريد أن أمنحك الشهادة فاذهب إلى محطة الترام وائتني بشهادة من هناك تفيد بأنك قد فقدت كلوشك.

(33) كلمة يستخدمها بعضهم كقسم. (الفاحص).

- لقد ذهبت إليهم، وهم من أرسلوني إليك.

- اكتب لي إفادة إذن.

- إفادة بماذا؟

- في اليوم الفلاني فقدت كلوشي.. إلخ، ولن أتحرك من مكاني حتى يتم حل الأمر تماماً.

كتبت الإفادة، وفي اليوم التالي حصلت على شهادة رسمية، ذهبت بها إلى غرفة المفقودات، وقد منحوني هناك كلوشي دون كلمة واحدة. وعندما ارتديت كلوشي ثانية.. حينها فقط شعرت برقة متناهية.. الناس تقوم بعملها فعلاً. أين يمكن في هذا العالم أن يشغل الناس أنفسهم بكلوشي بمثل هذه الطريقة؟ ربما حتى كانوا قد ألقوا به من عربة الترام، أما هنا فلم يستغرق الأمر سوى أسبوع حتى منحوني إياه. أمر واحد مؤسف في هذه الحكاية، وهو أني في غضون هذا الأسبوع، وبينما كنت أحاول استرجاع كلوشي فقدت الآخر؛ كنت أحمله طوال الوقت ملفوفاً أسفل ذراعي، ولا أذكر أين فقدته تحديداً، لم أفقده في عربة ترام.. أمر مؤسف أني لم أفقده في عربة الترام. ولكن أين أبحث عنه؟ على أية حال لديَّ ذلك الكلوش الآخر، لقد وضعته على الكومود، عندما أشعر بالحزن سوف أنظر إليه، وسوف تفرح روحي وتبتهج. إن نظامنا يعمل حقاً بجودة! سيظل هذا الكلوش في ذاكرتي إلى الأبد!

غيوم

منذ فترة غير طويلة ركبت الترام. كنت واقفاً على طرف العربة بالطبع لأني لا أحب الوقوف بداخلها.

وقفت على طرف العربة وكلي إعجاب بالبانوراما المحيطة بي. عبرنا جسر ترويتسكي، وكان المنظر جميلاً بدرجة مدهشة.. حصن بطرس وبولس ذو القبة الذهبية، ونهر النيفا يتدفق بتياره الجبار[34]، والشمس تغرب.. باختصار.. كل شيء يبدو فاتناً.

وها أنا واقف على طرف العربة، وروحي مبتهجة بكل لون، وكل صوت وكل لحظة من الزمن.

تراودني أفكار سامية كثيرة، وعبارات إنسانية عديدة تتدفق إلى رأسي، ويسترجع عقلي قصائد شعرية متنوعة، وأتذكر قصيدة بوشكين حينما يقول: أبي.. أبي.. شباكنا التقطت ميتاً.

فجأة تُعكِّر محصلة التذاكر مزاجي الرائق، وقد بدأت تجادل أحد الركاب حول أمر ما.

وكما يقولون، وجدت نفسي حينها أهبط من أعلى السماء إلى عالم الأرض بآفاقه الضيقة وعواطفه التافهة. قالت محصلة التذاكر الشابة المثيرة للراكب بلهجة بغيضة:

---

(34) هذا الوصف للنيفا ورد ذكره في قصيدة للشاعر الروسي الكبير بوشكين في قصيدته: الفارس الذهبي.

- ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ أهي رحلة مجانية؟ باختصار إما أن تدفع وإما أن تغادر عربتي.

وكان حديثها موجهاً إلى إنسان يرتدي ثياباً متواضعة. وقف الرجل بوجهه الشاحب، وباختصار: لم يدفع الأجرة. أراد أن يتهرب من الدفع، وأخذ يفتش في جيوبه ولم يجد شيئاً، فقال مراوغاً:

- يا لها من محصلة تذاكر لطيفة، ويا لشفاهها الفاتنة! وكم تزعج نفسها وتُفسد من هيئتها الرائعة.. ليس لديَّ مال! سأهبط الآن محطة واحدة فقط وسـ.

- لن أجعلك تركب لمحطة واحدة مجاناً. إن لم يكن لديك مال، فلماذا صعدت إلى عربة الترام؟ هذا ما لا يمكنني فهمه.

قال الراكب:

- حسناً.. ربما يجدر بي أن أسير، ولكن كيف أستطيع السير ولديَّ تلك الفقاقيع التي في قدمي؟ يا لبلادة الحس التي أصابت هذا الجيل! إنهم لا يُقدِّرون أبداً ظروف الآخرين.. كل ما يشغلهم المال ثم المال!

امتلأ قلبي بالحزن، وشعرت بالأسف على هذا الإنسان الذي لا يملك حتى هذا القدر التافه من المال كي يركب الترام.

أخرجت المال وقلت للمحصلة:

- خدي هذا المال من أجل هذا الرجل الشاحب.. سوف أدفع له .

فقالت المحصلة:

- لا أقبل أي مال من أي طرف.

- ماذا تعنين بأنك لا تقبلين؟ كلام عجيب حقاً!

- لا أسمح بذلك كما قلت، وإن لم يكن معه مال فعليه إذن أن

يتعود السير على قدميه. في عملي لا يمكنني أن أشجع أحداً على القيام بمثل هذا الفعل الذي نتجادل بشأنه.

- معذرة.. هذا غير إنساني. عليكِ أن تتعاملي مع الإنسان بشكل إنساني عندما تكون ظروفه سيئة، وليس العكس. بالإضافة إلى ذلك قد يكون هذا الرجل قريبي، وأريد أن أسانده بدافع من شعوري بالقرابة.

- سوف أرسل قريبك هذا إلى مكان محدد الآن.

واتكأت على باب العربة وأخذت تصفر. قال الراكب لاهثاً:

- يا لهذه الشابة البغيضة! لا تصفري.. سوف أدفع!

وأخرج من جيبه ثلاث ورقات كل منها تساوي عشرة روبلات، وقال:

- لم أرد أن أفك عملات كبيرة بهذا القدر في الترام من أجل لا شيء. ولكن طالما قد وصل الجنون إلى هذا الحد، ولم يعد هناك دعم للركاب، فخذي إذن المال وأعطني الباقي، الذي بالكاد يمكنك أن تجديه.

قالت المحصلة:

- ولم تزعجني بمثل هذه العملات الكبيرة؟ ليس لديَّ باقٍ. هل يمكن لأحد أن يفك مثل هذه العملات؟

كنت سأقدم على ذلك، ولكن بعد أن لمحت هذه النظرة الصارمة التي وجَّهها الراكب صوبي، تراجعت عن ذلك.

قال الراكب:

- حسناً.. هذا هو الأمر. ولهذا لم أخرج هذه الأوراق لأني أعرف أن هذا بلا فائدة، ولن يمكن لأحد أن يفك مثل هذا المبلغ في الترام.

قالت المحصلة:

- يـا لسـذاجة هـذا الرجـل! سـأوقف الـترام هنـا، وليذهـب إلى الجحيـم.. إنـه يعرقـل عمـلي.

وأمسكت بالجرس وأرادت أن ترنه، فقال الراكب لاهثاً:

- إنها محصلة تذاكر غريبة حقاً، إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مثل هذا السلوك. حسناً.. توقفي.. لا ترني الجرس.. سوف أدفع حالاً.

وأخرج من جيبه عشرين كوبيكاً. قالت المحصلة:

- ولِمَ لمْ تخرج النقود من البداية أيها الطفيلي؟ ربما أردت رحلة مجانية!

فقال الراكب:

- لن يكفيها حتى وإن أعطيتها كل شيء! خذي مالك وكفّي عن هذه الفصاحة من فضلك. لقد اكتفيت من كل هذا الحديث في التفاهات.

- وعلى الرغم من أنها تفاهات (والتفتت للجمع من حولها) لكنها تعيق حركة جهاز مواصلات حكومي، وبسبب ذلك لابد أني قد تركت ركاباً كثيرين يصعدون العربة دون تذاكر.

وبعد محطتين غادر هذا الراكب البائس منزعجاً أشد الانزعاج، وتمتم ببعض السباب الفاحش الذي لا يصح ذكره هنا.

حينها قالت المحصلة:

- يا لهؤلاء الطفيليين!

وحينها قال أحد الركاب:

- نعم.. البعض يتمتع بالتفاهة والخسة. إن اختفوا عن العالم، فكل شيء يصير جميلاً، وستتبدد الغيوم من السماء.

وهنا تذكرت قصيدة بهذا المعنى:

منذ أن أصبحت السماء صافية رائقة

بدت لنا من بعيد تلك السحب الكريهة

تطفو في قلب السماء الزرقاء

لكني عبرت من فوق جسر آخر، وشعرت بالإعجاب ثانية من جمال الطبيعة من حولي، ونسيت تلك الغيوم التي تؤرق الحياة.

1938 - 1936

بوشكين

منذ تسعين عاماً مضت قتلوا ألكسندر سرجيفيتش بوشكين في إحدى المبارزات.

شعرت روسيا بأكملها بالحزن - إن جاز التعبير - وانهمرت الدموع في الذكرى السنوية لموته. ولكن أكثر من قتله الحزن كان إيفان فيودوروفيتش جولوفكين.

يمكن لكلمة واحدة أن تجعل هذا الإنسان الرائع يرتجف وينظر بعيداً.. إنها: «بوشكين».

وكيف يمكنه يا أشقائي ألا ينظر بعيداً عندما ينظر إلى ذلك الجانب الحزين الغامض من حياة هذا الشاعر العبقري!

سنبدأ قصتنا بالطبع من بعيد جداً.. وذلك حتى لا نسيء إلى ذكرى هذا العبقري الشهير. سنبدأ تحديداً من عام 1921، وحينها سيبدو كل شيء واضحاً.

في شهر ديسمبر من عام 1921 وصل إيفان فيودوروفيتش جولوفكين من الجيش إلى بلدته العزيزة، وكانوا قد بدؤوا هناك السياسة الاقتصادية الجديدة[35]. كانت هناك صحوة بالمكان. خبزوا

(35) ورد في الأصل الروسي اختصار هذا المصطلح باللغة الروسية. والسياسة الاقتصادية الجديدة هي تلك التي اتبعتها السلطة السوفييتية منذ عام 1921 وحتى 1928، وفيها تخلت السلطة قليلاً عن المركزية الشديدة والإجراءات الاشتراكية الراديكالية.

الكعك من جديد، وعادت التبادلات التجارية. باختصار.. عادت الحياة مجدداً. أما صديقنا جولوفكين، وعلى الرغم من ذلك، لم يلق سوى الفشل عند عودته إلى البلدة. لم يكن لديه مكان للإقامة، وكان يبيت في أيام السبت عند المعارف على أي حصيرة في الغرفة الأمامية، وهو أمر كان يثير الريبة بالطبع.

كان يقول:

- السياسة الاقتصادية الجديدة مجرد وهم.. ستة شهور ولا يمكنني أن أجد سكناً!

ورغم ذلك استطاع جولوفكين أن يجد مكاناً للسكنى في عام 1923. إما أنه قد دفع رشوة، وإما أنه قد تحصل على ثروة فجأة بطريقة ما.. المهم أنه وجد مكاناً للسكنى.

كانت الغرفة صغيرة، وبها نافذتان.. بالطبع هناك أرضية وسقف. كل هذا موجود.. لا يمكن للمرء أن يدَّعي أي شيء يناقض ذلك. ورتَّب جولوفكين المكان هناك بسرور شديد. علَّق الستائر المزركشة، وكان لابد له من تثبيت بعض المسامير حتى يعلق الستائر، وحينها يعيش كالملوك!

ومرَّ الوقت بالطبع، وحلت الذكرى السنوية السابعة والثمانون لموت شاعرنا الغالي بوشكين، ثم الثامنة والثمانون.

في الذكرى التاسعة والثمانين جرت الأحاديث في الشقة عن بوشكين.. عن الكاتب، الذي عاش في أيامه في هذا المسكن.. المكان الذي سعد بوجود هذا العبقري غير المحتمل، ولن يكون من السيئ أن نضيف إلى ذلك حدثاً له دلالته المهمة جداً، بهدف تنوير الأجيال القادمة.

شارك إيفان فيودوروفيتش جولوفكين أيضاً بغباء في هذه اللوحة التذكارية.. شارك برأسه!

ما حدث فقط هو أن الدمدمات علت فجأة في الشقة. انتفضت السيدات، وفُركت القدور، وتم مسح وتنظيف كافة زوايا المكان.

وصلت اللجنة المكونة من خمسة أفراد، وبدؤوا في فحص المكان. وقع بصر اللجنة على كثير من الفضلات المنزلية التافهة في أرجاء المكان؛ القدور والمعاطف، وتنهدوا بمرارة. قالوا: هنا أقام ألكسندر سرجيفيتش بوشكين ما يقرب من أسبوعين عند أحد الأصدقاء، ولكن ما الذي نراه الآن بعد مرور مئة عام؟ يمكننا أن نرى أنها قد تشوهت كاملاً.. هنا يمكن أن نجد مكنسة، وهناك يمكن أن نرى سروالاً معلقاً، ويمكننا أن نرى حمالات أحد السراويل ترفرف باهتياج.. إن هذا يعد إساءة مباشرة لذكرى ذلك العبقري! لا.. لم يكن من الممكن أن يسمح بوشكين لنفسه بأن يزور صديقه هنا، إن كان يعرف كيف سينتهي الحال بالمكان.

باختصار.. في غضون ثلاثة أسابيع أخرجوا كافة السكان من المكان.

بالطبع أخذ جولوفكين يسب ويلعن، وشعر بالضيق بشدة من عصر بوشكين القاسي هذا، وبخاصة من نيكولاي الأول[36]. ورغم ذلك كل ما انتهى إليه الأمر مع جولوفكين هو أنه لم يجد مكاناً ليعيش فيه.

(36) إمبراطور روسيا الخامس عشر ولد في غاتتشينا. أبوه هو القيصر باول الأول ابن القيصر بيتر الثالث ابن الإمبراطورة آنا بيتروفنا بنت القيصر بطرس الأكبر وحفيد القيصر بيتر الثالث والإمبراطورة كاثرين العظيمة، ووالدته هي ماريا فيودروفنا وجده القيصر ألكسندر الثالث، وتلقى تعليمه في الهندسة العسكرية فأصبح حامل بريد كبير مهندسي الجيش ثم أصبح قائد شعبة الحراس الأولى. تولى الإمبراطورية عام 1825 بعد وفاة شقيقه القيصر ألكسندر الأول وتنحي شقيقه دوق قسطنطين الكبير عن المنصب. إجراؤه الأول كإمبراطور كان إعدام المشاركين في انتفاضة نوفمبر. شهد عهده سيادة للملكية المطلقة في المجالات العسكرية والمدنية وبيروقراطية ومركزية لم يسبق لها مثيل، وقمَعَ بشدة أصحاب الفكر التحرري. طموحاته التوسعية نحو الغرب وسعيه إلى تفكيك الإمبراطورية العثمانية كانت سبباً في نشوب حرب القرم سنة 1853 التي قادت روسيا إلى الهزيمة أمام تحالف الدول الأوروبية الغربية وتركيا، ويعتقد العديد من المؤرخين أنه قتل نفسه بسبب هذه الحرب حيث إنه مات مسموماً إثر ورود أخبار هزيمة الجيش الروسي في إفباتوريا وخلفه ابنه القيصر ألكسندر الثاني.

وقد عبَّر إيفان فيودوروفيتش جولوفكين عن رأيه بصراحة، ولم يخش العواقب مطلقاً. قال:

- ما الذي يحدث؟ وحتى إن كان عبقرياً، وحتى إن نظَم القصائد، وقال: «الطائر الصغير يقفز فوق فرع الشجرة»، فما الذي يُبرِّر طرد السكان من شقتهم؟ فلتمنحوهم إذن سكناً بديلاً أو حتى غرفة في فندق!

أراد جولوفكين أن يسافر إلى مزار بوشكين، وينهال بالسباب هناك، ولكن بعد أن يجد مكاناً للسكنى.

ومازال يبحث حتى الآن، وقد أصبح هزيلاً، واكتسى بالشيب.. أصبح إنساناً يصعب إرضاؤه تماماً. يسأل الجميع من الذي عاش سابقاً في هذا السكن، وما إن عاش مبدع سابقاً بهذه الشقة: ديميان بدني[37] مثلاً أو كاتشالوف[38]؟ ويتساءل هل سيستولون على سكنه إن قرَّر العيش فيه؟

الأمر فعلاً هكذا: عاش هؤلاء العباقرة العظماء وتصرفوا بطيش، وكانوا يطوفون من شقة لأخرى، وينزحون من مكان لآخر، ولا ينتج عن ذلك سوى عواقب وخيمة.

دعنا لا نذهب بعيداً.. أحد الشعراء الذين أعرفهم قد انتقل في العام الماضي بين أكثر من سبع غرف، فكما تعرفون لم يحتمل أحد السكنى معه، ولا تأخره في دفع الإيجار. وقد يتضح بعد ذلك - والله وحده أعلم - أنه عبقري!

آآه.. وقد يستحوذون بعد خمسين عاماً مثلاً على تلك الغرف السبع! أملنا الوحيد في الأمر، أن تخف حدة أزمة السكن في هذا الوقت. هذا هو أملنا الوحيد!

1927

(37) شاعر أوكراني سوفييتي، واسمه الحقيقي: يفيم ألكسيفيتش بريدفوروف (1883 - 1945).

(38) فاسيلي إيفانوفيتش كاتشالوف: ممثل روسي سوفييتي ينحدر في الأصل من بيلاروسيا (1875 - 1948).

جُثّة حيّة
(قصة حقيقية)

قصة غريبة حدثت مع أحد العمال.. إنها غريبة جداً حتى إن نصف المشتركين في جريدتنا بعد أن عرفوها، فَكَّروا في الإقلاع عن الشراب!

لا تُخْفِ شيئاً أيها المشترك العزيز.. الإقلاع عن الشراب ليس مرعباً إلى هذا الحد. المؤلف على سبيل المثال، الذي شرب كل شيء وقتها، عدا الكيروسين، أقلع أيضاً عن هذه العادة الضارة، ولم يحدث شيء.. مازال حياً.

والذي حكى لنا هذه القصة الغريبة هو صاحبها نفسه؛ عامل بإحدى مصانع لينينجراد، وقد طلب منا ألا نذكر اسم عائلته، فهو أمر سيثير خجله كما يقول، لذا فلن نذكره. وكي نجعل القصة تسير بشكل حسن سنقول إن اسمه فيديا جوكوف.

قال فيديا جوكوف:

- لم أعد أشرب الجعة الآن، روحي لم تعد تتقبل ذلك. ورغم ذلك يقول الأساتذة العلماء إن الجعة مفيدة لجسد الإنسان، بل وتزيده سمنة، لكني لا أعتقد ذلك.

بالطبع قد يتناول أحد الأساتذة العلماء كأساً من الجعة على

الغـداء، ونصـف مقـدار عـلى العشـاء، فهـي مفيـدة لـه ولجسـده، وتجعلـه يـزداد سـمنة، ومـن لا ينتبـه لعـدد الكـؤوس، فلـن يجـد مـا هـو أسـوأ مـن الجعـة.

أنـا - عـلى سـبيل المثـال - أفقـد وعيـي مـن شرب الجعـة، وأصبـح كالميـت، حتـى أنفـاسي تتقطّـع!

ذات مـرة ذهـب الرفـاق في أحـد أيـام السـبت ليشربـوا، وذهبـت أنـا كذلـك. أخذنـا نـشرب ونـشرب، وفجـأة غامـت عينـاي بعـد الـكأس الخامسـة، وجلسـت عـلى المقعـد وقـد شـحب وجهـي وتـاه كل شيء.

صـاح الرفـاق:

- فيديا.. فيديا..

ولكن فم فيديا كان مفتوحاً، ولم يكن يتحرك تماماً.

اعتـذر الرفـاق للحضـور عـن الضعـف الـذي انتـاب جسـدي وأسـندوني وأخـذوني إلى منـزلي. وضعـوني عـلى الفـراش.. وحينها شـعرت بحـالي تـزداد سـوءاً.

عـلاوة عـلى ذلـك شـعرت زوجتـي بالهلـع، وأخـذت تمسـح جلـدي بخرقـة مبلولـة، بينـما أنـا مسـتلقٍ بـلا حركـة كالتمثـال.

ارتـدت زوجتـي معطفهـا سريعـاً وهرعـت إلى الطبيـب. جـاءني طبيـب التعاونيـة وفحصنـي ثـم قـال:

- لقـد طـرأ عـلى جسـده شيء مـا بسـبب شرب الجعـة.. ربمـا في الأمعـاء. خـذوه إلى المستشـفى وسـوف يعالجونـه هنـاك.

لذا أخذوني إلى المستشفى..

لا أذكـر شـيئاً بعـد ذلـك.. كـما لـو أن حائطـاً حديديـاً قـد سـقط عـليَّ!

اسـتيقظت عـلى شـعوري بالـبرد والجـوع. اسـتيقظت والظـلام يخيِّم

على المكان من حولي. أخذت أفكر في نفسي: لماذا هذا الظلام؟ لمَ أنا في قلب هذه الظلمة الحالكة؟ ما هذا الهراء؟ أين أنا؟

انتصبت وشاهدت الآتي: أنا جالس على ألواح عارية وعلى قدمي مكتوب: 17 أ، وحولي ما من مرضى. إني لا أفهم؛ إنهم موتى لا مرضى. ساورني الشك وشعرت بالخوف. أين أنا؟ وما هذا الرقم الموضوع على قدمي؟ أم تراني قد مت؟ أم أن الأطباء قد خُدعوا؟ ربما انقلب كل شيء رأساً على عقب من شرب الجعة، فاعتبروني ميتاً. آآه.. لا.. آآه.

أردت أن أشعل عود ثقاب لأنظر ما حولي بوضوح. حاولت تفتيش جيوبي، لكني لم أجد جيوباً. كانت إحدى قدميّ عارية، فوضعت يدي على الجزء العلوي من جسدي فوجدت بطني عارياً!

بالطبع أنا إنسان شجاع جداً، بل متهور أيضاً، لكن ما من شيء يمكن أن يقال هنا.. شعرت بالجبن! جلست على الألواح عارياً.

وفجأة سمعت بالقرب من باب الردهة أصوات أقدام تخطو بقوة على الأرض، ثم فُتِح الباب.

آآه.. ما العمل الآن؟ قد يكون الحارس. يجب عليَّ إذن ألا أشعر بالخوف منه. عليَّ فقط أن أنهض في الظلام وأصرخ، وسيموت من فرط الهلع. آآه.. ما العمل؟

وفي تلك اللحظة انفتح الباب، ودخل الحارس، وكان ذا لحية صغيرة رمادية، ويرتدي قلنسوة.

آآه.. ما العمل؟ وحتى لا أخيف المواطن عبثاً لم أتحرك ولم أصرخ ولم أفرك يديَّ، بل همست فقط بصوت خفيض من بين شفتي: «تس..».

وما إن سمع الحارس صوتي حتى انتفض في مكانه وفر صوب الباب كالكلب المذعور.

آآه.. لابد أني أخفت إنساناً. الأمر سيان الآن، صرخت:

- انتظر يا أخي.. لا تخف.. هذا أنا.. فيديا!

وركضت خلف الحارس، ركضت، وأخذ الرقم الملصق على قدمي يصدر صوتاً وهو يرتطم بها أثناء الركض. نظر الحارس من خلفه، وأخذ يركض باستماتة.

ركضنا في الردهة، وكاد الحضور أن يموتوا من فرط الهلع عندما شاهدانا، بينما أحاول أن أصل إلى أي شيء.

وصلت راكضاً إلى إحدى الغرف، ودخلت بعنف.

- أيها الأشقاء: هذا أنا.. فيديا جولكوف. أنا حي!

وضعوني على الفراش، وأخذوا يلومونني، مع أني لم أرتكب ذنباً.

- لن أشرب ثانية.. لن أسكر ثانية!

وهكذا توقفت عن الشرب.

أما الحارس فتنفس الصعداء، بل إنه جاء ليلقي نظرة عليَّ، وانتهى الأمر بأن أصبحنا أصدقاء وذهبنا لنشرب زجاجة جعة سوياً.

1924

حذاء قيصري

في هذا العام قاموا بعرض بعض سقط المتاع القيصري للبيع في القصر الشتوي. هل كانت إدارة المتحف هي التي تولت العمل أم طرف آخر؟ لا أعرف تحديداً.

ذهبت هناك بصحبة كاترينا فيودوروفنا كولنكوروفا. كانت في حاجة إلى سماور يمكنه أن يخدم عشرة أشخاص.

وبالمناسبة.. لم تستطع أن تجد هناك سماوراً. إما أن القيصر كان يشرب من إبريق الشاي، وإما أنهم كانوا يأتونه بالشاي من المطبخ في أي كوب زجاجي.. لا أعلم.. المهم أننا لم نجد هناك سماوراً.

إلا أنهم كانوا يعرضون هناك أغراضاً كثيرة أخرى، وفي الحقيقة كانت أغراضاً فاخرة: ستائر قيصرية متنوعة، أنسجة صوفية مزخرفة، كؤوس خمر متنوعة، أوعية للبصاق، وقمصان داخلية، وأغراض أخرى قيصرية متنوعة، وتجد عينيك تدوران بسرعة على الأغراض المختلفة ولا تعرف أيها تختار تحديداً.

حينها اشترت كاترينا فيودوروفنا بالمال الذي معها أربعة قمصان داخلية من القماش الرقيق بدلاً من السماور. أغراض فاخرة حقاً.. قيصرية!

وجـدت فجـأة في لائحـة المعروضـات: أحذيـة طويلـة الرقبـة، روسـية، وثمنهـا: ثمانيـة عـشر روبـلاً.

سألت البائع على الفور:

- أية أحذية تلك التي تعرضونها يا صديقي العزيز؟

فقال:

- أحذية قيصرية كالعادة.

- ومـا الـذي يضمـن لي أنهـا قيصريـة؟ قـد تكـون خاصـة بأحـد الحـرس أو الخـدم، وتعرضونهـا أنتـم عـلى أنهـا قيصريـة، وسـيكون هـذا بالطبـع أمـراً غـير لائـق.

فأجاب البائع:

- كل ما حولك أغراض قيصرية. إننا لا نبيع أية أغراض مزيفة.

- أرني إذن الحذاء.

ونظـرت إلى زوج الأحذيـة، وشـعرت بإعجـاب شـديد جـداً بـه، وكان المقـاس مناسـباً. لم يكـن الحـذاء لا ضيقـاً ولا واسـعاً؛ بـل مناسـباً. صحيح أن مقدمـة الحـذاء والكعـب مهترئـان قليـلاً، لكـن الحـذاء بشـكل عـام قـوي، ولم يرتـدِه أحـد لمـدة طويلـة. مـن المحتمـل أن القيـصر لم يرتـدِ الحـذاء سـوى لثلاثـة أيـام، فالنعـل لم يهـترئ بعـد.

قلت:

- يـا إلهـي! كاترينـا فيودوروفنـا.. هـل حلمـتِ مـن قبـل بارتـداء حـذاء قيـصري؟ أو سرتِ في الشـارع مثـلاً مرتديـة إيـاه؟ يـا إلهـي! كـم يتغـير التاريـخ يـا كاترينـا فيودوروفنـا!

ودفعـت ثمانيـة عـشر روبـلاً مقابـل الحـذاء، ولم أحـزن عـلى ذلـك. فبالطبـع سـعر كهـذا مقابـل حـذاء قيـصري لا يعـد مرتفعـاً عـلى الإطـلاق.

أخرجت الثمن من جيبي وأخذت الحذاء معي إلى البيت.

في الحقيقة كان ارتداء الحذاء صعباً من فوق الجورب، ناهيك عن الدثار الملفوف حول القدم. وقلت في نفسي: «ورغم ذلك سأرتديه».

ومرت ثلاثة أيام على ارتدائي للحذاء. في اليوم الرابع انفصل النعل فجأة عن الحذاء، ولم يقتصر الأمر على النعل فجأة، بل الجزء السفلي كاملاً بما فيه الكعب.

وهكذا وجدت قدمي تبرز من الحذاء.

حدث هذا الأمر المفجع في شارع الاتحاد، بالقرب من قصر العمل. وهكذا كان عليَّ أن أصل إلى المنزل عبر جزيرة فاسيليفسكي دون نعل.

شعرت بالأسف الشديد على المال.. ثمانية عشر روبلاً، ولم تكن هناك جهة يمكنني التقدم إليها بشكوى. ولكن لو كان الحذاء من مصنع «سكوروخود» أو أي مصنع آخر لكان الأمر مختلفاً. كان من الممكن القيام بأي إجراء أو حتى طرد المدير على هذا السوء في التصنيع. ولكن هذا حذاء قيصري!

ذهبت في اليوم التالي بالطبع إلى المتحف، ووجدت عمليات البيع قد انتهت وأُغلِق المكان.

وودت أن أهرع إلى الإرميتاج[39] أو إلى أي مكان آخر، لكني استسلمت. أوقفتني كاترينا فيودوروفنا عن عمل هذا. قالت لي:

- ليست فقط الأحذية القيصرية، بل حتى أي حذاء ملكي

(39) متحف إرميتاج في روسيا يعد واحداً من أكبر المتاحف في العالم، ويحوي 3 ملايين تحفة فنية (لا تعرض مرة واحدة)، واحد من أقدم المتاحف والمعارض الفنية والبشرية والتاريخية والثقافية في العالم. وتقع الفروع الدولية للمتحف في أمستردام، لندن، ولاس فيغاس وفيرارا بإيطاليا. يحمل متحف إرميتاج سجل غينيس لأكبر مجموعة من اللوحات في العالم.

سيبلى بعد مرور كل هذا الوقت. لقد مرت عشرة أعوام منذ اندلاع الثورة. أي شيء كان سيبلى بالطبع مع مرور كل هذا الوقت. لابد أن تفهم هذا.

وفي الحقيقة يا أشقائي.. لقد مرت فعلاً عشرة أعوام منذ اندلاع الثورة. الأمر ليس مزاحاً. لقد بدأت كافة أغراضهم تبلى.

ومع أن كاترينا فيودوروفنا هي التي هدأتني، إلا أنها بعد أن غسلت قمصانها الداخلية التي اشترتها ووجدتها قد تمزقت إلى أجزاء، بدأت تلعن النظام القيصري وتسبه بمرارة.

ولكن عشرة أعوام كانت قد مرت.. سيكون من المضحك أن نُحمِّلهم الذنب على ذلك.

الوقت يمر سريعاً يا أشقائي! وقد أضحى الماضي رماداً!

1927

حكاية الرجل الذي طردوه من الحزب

بالعودة للزمن حيث بدأت حملة التطهير الأولى[40]، هناك رجل قد طردوه من الحزب.

كان بشكل ما ضمن مصففي الشعر المصابين. وقد طردوه من الحزب لسبب تافه: كان يحب الشرب كثيراً. وكانت لديه تلك الطبيعة التي تجدها في عمال أحواض السفن؛ كان دوماً ما يبلل ياقته، ولا يستطيع أن ينتصب جيداً على قدميه.

لذا ولأنه يعمل مصففاً للشعر لا موظفاً، فكان من الممكن دائماً أن يشوه أياً من زبائنه جسدياً، ناهيك عن التشوهات التي من الممكن أن يلحقها بمظهر زبائنه الذي يجب أن يسير وفقاً للموضة العالمية.

لذا فإني أعتقد أنهم قد طردوه من الحزب بشكل عام تحت شعار: «تفاحة واحدة فاسدة يمكنها أن تفسد السلة بأكملها»[41].

وبهذه الكلمات طردوه من الحزب.

ولم يكن واعياً بأية إجراءات يتخذونها ضده. لقد كان على قناعة

(40) سلسلة من حملات القمع والاضطهاد السياسي في الاتحاد السوفييتي دبرها ونفذها جوزيف ستالين في 1936 - 1938 شملت عملية تطهير واسعة النطاق لمسؤولي الحزب الشيوعي والحكومة، وقمع الفلاحين، وقيادة الجيش الأحمر، واضطهاد الأشخاص غير المنتسبين، اتسمت بمراقبة بوليسية واسعة النطاق، وإطلاق تهمة «التخريب»، والاعتقالات والإعدامات.

(41) المثل في الأصل الروسي يذكر أن عشبة ضارة يمكنها أن تفسد الأرض أو المحصول لكني حاولت أن أقربها إلى أمثالنا العربية.

بأنه لم يخرق القواعد قط. كان يعمل بحماسة، ولم يكن ينخرط في أي شيء بشكل خاص، وقد تعجب من طردهم إياه من الحزب.

اضطرب جداً من الأمر.

فكّر في نفسه قائلاً: «كم من الأعوام قد تمالكت فيها نفسي وسيطرت على طبيعتي؟ كم من الأعوام لم أسمح فيها لنفسي أن أقوم بشيء؟ كنت أسلك طبقاً للقواعد، ولم أسمح لنفسي بأي إفراط، وفجأة يقولون لي: امض إلى حال سبيلك! بالنسبة للشرب: ما الخطأ في هذا الأمر؟».

لم يقل شيئاً للجنة التطهير، لكنه فكر في نفسه قائلاً: «آآه.. هكذا هو الأمر إذن!».

لذا فقد مضى إلى المنزل وشرب كثيراً حتى سكر، وضرب زوجته، وحطم نافذة مقر البوّاب واختفى ليومين.

أين كان يتسكع؟ لا أحد يعلم. لكنه وصل في حالة رثة ومن دون معطفه. قال للسكان الآخرين:

- إني غير حزين على أنهم طردوني من الحزب، بل على العكس، إني سعيد أني لن أتعرض ثانية لأية إجراءات تهذيبية غير ضرورية. كم من أعوام قد قضيتها وأنا أسيطر على نفسي، وقد أفسدت مزاجي بكل أنواع القيود الممكنة. هذا ممنوع، وهذا غير ممكن، وغير مسموح لي بضرب زوجتي، ولكن كل هذا قد انتهى الآن.. آمين! إن مهنتي تمكنني من العمل تحت حكم أي نظام، لذا فيمكنني الآن أن أبصق عليكم جميعاً.

تعجب السكان من كلامه، لكنه كان يظن أنه يقوم بالصواب. وسكر ثانيةً، وكسر نافذة البواب ثانية، تلك التي كانوا قد أصلحوها للتو.

وفي مقر التعاونية أزال من الحوائط كافة الشعارات والملصقات الصحية، بل وضرب رئيس التعاونية بملصق مكتوب عليه: «لا تشرب الخمر، ولا تدخن أيها القائد. امنح الشباب القدوة والمثل».

بشكل عام، ترك العنان لطبيعته تماماً في غضون ثلاثة أيام، حتى إن كل من في البيت تعجبوا مما يحدث.

وعرف فجأة بطريقة ما، أو أن أحدهم قد أخبره، أنه على الرغم من أنهم قد طردوه من الحزب فإنهم سيعيدونه ثانية!

من المستحيل تقريباً أن نصف ما حدث..

أفاق تماماً وأصلح من مظهره، وجمع السكان وقال لهم:

- أمور غريبة تحدث يا أصدقائي.. أتوسل إليكم انسوا ما شاهدتموه في تلك الأيام الماضية تماماً. يبدو أنهم قد أعادوني للحزب، يا للغرابة!

وهرع إلى المكان الذي لابد أن يذهب إليه وقال:

- لقد خدعتني. في البداية بهذه الطريقة، ثم بالعكس. الجميع يمكن أن يفقدوا صوابهم مثلما حدث معي. أنا لا أعرف ماذا فعلت تحديداً في تلك الأيام الماضية، وإن كان لديك تقريران أو ما شابه عني، فلست أنا المذنب بل الظروف.

فقالوا له:

- أيها الرفيق.. إنهم لم يردُّوك ثانية إلى الحزب، فلمَ أنت منزعج؟ لقد قال أحد الرفاق حقاً عنك: «يبدو أنه غير مذنب في شيء.. إنه يسكر قليلاً، لذا فلم يكن من الواجب طرده من الحزب»، ولكن الشك الآن قد تلاشى لدينا بشأن القرار الذي اتخذناه بعد اكتمال الصورة أمامنا.

فقال:

- لكني لم أكن أعرف.

فأجابوه:

- هـذا يعنـي أنـك لسـت بروليتاريـاً حقيقيـاً. شـخص غـيرك كان سـيظل يتـصرف بشـكل صائـب تحـت أي ظـرف مـن الظـروف، لكنـك أظهـرت وجهـك القـذر عـلى الفـور. الـوداع.

وهكذا لم يقبلوه بالحزب ثانية.

الآن يجلـس في غرفتـه هادئـاً دون أدنى حركـة. اعتقـدَ أنهـم سيسـتدعونه ثانيـة سريعـاً ويقولـون لـه: «لقـد علمنـا أنـك تعيـش وفقـاً للقواعـد، لـذا فقـد أعدنـاك إلى الحـزب».

لكنهم لم يستدعوه، فقد أدركوا كنهه تماماً.

هنـا يكمـن فشـل الإنسـان؛ في أنـه أثبـت نفسـه في كافـة المواقـف، وبالنسـبة لآخريـن قـد يمثـل هـذا تحديـداً النجـاح الحقيقـي، ولـو أن هـذا النجـاح تزايـد لكانـت هـذه الحادثـة قـد تكـررت مـع شـخص آخـر.

في أثنـاء هـذا حـدث أمـر يختلـف تمامـاً عـما حـدث مـع ذلـك المغفـل.. حـدث منـذ زمـن غـير بعيـد مـع أحـد الشـيوخ.

لم يطـرد أحـد الشـيخ أو يبعـده عـن أي مـكان.. بـل هـو الـذي كـدَّر الجميـع بسـلوكه وطردَهـم جميعـاً من الشـقة.

حدث هذا في العام الماضي!

قصص عن حوادث مؤسفة على نهر الفولجا[42]

كي نبدأ سوف نحكي لك عن واحدة من الحكايات الصغيرة المؤسفة المسلية.

هذه الحكاية المؤسفة تتلخص في أن مجموعة من المستجمّين قد أصابتهم صدمة أخلاقية نتيجة لسوء فهم قد حدث.

القصة حقيقية.. هذا ما حدث:

في الأعوام الأولى من الثورة، وعندما عاد الاستقرار، وأصبحوا يقومون برحلات رائعة في نهر الفولجا على سطح المراكب البخارية ذات كبائن من الدرجة الأولى، تقدم وجبات ساخنة للركاب، ذهبت إحدى مجموعات المستجمين - وكنت أنا من بينهم - في رحلة استجمام على سطح نهر الفولجا.

نصحنا الجميع بأخذ جولة في نهر الفولجا. كان مكاناً رائعاً كي تستجم فيه، فمن حولك الطبيعة والشواطئ والمياه والطعام والكبائن.

وكانت بصحبتنا مجموعة من الموظفين الرسميين تريد

(42) أطول أنهار أوروبا وأغزرها. يقع في الجزء الغربي الأوروبي من روسيا. يعد ممراً مائياً مهماً للنقل البحري داخل روسيا. يصب النهر في بحر قزوين.

الاستجمام والراحة أيضاً من جلبة الثورة، إن جاز التعبير.

عثرنا على باخرة درجة أولى فاتنة باسم: «الرفيق بينكين».

وساورنا اهتمام شديد بشأن هذه الشخصية: مَن الرفيق بينكين؟ قالوا لنا: يبدو أنه أحد العاملين بالنقل النهري.

كان الأمر سيان لنا، وركبنا بالطبع هذه الباخرة التي تحمل اسم أحد الرفاق المجهولين بالنسبة لنا.

ووصلنا إلى سامارا[43].

هبطت مجموعتي من سطح الباخرة ومضت لتتجول قليلاً في المدينة، ثم سمعنا فجأة أصوات أبواق. قالوا لنا:

- جداول المواعيد الآن غير دقيقة. وربما تغادر الآن باخرتنا «بينكين».. فلنعد سريعاً إليها.

وهذا ما حدث، فبعد أن ألقينا نظرة سريعة على المدينة عدنا.

عندما اقتربنا من رصيف الميناء، لم نجد باخرتنا! لقد رحلت!

تعالى الصياح والبكاء.

واحد منا صرخ: «إن سروالي هناك وأوراقي في جيوبه». وصرخ آخرون: «ونحن قد تركنا أمتعتنا وأموالنا. ماذا سوف نفعل الآن؟ مصيبة!».

قلت لهم:

- دعونا نصعد على متن هذا المركب الآخر الموجود هنا على الرصيف، ونعود لنلتقي بمركبنا.

ونظرنا فإذا فعلاً مركبة بخارية في مياه الفولجا تحت اسم: «العاصفة الرعدية».

(43) سادس أكبر المدن الروسية وتقع في جنوب شرق الجزء الأوروبي من روسيا الاتحادية.

سألنا الحضور بأصوات بائسة: «لقد رحلت مركبتنا بينكين أيمكن أن نلحق بها؟».

فأجابنا الحاضرون:

- ولماذا تلحقون بها؟ ها هي «بينكين» لكنها الآن تُدعى «العاصفة الرعدية». كانت تُدعى في السابق: «بينكين»، لكنهم غيروا اسمها.

ابتهجنا جداً، وصعدنا على متن مركبتنا، ولم نهبط من فوق متنها طوال الطريق نحو ساراتوف[44] لشعورنا بالخوف.

في أثناء هذا سألنا القبطان عن سبب هذه الواقعة المسلية التي حدثت، وعن سبب هذه السرعة. فأجابنا القبطان:

- كما ترون، لقد أطلقوا هذا الاسم على المركب عن خطأ إلى حد ما. بينكين كان أحد العاملين فعلاً بالمواصلات النهرية، لكنه لم يكن يعمل بشكل لائق تماماً، بل إنه يخضع الآن للمحاكمة على تجاوزه للسلطات، وقد جاءتنا برقية بتغيير اسمه من المركبة. ولذلك أطلقنا عليها: «العاصفة الرعدية».

فقلنا له:

- آآه.. هذا هو الأمر إذن!

وأخذنا نضحك.

وصلنا ساراتوف، وخرجت المجموعة كلها لتلقي نظرة على المدينة.

ولم نبق في المدينة أيضاً لمدة طويلة. ذهبنا إلى أحد الأكشاك واشترينا بعض السجائر، وألقينا نظرة على بعض البنايات.

(44) تقع في القسم الجنوبي الشرقي لروسيا الاتحادية، وهي مركز ساراتوف أوبلاست وتبعد عن موسكو مسافة 858 كم. ونفس المسافة تقريباً عن مدينة فولجوجراد. وتمتد المدينة 34 كيلومتراً على ضفتي نهر الفولجا.

ثم عدنا، ومجدداً لم نجد مركبتنا «العاصفة الرعدية»، ووجدنا مركبة أخرى تقف بدلاً منها.

بالطبع لم يكن الخوف قوياً هذه المرة مثلما كان في سامارا. قلنا مازالت أمامنا فرصة. ربما بدلوا الاسم ثانية، ولكن رغم ذلك شعر بعض منا بخوف قوي.

اقتربنا وسألنا الواقفين:

- أين مركبة «العاصفة الرعدية»؟

فأجابونا:

- هذه هي «العاصفة الرعدية» والتي كانت تُدعى سابقاً «بينكين»، لكن بداية من هنا في ساراتوف تغير اسمها إلى «كورولينكو[45]».

فقلنا:

- ألا يأسفون على كل هذا الطلاء؟

فأجابونا:

- لا نعرف.. اسألوا الربان.

قال الربان:

- لابد أنها فترة تغيير الأسماء الكبرى! في البداية أعطونا اسم «بينكين» عن خطأ، أما فيما يتعلق بـ «العاصفة الرعدية» فلم يكن الاسم ذا دلالة كبيرة. لقد كانت تسمية تفتقد إلى المبادئ العليا. الاسم يعبر فقط عن ظاهرة طبيعية، لكنه لا يخاطب لا العقل ولا القلب. وقد تلقى القبطان توبيخاً عليه، لذا قمنا بتغييره.

(45) روائي وكاتب مقالات أوكراني (1921 - 1853) ومن أشهر رواياته: الموسيقي الأعمى.

حينها ابتهجنا فرحاً وقلنا:

- آآه.. هذا هو الأمر إذن.

وصعدنا على متن «كورولينكو» وأبحرنا مرة أخرى.

قال لنا الربان:

- عندما تهبطون في أستراخان[46] لا تقلقوا إن عدتم ووجدتم المركب باسم آخر.

فقلنا له:

- لا.. من غير المحتمل أن يحدث ذلك؛ إن كورولينكو أديب بارز.

ووصلنا بأمان إلى أستراخان، ومن هناك أكملنا سفرنا براً. ولم نعرف ما مصير المركبة.

ولكن يمكن التأكد تماماً أن الاسم لم يتغير ثانية، وبقي على حاله إلى أبد الآبدين. وما زاد على الأمر أن كورولينكو قد مات، بينما بينكين مازال حياً، وفي هذا يكمن سر الحكاية المؤسفة التي اقتضت تغيير اسمه من المركبة.

يبدو إذن أن جوهر الحكاية المؤسفة يكمن في أن يكون المرء على قيد الحياة. لا.. معذرة.. ربما لا تفهمون ما المؤسف في ذلك. من ناحية يبدو أننا أكثر نفعاً عندما نكون موتى، ومن ناحية أخرى يبدو أننا نستحق الشكر على هذا. إن الموت يشكل نجاحاً مشكوكاً فيه، وقد لا نكون في حاجة إليه، ولكن يبقى الأمر كذلك: إنه عندما تكون على قيد الحياة، فإنك بهذا المعنى تشكل أساساً لحكاية مؤسفة.

(46) إحدى مدن روسيا كان المغول قد أسسوها نقطة لجمع الضرائب من الروس.

لـذا، فالإنسـان سـيصاب بخيبـة الأمـل - إن جـاز التعبـير - مـن جميـع النواحـي.

وهـذا هـو السـبب الـذي جعلنـا نضـم هـذه الحكايـة التافهـة البسـيطة المذهلـة إلى حكاياتنـا المؤسـفة.

ورغـم ذلـك فمثـل هـذه الحكايـات المؤسـفة لا تحـدث فقـط عـلى ضفـاف الفولجـا، بـل أيضـاً في الحمَّامـات العامـة.

ونقـترح عليكـم أن تسـتمعوا إلى حكايـة مؤسـفة أخـرى منـا بخصـوص هـذا الشـأن.

مغامرة قرد

في إحدى مدن الجنوب كانت هناك حديقة حيوان. كانت حديقة صغيرة، تحتوي على نمر واحد، وتمساحين وثلاث أفاعٍ وزرافة ونعامة وقرد واحد، أو ببساطة «قِشة[47]»، وبالطبع بعض الطيور والأسماك والضفادع، وأنواع أخرى ليست ذات شأن من عالم الحيوانات.

في بداية الحرب عندما قذف الفاشيون هذه المدينة، سقطت إحدى قنابلهم في قلب حديقة الحيوان، وانفجرت بصوت يصم الآذان، وشعرت كافة الحيوانات بالخوف.

قُتِلت ثلاث أفاعٍ على الفور، وقد لا تبدو خسارة ضخمة، ولكن للأسف ماتت النعامة أيضاً.

أما بقية الحيوانات فلم تقض نحبها، وكما يقولون: «لم يصبها سوى الخوف».

أكثر مَنْ خافَ مِنْ بين الحيوانات كان القرد، فقد تحطم القفص الذي يحويه. سقط القفص من مكانه بالأعلى، وتحطم جداره الجانبي، وخرج قردنا مباشرة إلى أحد طرق الحديقة. خرج إلى الطريق لكنه لم يتمكن من التواري عن أعين الناس الذين

(47) القِشة هو نوع من أنواع القرود الصغيرة.

اعتادوا هذه التفجيرات الحربية. بل على العكس.. صعد فوراً على إحدى الأشجار، ومنها قفز على السياج. تخطى سياج الحديقة وخرج إلى الشارع، وأخذ يركض بصعوبة، كما لو أن خمسة كلاب متوحشة تطارده!

أخذ القرد يركض عبر المدينة بأكملها، وخرج إلى الطريق السريع، وأخذ يركض عبر الطريق مبتعداً عن المدينة. ولكن القرد ليس إنساناً! إنه لا يفهم شيئاً، ولا يفهم لماذا يتوجب عليه البقاء في هذه المدينة.

أخذ يركض ويركض حتى تعب، وشعر بالإنهاك التام. تسلق شجرة، وتناول ذبابة وكذلك دودتين حتى يسترد قوّته. نام على غصن الشجرة حيث كان يجلس. في هذا الوقت لاحت في الطريق سيارة عسكرية. شاهد السائق القرد على الشجرة. اقترب بهدوء منه، وألقى عليه معطفه ووضعه في سيارته. أخذ يفكر: «الأفضل أن أعطيه هدية لأحد المعارف بدلاً من أن يموت هنا من الجوع والبرد والحرمان». وتحرك ومعه القرد.

وصل إلى مدينة بوريسوف، ومضى إلى أعماله، وترك القرد في عربته وقال له: «انتظرني هنا أيها القرد الصغير. سوف أعود حالاً». لكن القرد الصغير لم ينتظره. تسلل من السيارة من النافذة المكسورة، وأخذ يتسكع في الشارع.

وأخذ هذا العزيز الغالي يتبختر في الشوارع مختالاً ويتنزه هازاً ذيله. تعجبت الجموع بالطبع، وأرادت الإمساك به. ولكن الإمساك به لم يكن سهلاً. كان القرد مليئاً بالحيوية، سريعاً، يركض بسرعة شديدة على أياديه الأربع، وهكذا لم يستطيعوا الإمساك به، بل أنهكوه فقط بالجري بلا هدف.

شعر القرد بالتعب.. لقد أُنهِك تماماً، وبالطبع أراد أن يأكل.

وأين يمكنه أن يأكل في المدينة؟ ما من شيء يمكن تناوله في الشوارع. ولا يمكنه أن يعرج على أحد المطاعم بذيله هذا، ولا يستطيع أن يعرج حتى على إحدى التعاونيات. ليس بحوزته مال، وما من خصومات الآن على الطعام. ليس لديه بطاقة غذائية.. إنه كابوس حقاً!

على أية حال عرج القرد على إحدى التعاونيات، وشعر بأنه قد يجد شيئاً ما هناك. وكانوا يوزعون الخضراوات هناك على الجموع: الجزر واللفت والخيار. دخل القرد المتجر، وشاهد طابوراً طويلاً. لا.. لن يقف في هذا الطابور الطويل، ولن يتدافع معهم حتى يصل إلى مراده. قفز القرد فوراً فوق رؤوس الواقفين صوب البائعة، ووصل إلى نافذة البيع. ولم يسأل عن سعر كيلو من الجزر، بل خطف ببساطة حزمة من الجزر، وكما يقولون هكذا كان الأمر! وركض خارجاً من المتجر راضياً بغنيمته. ولكن القرد لا يفهم شيئاً، ولا يفهم لماذا يجب عليه أن يظل دون طعام.

تعالى الضجيج واللغط والانزعاج بالطبع في المتجر. صرخ الحاضرون. أوشكت البائعة التي كانت تزن اللفت على فقدان الوعي تقريباً من فرط المفاجأة، وبالفعل ستشعر بالخوف، إذا ظهر أمامك فجأة بدلاً من المشتري هذا الكائن الأزغب ذو الذيل. وبالطبع لن يدفع لك المال. ركض الحاضرون خلف القرد في الشارع، واندفع القرد وهو يمضغ الجزر، وهو لا يفهم شيئاً. وركض بعض الصبية أمام الجميع، ومن خلفهم البالغون، ثم رجل الشرطة وهو ينفخ في صفارته.

وفجأ ظهر كلب من مكان ما، وأخذ يركض هو الآخر خلف قردنا الصغير. ولم يكتف الكلب بالعواء والنباح، بل أراد أن يقبض على القرد ويمزقه إرباً.

أما قردنا الصغير فقد أسرع في ركضه.. أخذ يركض وفكر في نفسه قائلا: «آآه.. لم يكن يجدر بي أن أترك حديقة الحيوانات. كنت أنعم بالهدوء داخل القفص. سوف أعود إلى حديقة الحيوانات في أقرب فرصة ممكنة».

وأخذ يركض ويركض، لكن الكلب لم يتخلف عن ركضه وقد أراد أن يُمسك به.

ثم قفز قردنا الصغير من فوق أحد الأسيجة، وعندما قفز الكلب كي يمسك بالقرد من قدمه، ضرب القرد الكلب بالجزر على أنفه بكل ما لديه من قوة. وكانت ضربة موجعة.. حتى إن الكلب تلوى من الألم ومضى عائداً إلى بيته بأنف مكسور. لابد أنه قال في نفسه: «لا أيها المواطنون.. من الأفضل أن أعود إلى منزلي وأنام في هدوء بدلاً من محاولة اصطياد هذا القرد وتحمل هذه المعاناة».

خلاصة القول: ابتعد الكلب، وقفز قردنا إلى فناء ما.

وكان في الفناء في ذلك الوقت صبي مراهق يُدعى أليوشا بوبوف، كان مشغولاً بقطع بعض الحطب.

وبينما هو منهمك في عمله رأى القرد. أحبه جداً.. كان يحلم طوال حياته بأن يقتني قرداً كهذا، وفجأة يجده أمامه.

خلع أليوشا سترته وألقاها على القرد الذي تكوم في إحدى زوايا السلم.

أخذه الصبي معه إلى منزله. أطعمه، وسقاه الشاي، وكان القرد راضياً، ولكن ليس تماماً. السبب في ذلك أن جدة أليوشا لم تحبه

فور أن شاهدته، وكانت تصرخ فيه، بل وأرادت أن تضربه بأحد القدور. السبب في هذا أنه بينما كانا يشربان الشاي ووضعت الجدة بقية من قطعة حلوى في الطبق، خطف القرد قطعة الحلوى هذه والتهمها على الفور.

لكنه قرد وليس إنساناً، ولو كان إنساناً لكان قد فعل ذلك في غفلة من الجدة، لكنه فعل ذلك أمام ناظريها، وبالطبع بكت الجدة من تلك الفعلة.

قالت الجدة:

- من غير اللائق أن يحيا هذا القرد ذو الذيل في شقتنا. سوف يخيفني بهيئته غير الإنسانية هذه. سوف يقفز عليَّ في الظلام، وسوف يأكل الحلوى التي لديَّ. لا.. إني أرفض أن أحيا مع قرد في مكان واحد من ناحية المبدأ. على واحد منا أن يحيا داخل حديقة الحيوان. هل يجب عليَّ أن أكون أنا؟ لا.. من الأفضل أن يحيا هو هناك، وأنا سوف أحيا في شقتي.

أجاب أليوشا جدته:

- لا يا جدتي.. لن يتوجب عليكِ أن تعيشي في حديقة الحيوانات. أضمن لكِ أن القرد لن يأكل ثانية شيئاً من طعامك، وسوف أربيه كإنسان. سوف أعلمه أن يأكل بالملعقة، وأن يشرب الشاي من الكوب. أما بالنسبة للقفز فلا يمكنني أن أمنعه عن أن يتسلق صوب المصباح المعلق في السقف. وبالطبع يمكنه حينها أن يقفز فوق رأسك، ولكن يجب عليكِ ألا تشعري بالخوف إن حدث ذلك. والسبب أنه قرد بريء تعود على القفز في أفريقيا.

في اليوم التالي ذهب أليوشا إلى مدرسته، وطلب من جدته أن تعتني بالقرد، ولكن الجدة لم تعتن به. قالت في نفسها: «هذا ما

ينقصني أن أعتني بهذا الوحش!». وبينما هي تفكر هكذا غفت قليلاً على مقعدها.

حينها قفز قردنا الصغير عبر النافذة إلى الشارع، ومضى في الاتجاه الذي تغطيه أشعة الشمس. ولا يعلم أحد ما إن كان القرد قد أراد أن يتمشى فحسب، أم أنه أراد أن يذهب للمتجر ثانية حتى يشتري شيئاً. ليس لقاء المال بالطبع، ولكن هكذا.

وكان في الشارع في ذلك الوقت أحد الشيوخ؛ إنه المُقْعَد جافريلتش. كان في طريقه إلى الحمَّام العام، ممسكاً في يديه سلة غير كبيرة يحمل في داخلها ثيابه الداخلية. رأى القرد، ولم يصدق في البداية ناظريه، فقد اعتقد أنه يتوهم رؤيته فقد أنهى للتو شرب كأس من الجعة.

نظر إلى القرد بدهشة، وكذلك نظر إليه القرد. ربما فكر في نفسه قائلاً: «من هذا الإنسان المهلهل الذي يحمل سلة في يده؟».

أخيراً فهم جافريلتش أن هذا قرد فعلاً، وأنه لا يتوهم رؤيته. وحينها فكر في نفسه قائلاً: «سوف أستولي عليه، وأحمله غداً إلى السوق، وهناك أبيعه بمئة روبل. وبهذه الكمية من المال يمكنني أن أشرب عشر كؤوس من الجعة». وبينما هو يفكر في هذا بدأ في محاولة اصطياد القرد وهو يناديه: «بس.. بس.. بس.. تعال هنا».

لا.. لقد كان يعلم أنه ليس قطة، لكنه لم يفهم بأي لغة عليه أن يتحدث معه. ولم يدرك بعد ذلك إلا أن القرد هو أرقى حيوانات مملكته. وحينها أخرج من جيبه قطعة سكر، ولوَّح بها للقرد قائلاً: «أيها القرد الجميل.. ألا تريد الاستمتاع بقطعة من السكر؟».

فأجابه: «أريد من فضلك». هذا لا يعني أنه قال ذلك فعلاً، وذلك لأنه لا يستطيع التحدث، لكنه ببساطة اقترب وخطف قطعة السكر وأخذ يأكلها.

أمسكه جافريلتش ووضعه داخل سلته. استمتع القرد داخل السلة بالراحة والدفء. ولم يحاول قردنا الصغير أن يقفز من السلة. ربما فكر في نفسه قائلاً: «سوف أترك هذا الرجل العجوز يحملني في طريقه داخل سلته. هذا أكثر إمتاعاً».

في البداية فكر جافريلتش أن يصطحبه معه إلى منزله، لكنه لم يشعر بعد ذلك أنه يود العودة إلى المنزل. ذهب إلى الحمَّام العام مصطحباً معه القرد. فكَّر في نفسه قائلاً: «من الأفضل أن أصطحبه معي إلى الحمَّام. سوف أغسله هناك. سيصبح نظيفاً ولطيفاً وسأربط عقدة حول عنقه، وسوف يعطونني سعراً أعلى في السوق من أجله».

وهكذا مضى إلى الحمَّام في صحبة القرد، وبدأ يغسله هناك.

كان الجو دافئاً للغاية داخل الحمَّام؛ بل حاراً في واقع الأمر، كما هو الحال في أفريقيا من حيث أتى القرد، لذا كان قردنا الصغير راضياً بهذا الجو، ولكن ليس تماماً، وذلك لأن جافريلتش غسله بالصابون، ودخل الصابون إلى فمه. بالطبع ليس للصابون مذاق جيد، لكنه ليس سيئاً إلى درجة أن يجعلك تصرخ وترفض الاستحمَّام. على أية حال حاول قردنا أن يبصقه من فمه، لكن الصابون دخل إلى عينه أيضاً، وحينها جن جنونه، فعض إصبع جافريلتش، وأفلت من يده، وهرب من الحمَّام مندفعاً كالمجنون.

اندفع القرد إلى تلك الغرفة حيث يخلع الزبائن ثيابهم، وهناك شعر الجميع بالخوف. لم يعرف أحد ما ذلك الشيء. لقد رأوا شيئاً

مـا مسـتديراً أبيـض، تغطيـه الرغـوة. في البدايـة ألقـى بنفسـه عـلى الأريكـة، ثـم عـلى الموقـد، ومـن هنـاك جلـس عـلى الصنـدوق، ثـم قفـز عـلى رأس أحدهـم، ثـم عـلى الموقـد ثانيـة.

أخـذ بعـض الزبائـن المتوتريـن يصرخـون ويهربـون مـن الحـمَّام، وكذلـك فعـل قردنـا. وهبـط درجـات السـلم. وبالأسـفل وجـد غرفـة الخزينـة وبهـا نافـذة. قفـز القـرد مـن النافـذة معتقـداً أنـه سـوف يهـدأ قليـلاً في الداخـل، وسـيهدأ هـذا الهـرج وذلـك المـرج. ولكـن داخـل الغرفـة كانـت تجلـس موظفـة الخزينـة البدينـة التـي اندهشـت وصرخـت، وخرجـت مـن الغرفـة وهـي تـصرخ:

- أيهـا الحـرس.. النجـدة.. يبـدو أن قنبلـة سـقطت داخـل غرفتـي. ائتـوني ببعـض الفاليريـان[48].

أمـا قردنـا فقـد شـعر بالضيـق مـن كل ذلـك الـصراخ، فقفـز مـن فـوق الخزينـة وخـرج إلى الشـارع.

وهكـذا أخـذ القـرد يركـض في الشـارع، وهـو مبلـل ومغطـى برغـوة الصابـون، وبـدأ النـاس يركضـون خلفـه مجـدداً. الصبيـة في مقدمـة الجميـع، ثـم البالغـون مـن خلفهـم، ضابـط الشرطـة مـن ورائهـم، ومـن خلفـه شـيخنا العجـوز جافريلتـش وقـد ارتـدى ثيابـه عـلى عجـل حامـلاً حـذاءه في يـده.

ومثلـما حـدث بالأمـس ظهـر كلـب فجـأة مـن مـكان مـا.. إنـه نفـس الكلـب الـذي طـارده بالأمـس.

وبعـد أن رأى القـردُ الكلـبَ فكَّـر في نفسـه قائـلاً: «حسـناً أيهـا المواطنـون.. لقـد انتهـى أمـري».

(48) عقار مهدئ.

ولكن الكلب لم يطارده تلك المرة، بل أخذ ينظر إلى القرد الراكض شاعراً بألم شديد في أنفه، ولم يركض، بل أشاح بوجهه بعيداً. لابد أنه فكر في نفسه قائلاً: «الركض وراء القرد لن يجعلكم تجدون أنوفكم فيما بعد». ولكن رغم أنه أشاح بوجهه بعيداً فإنه نبح بغضب، وكأنه يقول: «هيا.. اركضوا.. ولكن تذكروا أني هنا».

في أثناء هذا كان صبينا أليوشا بوبوف قد عاد من المدرسة ولم يجد قرده المحبب. حزن حزناً شديداً، بل وانسابت الدموع من عينيه. وفكر في نفسه قائلاً إنه لن يرى قرده اللطيف الجميل ثانية.

ومن فرط الحزن والكآبة خرج إلى الشارع، وأخذ يسير مستغرقاً في التفكير تماماً، وفجأة رأى بعض الناس تركض. لا.. إنه لم يعتقد في البداية أنهم يركضون خلف قرده، بل اعتقد أنهم يركضون بسبب هجوم جوي، ثم رأى قرده.. رآه مبللاً غارقاً في الصابون. اندفع صوبه وأمسك به وضمه إليه حتى لا يأخذه أحد منه.

حينها خرج شيخنا جافريلتش من قلب الجمع، وأشار أمام الجميع بإصبعه المجروح قائلاً:

- أيها المواطنون.. لا تتركوا ذلك الصبي يستولي على قردي الذي كنت أنوي بيعه في السوق غداً. إنه ملكي، وهو الذي عض إصبعي. انظروا جميعكم إلى إصبعي، وهذا دليل على أني أتكلم بالصدق.

فقال الصبي أليوشا بوبوف:

- لا.. إنه ليس قرده؛ بل إنه قردي. انظروا كيف جاء طواعية إلى يدي، وهذا أيضاً دليل على أني أتحدث بالصدق.

وحينها خرج شخص آخر من قلب الجمع؛ إنه السائق الذي أخذ القرد معه في سيارته وقال:

- لا.. هذا القرد ليس لكما. إنه قردي أنا، فأنا الذي أخذته معي في عربتي، لكني الآن عائد صوب وحدتي العسكرية، لذا فسأمنحه لذلك الصبي الذي يمسكه بحنان بين يديه. لا لذلك القاسي الذي يود بيعه في السوق من أجل بعض الكسب. إن القرد ينتمي للصبي.

حينها انخرط الجمع في التصفيق، وأخذ أليوشا بوبوف الذي غمرته الفرحة يضم القرد إليه أكثر. وأخذه معه بسعادة إلى منزله، وعاد جافريلتش بإصبعه المصاب إلى الحمَّام ليكمل اغتساله. ومنذ تلك اللحظة عاد القرد ليعيش في منزل أليوشا بوبوف، ومازال يعيش معه حتى الآن. من فترة غير طويلة ذهبت إلى مدينة بوريسوف، ومررت عمداً على أليوشا وشاهدت كيف يعيش القرد عنده الآن.. إنه يعيش حياة كريمة. لم يعد يهرب، وأصبح مطيعاً. يتمخط في المنديل، ولا يخطف الحلوى، وهكذا فالجدة أيضاً راضية ولا تغضب عليه، ولم تعد تريد أيضاً أن تنتقل إلى حديقة الحيوانات.

عندما دخلت غرفة أليوشا وجدت القرد يجلس على المقعد، كان يبدو مهمّاً وهو يجلس كموظفة الخزينة في إحدى دور السينما. كان يأكل العصيدة بملعقة الشاي، وقال أليوشا لي:

- لقد ربيته كإنسان، ومن الممكن الآن لكافة الأطفال، بل والبالغين أن يتخذوا منه مثالاً وقدوة.

الليلك يتورد

والآن سوف يلومون المؤلف ثانية على هذا الإبداع الفني..

سيقولون ثانية إنها وشاية دميمة ضد إنسان، وانفصال عن العامة، وما إلى ذلك.. وسيقولون إن الأفكار التي يطرحها العمل ليست أفكاراً مهمة على الإطلاق.

كذلك أبطال العمل ليسوا ذوي أهمية كما يجب بالطبع أن يكونوا، بل إننا لا نكاد نلاحظ تقريباً أهميتهم الاجتماعية. وبشكل عام فإن تصرفاتهم لا تثير أية عاطفة مشبوبة من جانب الطبقة العاملة، والتي لن تتمكن من اتباع هذه الشخصيات ببساطة.

بالطبع سوف يقولون إن الشخصيات ليست ذات مكانة رفيعة، والأمر بسيط.. نعم إنهم مواطنون عاديون يتصرفون تصرفات عادية، ولهم مخاوفهم العادية أيضاً. أما فيما يتعلق بالوشاية ضد الإنسانية، فهذا الأمر تحديد ليس وارداً.

كان من الممكن سابقاً توجيه اللوم للمؤلف، ليس على الوشاية؛ بل على الجنون المفرط، والغرابة في رؤية جوانب مختلفة مظلمة وغبية في طبيعة البشر. لقد ضل المؤلف طريقه حقاً وانخرط في طرح عدة أسئلة أساسية وصلت إلى حد الاقتراب من الرجعية.

منذ عامين مضيا لم يكن المؤلف يكنّ إعجاباً لهذا أو ذاك، بل إنه وجَّه أكثر انتقاداته قسوة وانخرط في الفانتازيا[49] المدمرة. أما الآن فإنه بالطبع يعترف بذلك أمام القارئ، لكنه وصل في اعترافه هذا إلى الحد الذي بدأ فيه بالاستياء من ضعف ووهن الجسد الإنساني، فعلى سبيل المثال يتألف الإنسان في الأساس من الماء والسوائل.

«معذرة.. أهذا فطر عيش غراب أم توت؟» يتساءل المؤلف «ولكن ما الحاجة إلى كل هذا الماء؟ إنه أمر مسيء حقاً أن نعرف مما يتألف الإنسان في الأساس». ماء وطين وعفن، حتى في أفضل أحواله، ويبدو أن الفحم أيضاً من ضمن مكوناته، وبالإضافة إلى هذا الرماد فالميكروبات أيضاً تستعد لأداء عملها، ولكن ما كل ذلك؟ كان الكاتب يتساءل طيلة تلك الأعوام بحزن شديد.

حتى فيما يخص مسألة مقدسة، كهيئة الإنسان الخارجية مثلاً، لم يعد المؤلف يرى سوى كل ما هو أحمق وسيئ.

«الأمر فقط أننا تعودنا على الإنسان» يبدو أن المؤلف قد قال ذلك لأقربائه المقربين، ولكن إن ابتعدنا قليلاً.. على سبيل المثال.. إن امتنعنا عن رؤية الإنسان لخمسة أو لستة أعوام، فمن الممكن أن نتعجب حقاً من حجم التشوه الذي سنلاحظه في هيئتنا. الفم مثلاً.. سيبدو مجرد فتحة مهملة في الوجه، تبرز منها الأسنان كالمروحة، أما الآذان فهي معلقة من الجانب، ويبدو الأنف معقوفاً بطول الوجه وقد وُضِع لهدف معين، لكنه قبيح! ولا يبعث النظر إليه السرور في قلب المرء.

(49) يجب بالطبع ألا يخفى على القارئ الانتقادات الحادة التي يوجهها زوشينكو للنقد الأدبي الذي يسلك حسب أوامر السلطات السوفييتية باتباع مدرسة الواقعية الاشتراكية فقط في الكتابة الأدبية، ورفض أية موضوعات أخرى واتهامها بالرجعية وبالرأسمالية وما إلى ذلك من التهم، حتى وإن حوت فقط بعض الخيال.

هـذه أمثلـة عـلى بعـض الأفـكار الضـارة والغبيـة التـي وصـل إليها المؤلـف في تلـك الأعـوام السـوداء الجنونيـة، حتـى إنـه قـد وجَّـه أكـثر الانتقـادات حـدة لذلـك العضـو الأسـاسي الـذي لا تسـاور أحـداً الشـكوك بشـأنه وهـو «العقـل».

قـال: العقـل.. حسـناً.. فلنفـترض وجـوده. لا شـك أن البـشر قـد اكتشـفوا كثـيراً مـن الأمـور المثـيرة للفضـول والعظيمـة بالعقـل: الميكروسـكوب - وأمـواس حلاقـة «جيليـت» - التصويـر ومـا إلى ذلـك.. ولكـن إلى أيـن أوصلنـا ذلـك؟

كانت هذه الأفكار المعيبة تساور المؤلف في بعض الأحيان.

ولا شـك أن السـبب في مـراودة تلـك الأفـكار لعقلـه هـو المـرض الـذي أصابـه.

حالـة الجنـون الحـادة وغضبـه الشـديد مـن النـاس هـما مـا وصـلا بـه إلى كتابـة مثـل هـذه الأفـكار، وخسـفت بأفقـه الفكـري وأشـاحت البـصر عـن عينـه كي لا ينظـر أشـياء رائعـة كثـيرة تحـدث مـن حولنـا الآن.

والآن يشـعر المؤلـف بفرحـة ورضـا ليـس لهـما حـدود، حتـى إنـه لم يتمكـن مـن كتابـة القصـص في العامـين أو الثلاثـة السـابقين. ولـو لم يكـن الأمـر كذلـك لشـعر بخـزي شـديد. كان لذلـك أن يبـدو افـتراءً خبيثـاً فعـلاً.. وشـاية غبيـة خسيسـة ضـد النظـام العالمـي، والنظـام الإنسـاني بأكملـه.

ولكـن كل هـذا الجنـون قـد رحـل إلى حـال سـبيله الآن، وعـاد المؤلـف يـرى بعينيـه الأشـياء كـما هـي.

الأكـثر مـن ذلـك أن المؤلـف لم يفصـل نفسـه تمامـاً عـن النـاس حتـى أثنـاء مرضـه. بـل عـلى النقيـض مـن ذلـك، عـاش ومـرض -

إن جاز التعبير - في قلب الإنسانية الدفين. وهو لا يصف لنا أحداثاً من كوكب المريخ، بل من أرضنا المبجلة.. من النصف الشرقي لكرتنا الأرضية، أحداث جرت في أحد المنازل المشتركة حيث يعيش المؤلف والتي يرى فيها الناس بأم عينيه دون أية أقنعة أو زينة.

وفي مثل هذا النمط من الحياة يلاحظ المؤلف طبيعة الأمور وعلتها. لكنهم يلومون المؤلف الآن على الوشاية والإساءة للناس بكلمات، ببساطة لم يتفوه بها.

وإن سألوا المؤلف قائلين:

- ماذا تريد؟ ماذا أردت أن تغير في طبيعة من حولك من المقربين؟

فسيكون من الصعب أن يجد المؤلف إجابة على الفور.

لا.. إنه لا يريد تغيير شيء.. مجرد أمور بسيطة جداً. ربما بعض الأمور التي ستحقق له مكسباً.. إنها أمور غبية يومية تنتج عن الحسابات المادية.

من الخيال أن يتبادل الناس الزيارات من أجل التمتع بالتواصل الاجتماعي السعيد دون أن يضعوا في أذهانهم أية حسابات مادية. إن ذلك محض فانتازيا، وربما أصبح المؤلف غاضباً جداً بسبب ذلك، ولكن تلك الرومانسية الكامنة في طبيعته تجعله يرغب أن ينمو البنفسج على الأرصفة!

قطعاً كل ما قيل قد لا يكون له علاقة وثيقة بموضوع إبداعنا الفني، لكنها أسئلة مهمة مؤسفة. ولدى المؤلف تلك الطبيعة الصعبة، فطالما لم يقل ما يريده مباشرة للقارئ فلا يشعر أنه جاهز بعد لكتابة القصة.

على الرغم من ذلك ففي حالتنا هذه، تلك الكلمات لها علاقة بقصتنا. الأكثر من ذلك أننا تحدثنا هنا عن حسابات مادية جشعة، وفي قصتنا سنجد أن البطل قد تصادف أن تصادم مع مثل هذه الأمور، وفغر فمه من فرط التعب الذي شعر به من دوامة الأحداث التي أثارتها مثل هذه الحسابات.

في أعوام الشباب الرائعة، حين كانت الحياة تبدو كنزهة صباحية، كما لو أن الإنسان يسير في طريق مشجر، لم ير الكاتب مثل هذه الجوانب المظلمة. ببساطة لم يلحظها. لم تقع عيناه على مثل هذه الأمور، بل كانت عيناه تتعلق بأمور صغيرة مختلفة تبعث السرور في قلب المرء. كانت عيناه ترى تجارب وأموراً مختلفة جميلة. كانت تشغله أمور من قبيل: كيف تنمو الزهور، وكيف تُزهر، وكيف تغطي سحابة السماء، وكيف يحب الناس بعضهم البعض بحرارة؟

ولكن كيف يحدث كل هذا، وما الذي يدفعه أو يحركه.. كل هذا لم يكن المؤلف يدركه في أعوام الشباب، بسبب غباء شخصيته وضعف بصره.

ولكن بعد ذلك بدأ المؤلف يختبر مثل هذه الأمور، وبدأ فجأة في إدراك الكثير من الأمور.

لنقل مثلاً إنه يرى إنساناً عجوزاً يضغط على يد إنسان آخر، وينظر نحوه ويقول شيئاً ما. لو نظر ذلك قبلاً لكان سيبتهج من صميم قلبه وسيقول في نفسه: «انظر.. كم يتمتعان باللطف والرقة ويحبان بعضهما! كم تتطور الحياة بشكل رائع!».

لكنه الآن لن يثق في مثل هذه الأوهام البصرية. ستساوره الشكوك، وسيشعر بالاضطراب وسيقول في نفسه: «ربما هذا الإنسان

العجوز ذو اللحية ينظر إليه ويشد على يده كي يصلح من موقفه الوظيفي المأزوم، أو كي يتم استدعاؤه إلى أحد مقاعد التدريس بالجامعة كي يُلقي المحاضرات عن الجمال والفن».

ولكن ماذا عن ذلك؟ أيمكن أن يكون ذلك نوعاً من الوشاية؟ أيكون كل ذلك محض افتراء شرير؟ لا.. إنه جزء طبيعي من حياتنا، وحان الوقت لنتحدث عنه صراحة. فكما تعرفون كلمة: «الجمال» ذات طابع يشي بالفخر[50]، ولكن عندما يتطرق الأمر لأمور أساسية فببساطة لا تحصل سوى على ترهات.

ولكن المؤلف لا ينوي الاستسلام للكآبة، وبخاصة أنه في بعض الأحيان - ولنقل مرة كل خمسة أعوام - يلتقي بأشخاص غريبي الأطوار يختلفون تماماً عن أقرانهم من المواطنين.

ولكن يظل كل ما سبق مجرد أفكار نظرية، أما ما يريد الكاتب أن يرويه فهي قصة حقيقية قد استمدها من الحياة.

ولكن قبل أن يبدأ في وصف أحداث القصة، يرغب المؤلف في أن يعرب عن بعض شكوكه الأخرى.

ستضم أحداث القصة شخصيتين أو ثلاثاً من النساء لا يمكن أن نصفهن باللطف.

لم يبذل المؤلف أي مجهود في أن يصبغ شخصياتهن بلون معين، بل سعى لأن يعرضهن في صورة حقيقية غير مصطنعة، لكنه لم يستطع أن يقوم بذلك كاملاً كما أراد، لذا فقد بدت كل شخصية منهن أسوأ من الأخرى.

العديد من القراء - وبخاصة القارئات - قد يشعرون بالاستياء من هذه الأنماط النسائية، وسيدينون المؤلف الذي يتعامل مع

(50) تلميح لعبارة جوركي الشهيرة في مسرحيته «الحضيض»: كلمة «إنسان» ذات طابع يشي بالفخر.

شخصياته النسائية بنفور شديد، غير راغب في أن تحصل النساء على حقوق متساوية مع الرجال. الأكثر من ذلك أن بعض معارفه من النساء قد شعرن بالاستياء الشديد من ذلك، وقلن له: «شخصياتك النسائية دوماً تفتقر إلى اللطف».

ولكن المؤلف يطلب بحرارة ألا يدينه أحد على ذلك، فهو نفسه يشعر بالدهشة الشديدة من أن قلمه قد صوَّر مثل هذه النماذج النسائية غير المثيرة للاهتمام على الإطلاق.

ولكن الأكثر غرابة أن المؤلف لم يلتق طيلة حياته بشخصيات نسائية سوى تلك اللطيفة طيبة القلب، ولم يلتق أبداً بشخصيات شريرة.

بخصوص هذا الأمر يعتقد المؤلف أن النساء ربما يكنّ أفضل من الرجال فهن أكثر رقة ولطفاً وحساسية وعذوبة.

لهذه الأسباب لن يسمح المؤلف لنفسه أبداً بأن يسيء إلى امرأة. وإن حدث أثناء القصة أن بدا أمر غير واضح بخصوص تلك القضية، فلابد أن يكون مجرد سوء تفاهم، ويرجو المؤلف القارئ ألا يلتفت لهذا وألا يزعج نفسه بأية ترهات.

فالكاتب قطعاً يرى أن كل البشر متساوون.

يختلف الأمر تماماً إن تحدثنا عن مملكة الحيوان بدافع من الرغبة في الضحك لا أكثر.

وقتها سيظهر الفارق، فحتى في الطيور سنجد فارقاً، فالذكر دائماً يكون أغلى من الأنثى.

على سبيل المثال: عصفور ذكر يقدر ثمنه بروبلين طبقاً لأسعار اليوم، أما العصفورة فثمنها في المتجر لا يتجاوز خمسين كوبيكاً أو أربعين أو حتى عشرين. ولكن إن نظرت إليهما فالطائران

لا يختلفان عن بعضهما. إنهما يشبهان قطرتي مياه، فلا يمكنك حرفياً أن تميز بينهما: أيهما يساوي كذا، وأيهما يساوي كذا.

فلنفترض أن الطائرين في القفص، يتناولان الحبوب، ويشربان المياه، يقفزان فوق أحد القضبان، وفجأة يتوقف العصفور عن الشرب، ويُعدل من وضعه وينظر إلى السماء ويبدأ في الغناء.

لهذا يبدو سعره مرتفعاً.. لهذا يكلفك مالاً.. من أجل غنائه، ومن أجل أدائه الفني الراقي.

ولكن ما يناسب عالم الطيور تماماً، لا يناسب البشر. فالنساء لهن نفس السعر الذي للرجال. الأكثر من ذلك أن النساء تغني مثلما يفعل الرجال، وهكذا تتساقط كل الشكوك والشبهات حول ذلك الأمر.

بالإضافة إلى ذلك، فإن كل الهجوم القاسي الفج على النساء في قصتنا، وكذلك الشبهات حولهن تُثار من وجهة نظر بطلنا الأساسي، وهو إنسان مريض بلا شك. كان حامل راية سابقاً في الجيش القيصري، وتلقى ضربة خفيفة على رأسه، وساءت حاله تماماً بسبب الثورة. في عام 1919 قضى عدة ليالٍ في حقول القصب، وخاف أن يقبضوا عليه ويمسكوا به ويستخدمونه كرهينة.

ولا شك أن كل مشاعر الخوف الحزينة هذه قد انعكست على شخصيته .

في عقد العشرينيات من عمره كانت شخصيته متوترة حادة الطباع. كانت يداه ترتعشان. لم يكن يستطيع حتى أن يضع كأساً على المنضدة دون أن يكسره من فرط ارتعاش يده.

ورغم ذلك ففي معركة الحياة لم تكن يداه ترتعشان.

لهذا السبب لم يمت، بل عاش بفخر.

بالتأكيد ليس من السهل أن يموت إنسان. يعتقد المؤلف أنه لا يمكن ببساطة أن يموت إنسان جوعاً، حتى وإن كان يتعرض لأصعب الظروف الممكنة. إن كان لديه قليل من الوعي.. إن كانت لديه يدان وساقان، ورأس مستوية فوق كتفه، فقطعاً سيبذل بعض الجهد ويحصل على الغذاء، حتى وإن كان عليه أن يلجأ للإحسان.

لكن الأمر في حالتنا هذه لم يصل حد الإحسان، مع أن فولودين يعيش في ظروف صعبة منذ أعوام الثورة الأولى.

الأكثر من ذلك أنه قضى أعواماً طويلة على الجبهة، وكما يقولون انقطع عن الحياة تماماً، ولم يستطع أن يقوم بأي عمل مفيد سوى إطلاق النار على الأهداف والبشر، لذا فهو لم يدرك ماذا يمكن أن يفعل تحديداً.

وبالطبع ليس لديه أقارب، ولا حتى شقة.. ليس لديه شيء على الإطلاق.

كانت لديه فقط أم، لكنها قضت نحبها وهو على الجبهة. وانتقلت الشقة التي كانت تقطنها إلى أيد أخرى سريعاً، وعندما عاد مواطننا وجندينا السابق من الجبهة لم يجد شيئاً، وكما يقولون لم تكن لديه محفظة. الأكثر من ذلك أن الثورة قد أنزلته من فوق جواده، وبقي متوارياً عن الأنظار إن جاز التعبير، وأصبح يمثل عنصراً فائضاً عن الحاجة، بل وضاراً.

لكنه لم يُصب بالهلع في تلك المرحلة الخطيرة من حياته. ألقى نظرة بعينيه الثاقبتين على مجرى الأمور من حوله. ورأى الوطن يمتد أمامه. ألقى نظرة على الوطن بعينيه الثاقبتين كالنسر، ورأى دورة الحياة تستمر إلى الأبد كما هي. الناس يسيرون في الشوارع، ويهرع المواطنون هنا وهناك، والفتيات يمضين حاملات مظلاتهن.

فكر في نفسه قائلاً: «حسناً.. ما العمل؟ لا يمكنني أن ألقي بنفسي في البحيرة، لكن لابد بلا شك من التفكير في حل يخرجني من هذه الورطة. قد يكون الحل الأخير أن أحمل الخشب أو أنقل الأثاث.. عليَّ أن أمارس نوعاً بسيطاً من التجارة، أو قد يكون حلاً لا يخلو من الفائدة أن أتزوج في نهاية الأمر».

وشعر بالبهجة من التفكير في هذا..

»هناك فائدة واضحة من الزواج إن لزم الأمر، فعلى الأقل ستجد مسكناً وتنعم بالدفء والطعام.. ممكن فعلاً».

وبالطبع فإنه ليس من تلك النوعية التي تترك امرأة تتحمل عبأه، لكنه في حاجة إلى أن تقدم له يد العون الأولى في تلك اللحظة الصعبة من حياته، وهو أمر غير مشين.

الأهم من ذلك أنه كان شاباً، ولم يهرم بعد.. لم يتجاوز الثلاثين من عمره سوى بأعوام بسيطة.

ومع أن جهازه العصبي كان في حالة بالية إلى حد ما من عواصف واضطرابات الحياة، لكنه لا يزال رجلاً حقيقياً. ولهذا كان لا يزال يتمتع بهيئة جميلة لطيفة. ومع أنه أشقر، لكن شقرته تحافظ على مظهره الرجولي. لديه على وجهه تلك السوالف الإيطالية الصغيرة تمتد على وجنتيه، ولذلك اكتسب وجهه المظهر الشيطاني الشجاع، والذي كان يجعل النساء يرتجفن كاملاً، وينظرن إليه ويجذبن تنوراتهن على ركبهن.

كانت هذه هي نقاط القوة والمميزات التي لديه عندما بدأ في مواجهة مصيره.

بعد أداء خدمته العسكرية وصل إلى المدينة، وسرعان ما استقر به الأمر للسكن مؤقتاً في حجرة الاستقبال عند أحد معارفه من

المصورين، ويُدعى باتريكييف، وقد سمح الأخير له بالإقامة، راغباً في كسب بعض النقود من خلف هذه الصفقة رغم طيبة قلبه. لقد سجله كساكن بأحد أجزاء الغرفة، وبالإضافة إلى ذلك كان ينتظر من فولودين أن يستقبل زواره بدافع من شعوره بالعرفان له، لكن فولودين لم يحقق آمال صاحبه، فقد كان يتسكع طوال اليوم هنا وهناك، بل ورن جرس الشقة عدة مرات في وقت متأخر من الليل متسبباً في قلق وإزعاج كبيرين بالمنزل.

حزن المصور باتريكييف للغاية من هذه الأفعال التي عكَّرت صفوه، بل إنه في مرة من المرات شاهده في الليل مرتدياً سرواله الداخلي في هيئة مريعة، فأصبح يسبه كثيراً ويدعوه الضابط القيصري السابق والإنسان البائس.

ولكن على أية حال استغرق الأمر ما لا يقل عن ستة أشهر حتى بدأ فولودين أخيراً في أن يجلب بعض المنفعة للرجل الذي تكفله. إلا أن هذا لم يحدث إلا في النهاية حينما غادر الشقة أخيراً وتزوج في سلام.

الأمر أنه في هذه السن الصغيرة كان لا يزال لديه ميل وحب للتصوير الفني، وعندما كان صغيراً كان مولعاً بأن يرسم بريشته وبالألوان مختلف أنواع اللوحات والرسومات.

والآن ظهرت على نحو مفاجئ فائدة لموهبته الفنية هذه.

في البداية كان الأمر مزاحاً، ثم أصبح بعد ذلك أكثر جدية، وبدأ يساعد المصور باتريكييف بتنقيح وتعديل بعض صوره وأطباقه.

لقد جعل أوجه مختلف أنواع الناس التي كانت تأتي لباتريكييف من أجل التصوير، سليمة دون أية غضون أو تجعدات أو بثور أو أية مظاهر أخرى مزعجة، والتي كانت للأسف متوفرة في هيئة الإنسان الطبيعية.

مثل هذه البثور أخفاها فولودين بريشته، وقد طرح ظلاً بعناية وضوءاً على ملامح الوجه.

وفي وقت قصير حقق فولودين في هذا المجال نجاحاً كبيراً، بل وأصبح يحصل على بعض المال لقاء عمله، وابتهج قلبه فرحاً من تبدل الأحوال.

وبعد أن أتقن هذا الفن البارع، أدرك أنه جاء إلى الحياة في ظروف معينة، وكي يتخلص من أسر تلك الظروف فسيتكلف مشقة كبيرة، بل وقد يكون الأمر مستحيلاً. السبب في ذلك أنه كي يحقق ذلك، يتطلب الأمر منه تدمير كافة الصور، ومنع السكان بشكل حاسم من التقاط الصور، أو إخفاء أوراق التصوير تماماً من السوق.

ولكن للأسف تراجعت الظروف عن موقفها حياله، بعد أن اتخذ فولودين قراراً حاسماً؛ ألا وهو الزواج من إحدى المواطنات قبل أن يعلم أن فنه سوف يمنحه الفرصة كي ينهض على قدميه بنفسه دون مساعدة من أحد.

وفي أثناء معيشته مع المصور لم تكن لديه أية تطلعات حقيقية، فقد كان يلقي نظرات على الناس المحيطين به بطريقة عفوية، وبشكل خاص على النساء بالطبع، اللاتي من الممكن أن يمددنه بالعون والصداقة والمشاركة.

وقد ظهرت هذه المرأة استجابة لدعوات إنسان هالك..

لقد كانت السيدة التي تقطن بالمنزل المجاور: مارجريتا فاسيليفنا جوبكيس.

كانت تسكن في الشقة بأكملها بصحبة شقيقتها الصغرى ليليا التي كانت متزوجة من الأخ الرفيق طيب القلب: سيبينوف.

كانت الشقيقتان لا تزالان تنعمان بالشباب، وتعملان بحياكة

القمصان والسراويل، وبعض أغراض المواطنين الأخرى.

كانتا تمارسان هذه المهنة بدافع من الحاجة، ولم تكونا تسعيان خلف هذا المستقبل التافه، وقد أنهتا تعليمهما العالي قبل اندلاع الثورة في المدرسة الثانوية للإناث.

وبعد أن حصلتا على هذا التعليم الممتاز، حلمتا بالطبع أن تعيشا على نحو لائق، وتتزوجا من رجال بارزين أو من أساتذة جامعة يحيطونهما بالرفاهية والمغريات والعادات الجميلة.

ولكن في أثناء هذا كانت الحياة تمر. وقد جعلت سنوات الثورة المضطربة الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.

أما الشقيقة الصغرى ليليا، وبعد أن شعرت بالأسى على قدرها المعاكس تزوجت سريعاً من سيبينوف، وهو إنسان جاهل تماماً غير حليق، وكان هذا الرفيق طيب القلب يعمل ممرضاً في مستشفى المجانين.

أما الشقيقة الكبرى مارجريتوتشكا[51]، وقد تحسرت على سوء المصير، وبعد أن مضى بها الوقت واقتربت من سن الثلاثين، استجمعت شتات نفسها ومضت هنا وهناك، رغبة في أن تحصل على زوج، حتى وإن كان إنساناً من مستوى متواضع.

وهكذا وقع في حبال شراكها صاحبنا فولودين.

لقد كان يحلم لمدة طويلة بحياة أفضل، وبالراحة الأسرية وبغرفة حقيقية لا غرفة الانتظار، وسماور يتأجج بالمياه الساخنة، وكل تلك الأغراض البسيطة التي تزين الحياة بلا شك وتضفي عليها جمالاً وفتنة كتلك التي نجدها في الحياة البورجوازية قليلاً.

(51) صيغة التدليل والتحبب لمارجريتا، فقد كان شائعاً في روسيا أن يكون لكل شخص اسم تدليل أو تحبب.

وقد كانت كل تلك العوامل متوفرة، بالإضافة إلى استقرار الأوضاع والدخل المستقل الذي سيحصل عليه كمهر من العروس. كل ذلك قد جعلها صفقة رابحة بلا شك.

بالطبع أتى التعارف بعد ذلك، فطالما فولودين لديه ماله الخاص، لم يكن ليبادر باتخاذ تلك الخطوة الحاسمة. الأكثر من ذلك أنه لم يُكِنّ إعجاباً على الإطلاق بمارجريتا جوبكيس بوجهها المعتم النمطي.

كان فولودين يُكِنّ إعجاباً ويشعر بالميل لنوع مختلف تماماً من الفتيات.. أولئك الفتيات اللاتي لديهن بعض الشعيرات الصغيرة فوق شفاههن العليا؛ الفتيات المرحات المفعمات بالحيوية، اللاتي يتحركن بسرعة، ويستطعن الرقص والسباحة وينغمسن في كل أنواع الثرثرة وسفاسف الأمور. أما مارجريتوتشكا، فبسبب مهنتها كانت قليلة الحركة والفعل على حد السواء.

ولكن القدر كان قد وضع أوزاره وانطلق المؤشر دون توقف.

وبينما كان فولودين يمر بالقرب من منزل جارته كان يتوقف في كل مرة بالقرب من نافذتها، ويحادثها طويلاً، ويدور الحديث عن هذا وذاك من صغائر الأمور. وبينما يقف أمامها بجانب جسده، أو بثلاثة أرباع وجهه ويداعب سالفه، كان يُلمِّح كثيراً إلى الحياة الرائعة والمصير السعيد، وقد فهم من الحديث معها أن هناك غرفة بشقتها في خدمته، إن لم يتوقف الأمر بالطبع على مجرد التلميح.

وبعد أن أمعن التفكير ملياً ونظر بعناية إلى تلك السيدة اندفع إلى معركته بصياح النصر.

وهكذا تم هذا الزواج اللامع..

وانتقل فولودين إلى شقة جوبكيس، وقد جلب معه بالإضافة إلى الغلاية، وسادته الوحيدة المتواضعة وأمتعته الرطبة.

أما المصور باتريكييف فقد ودع صديقه وصافحه ناصحاً إياه بألا يهمل معارفه التي اكتسبها حديثاً في مهنته.

لوّحت مارجريتا جوبكيس بانزعاج قائلة إن فولودين غالباً لن يكون في حاجة إلى هذا العمل الذي يتطلب دقة متناهية.

وهكذا دخل فولودين إلى حياة جديدة، حاسباً أنه قد قام بصفقة رابحة قائمة على حسابات دقيقة.

فرك يديه بسعادة وترك نفسه ينزاح قليلاً إلى الخلف قائلاً:

- حسناً أيها الشقيق فولودين.. يبدو أن الحياة قد بدأت تبتسم لك أخيراً.

لكن تلك الابتسامة لم تكن مرحة..

ما من شك في أن حياة صديقنا فولودين قد تحسنت كثيراً، فبعد أن كان يقطن بغرفة انتظار لا تتمتع بأي من أسباب الراحة، انتقل إلى غرفة نوم بديعة تحوي مختلف أنواع الرفوف والوسائد والتماثيل.

بالإضافة إلى ذلك، بدلاً من التغذية السيئة وتناول كل أنواع البقايا والفضلات تغير الأمر تماماً. أصبح يتناول الآن أطباقاً متنوعة جميلة: حساء - لحم - كفتة - طماطم.. وما إلى ذلك. بالإضافة إلى أنه أصبح يشرب الكاكاو مرة في الأسبوع بصحبة أسرتها مسروراً ومندهشاً من هذا الشراب الرائع الذي نسي مذاقه في الأعوام الثمانية أو التسعة الأخيرة من حياته غير المريحة، ومع ذلك لم يترك فولودين زوجته تعوله.

لم يتوقف عن العمل في مجال التصوير، لذا فقد حقّق نجاحاً هائلاً، ولم يعد الأمر يقتصر على أنه يحصل على بعض

المال شكراً وعرفاناً، بل يمكن أن نقول إنه بدأ في الحصول على مال حقيقي.

وقد آتت التغذية الجيدة الطازجة مفعولها وجعلت فولودين ينكب على عمله بإلهام خاص. ولأنه لم يجد سعادته في علاقته مع قرينته الشابة فقد وجَّه كافة قواه صوب العمل. وقد قام بعمله بفنية عالية حتى إن كل الوجوه القبيحة التي صوروها انتهى بها الأمر لتصبح ملائكية بريئة، وشعر أصحابها بدهشة حقيقية من هذه المفاجأة السعيدة وأخذوا يطلبون مزيداً من الصور ولم يبخلوا بالمال، وأخذوا يرسلون مزيداً من العملاء الجدد أكثر فأكثر.

أما المصور باتريكييف فأصبح يُقدِّر الآن عمله جداً، ويمنحه علاوات في كل مرة عندما يشعر العملاء بالسرور من نتيجة العمل الفنية الاحترافية.

وهكذا شعر فولودين أخيراً أنه يقف على أرض ثابتة وأدرك أنه يبتعد تماماً الآن عن وضعه السابق.

وبدأ يزداد وزناً ويستدير جسده ويكتسب استقلالاً في طريقة تصرفه. لم يعد يتدبر أمره فحسب، بل أصبح جسده يمده بحكمة بقدر من الدهون والفيتامين تحسباً لأية أزمة متوقعة.

لكن فولودين بالطبع لم ينعم بالهدوء والرضى..

بعد أن ملأ جسده بالطعام حد التخمة وتجادل مع زوجته حول أمور منزلية وطلب منها وجبة غداء معينة من أجل الغد شعر بوحدة كئيبة، وحزن من قلبه بسبب أنه لا يُكِن عاطفة خاصة حقيقية لقرينته الشابة.. هذه العاطفة التي تمنح الحياة بلا شك مذاقاً، وتُحوِّل الأحداث الحقيرة التافهة إلى حياة مليئة

بالجمال والتفاصيل السعيدة. وبينما يفكر في مثل تلك الأفكار ارتدى فولودين قبعته وخرج إلى الشارع، بعد أن حلق ذقنه بالطبع ونثر بعض العطر على أنفه الساحر وعدَّل من وضع سالفه الإيطالي.

سار في الشوارع وألقى نظرة على النساء المارة، وأبدى اهتماماً حقيقياً بهوياتهن وكيف يسرن وبأوجههن. كان يتوقف وينظر إليهن ويُصفِّر بصوت معين مبدياً إعجابه.

وهكذا مضى الوقت منه دون أن يشعر.. مرت أيام، وأسابيع، وشهور.. هكذا مرت ثلاثة أعوام في غفلة منه، ولم يستطع أن يشعر بأدنى إعجاب لقرينته الشابة المكتنزة مارجريتا جوبكيس.

كانت تعمل كالثور، فلم تكن حرفياً تنهض من انحنائها على العمل، وقد أرادت أن تجلب لسيدها كل نفع ممكن. أرادت أن تسهل كل ظروف حياته؛ فاشترت كل أنواع الأغراض المسلية والممتازة: حمالات بنطلون جميلة مثلاً، أسورة من أجل الساعات، وأغراضاً أخرى من أجل الاستخدام العائلي. لكنه كان ينظر بكآبة إلى كل ذلك، ويقدم خديه بازدراء من أجل قبلات زوجته. في بعض الأحيان كان يزمجر غاضباً ويبعدها عنه كذبابة مضجرة.

بدأ الحزن يلوح عليه بوضوح تام، وكان يستغرق في التفكير ويلعن حياته.

- لا.. إنها حياة لا تُطاق!

هكذا كان يتمتم صاحبنا فولودين محاولاً أن يفهم الخطأ الذي ارتكبه في حياته ومخططاته.

ولكن في ربيع 1925 - إن لم تخني الذاكرة - وقعت أحداث ضخمة على حياة صاحبنا نيكولاي بتروفيتش فولودين. فبعد أن شعر بانجذاب صوب فتاة ساحرة، سقط في حبها بحرارة، أو فلنقل

ببساطة أكثر، أصبح مهووساً بها، وأصبح يفكر كثيراً في هذا التغيير الجذري الذي يطرأ على حياته. وبما أنه يتحصل الآن على مبلغ جيد من المال، أخذ يفكر في تأسيس حياة جديدة أكثر سعادة.

كل شيء في تلك الفتاة الصغيرة كان يفتنه ويخلب لبه. باختصار منحته الإجابة على تطلعاته الروحية، فقد كانت تتمتع بتلك السمات التي أخذ يحلم بها طوال حياته.

كانت نحيلة ذات شخصية شاعرية وشعر قاتم، بعيون لامعة كالنجوم المتلألئة. أما ذلك الشارب الصغير جداً الذي لديها فقد كان يُضفي السرور على قلب فولودين، ويفكر بطريقة أكثر جدية في محاولة تسوية وضعه القائم.

ولكن بعض التفاصيل الأسرية المختلفة، والشعور بإمكانية حدوث فضائح مدوية، بل وعراك قاس.. كل هذا قد جعله يهدأ ويطرد عن رأسه أية أفكار حاسمة.

أخذ ينتهز كل فرصة ويتصرف بكياسة مع قرينته، وعندما يغادر المنزل يتحجج برغبته في الإسراع بالذهاب لبعض أصدقائه المقربين، ويربت على ظهرها ويقول لها مختلف الكلمات الرقيقة بدلاً من تلك المسيئة التي كان يتفوه بها سابقاً.

أما السيدة فولودين، وقد أدركت أن أمراً استثنائياً جعله يتصرف بمثل هذا اللطف، فكانت تطرف بعينيها ولا تعرف كيف تتصرف، وما إن كان عليها أن تصرخ وتتشاجر معه أم أن تنتظر قليلاً حتى تجمع أدلة اتهاماتها.

خرج فولودين من المنزل، والتقى بحبيبته، وسار معها بابتهاج في الشوارع وهو يقول لها عبارات خلابة، ملهمة قوية فائرة بالحيوية.

تعلقت الفتاة بذراعه وهي تضحك بابتهاج من حقيقة أن كثيراً من الفتيات اللاتي يخرجن مع رجال متزوجين يوهمن أنفسهن بالمستحيل، إلا أنها على الرغم من ذلك الإغواء الحادث الآن، فإنها تنظر إلى الأمر بطريقة مختلفة تماماً. ولا يستطيع شيء أن يجذبها إلى حقائق أكثر وضوحاً إلا ظروف جدية حقيقية، أو بالطبع قد يرج كيانها كاملاً شعور قوي بالحب. وبشعوره بأمارات الحب بادية في هذه الكلمات، أخذ فولودين يجذب فتاته بحيوية أكبر متمتماً بأفكار وأمنيات مختلفة طائشة.

كانا يخرجان في الأمسيات صوب البحيرة، وعلى الضفة المرتفعة هناك يجلسان على إحدى الدكك أو ببساطة على العشب أسفل شجر الليلك، يتعانقان بلطف، وينعمان بكل لحظة من السعادة سوياً.

حل شهر مايو، وقد ألهمهما هذا الوقت الفاتن من العام بالجمال والمناظر الفاتنة والهواء المنعش.

وللأسف الشديد فليس لدى المؤلف موهبة شعرية كبيرة، وليس في إمكانه اكتساب قاموس شعري حقيقي بسهولة. يشعر المؤلف بكمد حقيقي من محدودية قدراته في الوصف الفني، بل وبشكل عام في النثر الفني المعاصر.

ورغم ذلك فقد أبدع صوراً عظيمة وهو يصف تلك المشاعر الجياشة التي تعتمل في قلبي العاشقين في ضوء الطبيعة الفاتنة الخلابة وثرواتنا الطبيعية وأشجار الليلك الفوّاحة.

يعترف المؤلف بأنه حاول مراراً اختراق سر الوصف الفني الإبداعي.. ذلك السر الذي تعامل معه أدباؤنا المعاصرون العمالقة بسهولة يُحسدون عليها.

إن وصف هذه المناظر الخلابة التي كانت تكتنف لقاءاتهما يا أصدقائي تمتلئ بالحزن والارتجاف الشاعري، ولا يمكن للمؤلف أن يقهر في نفسه إغواء الانخراط فيما هو من المحرمات.. إغواء تلك المياه الحلوة للمهارة الفنية.

وسيهدي المؤلف عاشقينا بعض السطور لوصف تلك المشاهد البانورامية.

دعنا نأمل فقط ألا يبالغ فنانونا الأدباء من ذوي الخبرة في تقييم تلك المناورات الأدبية المتواضعة.. إنه أمر ليس سهلاً؛ بل إنه عمل صعب.

ومع ذلك فسيحاول المؤلف أن يغوص في قلب ذلك النوع العميق من الأدب الرفيع:

يجيش البحر.. ويظهر فجأة شيء ما ملتو.. يسرع في طريقه ثائراً.. إنه شاب لا يحني كتفيه، غامساً يده داخل جيوبه..

في العالم ثمة أريكة.. ثم اقتحمت السيجارة العالم فجأة.. أشعلها ذلك الشاب، وأخذ ينظر بافتتان إلى الفتاة.

يجيش البحر.. ويتعالى حفيف العشب الأبدي، وتنزاح الرمال أسفل أقدام العاشقين..

تبتسم الفتاة وتستنشق عبير الليلك باندهاش لا يوصف في ذلك المكان الساحر المشرق..[52].

عليه اللعنة! لا أستطيع! إن المؤلف لديه الشجاعة للاعتراف بأنه ليست لديه موهبة لذلك الذي نطلق عليه: الأدب الرفيع. فلكل

(52) في هذا المقطع يحاكي زوشينكو ساخراً النثر المنمق الذي كان شهيراً في روسيا في عام 1920. وكان قد نشأ على يد بعض الأدباء ومن أبرزهم أندريه بيلي وهو أحد المنظرين للتيار الرمزي. يستخدم هنا زوشينكو في الأصل الروسي كلمات مميزة للهجات معينة من الصعب جداً نقلها بصورة مباشرة إلى العربية، لذا فقد ترجمنا الفقرة ببعض التصرف البسيط.

موهبته. يمنح الله إنساناً لغة بسيطة خشنة، ويمنح آخر قدرة أن يستطيع في كل دقيقة أن يعبر عن كافة النغمات الموسيقية الرقيقة الممكنة.

لكن المؤلف لا يريد أن يتباهى بقدراته الأدبية الرفيعة، وسيحاول أن يكمل وصف الأحداث مجدداً بلغة بسيطة.

باختصار، ودون الانخراط في لغة فنية رفيعة، نقول إن العاشقين قد جلسا على البحيرة وتبادلا أحاديث طويلة لا تنتهي من الحب والغزل، ومن وقت لآخر كان يتوقفان ويستريحان من الكلام وينعمان بالصمت ويستمعان لما حولهما. يستمعان مثلاً لصوت جيَشَان البحر وحفيف الهواء بين ثنايا الزروع.

وكان المؤلف يتعجب دوماً عندما يتحدث الناس عن أمور معينة دون أن يمعنوا الفكر في جوهرها وأسبابها.

الكثير من أدبائنا الواعدين، وكذلك كتّاب الأدب الساخر يكتبون عادة بسهولة كلمات من قبيل: «تنهّدَ العاشقان».

ولكن لماذا كلمة «تنهّد»؟ ما الذي يجعلهما يتنهدان؟ ولماذا يكون لدى العاشقين تلك العادة المحددة بأن يتنهدا؟ على الكاتب أن يفسر ويشرح ذلك للقارئ المعذب طالما يحمل لقب: «كاتب». لكن هذا لا يحدث. يترك الكاتب القارئ قائلاً له: «إلى اللقاء». وينتقل إلى موضوع آخر بلا مبالاة مجرمة.

سيحاول المؤلف أن يتوسط في ذلك الأمر، مع أن الأمر ليس من شأنه. طبقاً لوصف أحد أطباء الأسنان الألمان، فالتنهد ما هو إلا نوع من الحبس أو المنع، أي أنه يُحدِث في جسدنا ما يمكن أن يُطلق عليه حبس أو كبت لبعض القوى بهدف منعها من أن تواصل طريقها ووظيفتها، وهنا تحدث التنهيدة.

عندما يتنهد إنسان، فهذا يعني أنه يُمنع من تنفيذ رغباته. وفي الماضي عندما لم يكن من السهل الوصول إلى الحب ببساطة كان العاشقان يتنهدان، وإلى الآن يحدث هذا أحياناً.

هكذا تسير حياتنا ببساطة وروعة، وهكذا يعمل جسدنا بآلية بطولية متواضعة لا يلحظها أحد.

لكن كل ذلك لا يحول دون أن يشعر المؤلف بالحب لكثير من الأمنيات والأمور الرائعة السامية.

وهكذا تحدثا وتنهدا. ولكن وقتها كان شهر يونيو قد حل، وفي ذلك الوقت يتفتح الليلك على البحيرة.. قلّت تنهداتهما تدريجياً حتى توقفت في النهاية تماماً وجلسا على الدكة، وكل منهما يشعر بانجذاب نحو الآخر، يكتنفهما الوجد والسعادة.

يجيش البحر..

الطين والرمال..

لا.. فلتذهب هذه الكلمات إلى الجحيم!

وفي أحد هذه اللقاءات العاطفية الرائعة، وحينما جلس فولودين مع الآنسة، وقال لها مختلف أنواع الأبيات الشعرية الرومانسية، تلعثم بعض الشيء في إحدى العبارات الجميلة التي اقتبسها من مكان ما، رغم أنه أكد العكس.

إلا أنه لم يكن بإمكانه أن يأتي بمثل تلك العبارات التصويرية الشعرية، التي تحتاج إلى قلم أديب موهوب حقاً.

انحنى صوب فتاته، وفي الوقت ذاته استنشق عبير الليلك فقال: «في كل أسبوع يزهر الليلك ثم يذوي.. هكذا هو حبك».

شحب وجه الآنسة من فرط النشوة والجذل، وطلبت منه أن يعيد مراراً وتكراراً هذه الكلمات الموسيقية الرائعة.

وأخذ يكررها طوال المساء، ويقرأ لها بين الحين والآخر من قصائد بوشكين: «يتراقص الطائر الصغير على الغصن»، ويقرأ لها من بلوك[53] وشعراء بارزين آخرين.

بعد أن عاد فولودين إلى منزله في هذه الليلة الفاتنة، كانت في انتظاره صرخات حادة وبكاء مرير وكلمات قاسية.

شنت أسرة جوبكيس بأكملها - بما فيها الممرض الشهير سيبوبوف - هجوماً على فولودين، وأساءت إليه كثيراً، وقالت إنه غشاش ووغد وفاسق.

قلب الممرض سيبونوف الأمور رأساً على عقب فعلاً، وصرخ فيه قائلاً إنه إن كانت المرأة ضعيفة، فهو بإمكانه أن يحطم له رأسه إن أراد، طالما كان فولودين مخلوقاً جاحداً، وتطلب الأمر أن يتسكع بالشوارع في الليالي، ويهز ذيله ويحطم الحياة الأسرية اللائقة.

أما مارجريتا، وقد شعرت بمصيبة لا مفر منها، فقد صرخت بصوت عال جداً كالصفارة وأخذت تندب وتولول قائلة إنه يجب طرد هذا الحيوان الكريه قاسي الفؤاد، لكن الحب وحده وشبابها الذي أضاعته عليه هما ما يمنعانها من ذلك.

أكثر ما صعق فولودين كان هدير الشقيقة الصغرى ليليا، التي لم تكن لها علاقة بالأمر نهائياً أخذت تصرخ فيه بعنف. ولم يؤد زئيرها لشيء سوى لزيادة التوتر بالجو وتحويل المصيبة إلى فضيحة أسرية ضخمة.

قتل هذا المشهد الفظ غير المتحضر داخل فولودين كافة

(53) الكسندر بلوك شاعر روسي وأحد أقطاب المدرسة الرمزية.

أفكاره المجيدة! وبعد أن كان يعود إلى المنزل محملاً بكافة التجارب الرائعة العميقة والمشاعر النبيلة وعبير الليلك، أصبح يمسك برأسه الآن ويسب ويعلن انخراطه في هذه الخطوة المتهورة التي أدت إلى زواجه من هذه المرأة التي لا يمكن السيطرة عليها، والتي تدمر شبابه الآن. ودون أن يرفع صوته مجيباً على الصراخ والبكاء، ترك الأسرة بأكملها تذهب إلى الجحيم ودخل غرفته وأغلق الباب من خلفه. وفي الصباح التالي، وما إن تسلل ضوء الصباح الرقيق، أخذ يلملم أغراضه مُعداً نفسه للرحيل.

وعندما انصرف الأخ الممرض إلى عمله، تناول فولودين حاجاته وترك الشقة على الرغم من العويل والهجوم الهستيري المرير الذي كانت تشنه زوجته عليه في كل دقيقة.

غادر المكان وذهب إلى صديقه المصور الذي استقبله بالعناق وبالسرور غير المصطنع، وقد افترض أن فولودين سيبدأ العمل معه على أسس أوفر من الناحية الاقتصادية إن لم يكن بالمجان.

وبسبب الاضطراب الذي عصف بفولودين مما مر به من أحداث، وعد وعوداً كثيرة بتقديم خدمات كريمة بلا حساب، دون أن يمعن التفكير فيما يقوله. كان يحترق برغبة محددة، وهي أن يرى فتاته ليبلغها بانقلاب الأوضاع الذي سيجلب إليها السعادة.

وفي الثانية ظهراً التقى بها، وكالعادة مضيا سوياً صوب البحيرة؛ صوب الكنيسة الصغيرة التي هناك.

أمسك فتاته من يدها، وأخذ يقص لها باضطراب، ويضفي على تصرفاته تفاصيل بطولية متعددة. صحيح أنه غادر المنزل لكن ذلك قد حدث بعد أن مزّق خيوط الكراهية وضرب وجه شقيق زوجته الممرض.

وجذل قلب الآنسة بهذه الأخبار العظيمة، وقالت إنه قد أصبح أخيراً مواطناً حراً، وإنه سيتمكن من أن يطلق على سمكته الصغيرة: زوجته فعلاً.

وهكذا سيغدو كل شيء رائعاً عندما يعيشان سوياً في شقة واحدة، وينامان على فراش واحد. هو سيعمل كالثور دون أن يريح يده، وهي ستنشغل في أعمال المنزل؛ في الحياكة وإلقاء القمامة، وهكذا..

وفجأة صُعِق فولودين بهذه الرغبة الصريحة التي أبدتها فتاته في أن تجعله زوجاً لها وتسيطر عليه كاملاً إلى آخر أيام حياته.

نظر إليها بوجوم وبدأ يتحدث قائلاً إن كل هذا جميل، إلا أنه يتطلب تفكيراً متأنياً في كافة جوانبه، فهو لم يتعود أن يجعل حبيبته تتحمل شظف العيش وتشعر بالحاجة.

والحق أنه قد قال هذه الكلمات ببساطة، وقد أراد أن يختبر موقف شريكته المادي ويقودها صوب منطقة أكثر سمواً. بدا من المهين له أن تعامله الآنسة من وجهة نظر عملية، وبشكل مادي منتفع.

وبعد أن تذكر على الفور زواجه وحساباته، بدأ ينظر إلى فتاته بشكل أكثر تفحصاً، راغباً في أن يخترق كنه أفكارها وقلبها ومشاعرها كي يدرك ما إن كانت لديها مثل تلك الأفكار التي كانت لديه في الماضي أم لا.

وبدا لفولودين أن عينَي الفتاة تتوهجان بالطمع والشره والرغبة في الإسراع بعقد القران من أجل تحقيق مصالحها المادية.

- ثم إني ببساطة ليس لديَّ مال حتى أتزوج الآن.

هكذا قال، وفجأة لمعت في ذهنه خطة. لقد قرَّر التظاهر بأنه فقير وعاطل عن العمل.

- نعم..

هكذا كرر كلماته بمزيد من التأكيد، بل - إن جاز التعبير - بفرحة.

- ليس لديَّ مال.. ليس لديَّ مال على الإطلاق، وللأسف فإني لا يمكنني أن أوفر لكِ حياة كريمة ملؤها العمل والنجاح والازدهار.

لم يكن ذلك بالطبع حقيقياً، فقد كان يحيا على نحو كريم، ولديه عمله، لكنه أراد أن يسمع من الفتاة عبارات نزيهة فاتنة مثل «حسناً.. حقاً؟ دعنا لا نلقي بالاً لأمر المال. وما أهمية المال طالما لدينا مثل هذه المشاعر النبيلة» وما إلى ذلك.

أما أولنكا سيسيايفا فقد انزعجت من تأكيداته ولهجته، وتمتمت بلهجة متعالية ببعض الكلمات السريعة التي كان من الممكن اعتبارها مجرد تعبير عن اضطرابها وحزنها على تحطم أحلامها.

أخيراً قالت في النهاية:

- أمر غريب! منذ وقت غير طويل كنت تقول كلاماً مختلفاً تماماً يناقض ما تقوله الآن، وأخذنا نرسم خططاً مختلفة، لكنك الآن تناقض كل ما قلته، فكيف ذلك؟

أجاب بفظاظة:

- الأمر بسيط جداً. كما تعلمين أيتها الرفيقة المبجلة ليست لديَّ وظيفة رسمية، بل إن وضعي في العمل متقلقل للغاية. وربما ليس لديَّ عمل على الإطلاق في الوقت الحالي. أنا في حاجة شديدة إلى عمل، ولا أدري ماذا سيحدث في المستقبل، وكيف ستنتهي بي الأمور، بل إنه قد يتوجب عليَّ أيتها الرفيقة المبجلة أن أسير حافي القدمين في الشوارع طالباً الإحسان.

نظرت الآنسة إليه بأعين جاحظة وهي تحاول أن تفهم ما الذي يحدث تحديداً. لكنه أخذ يغمر فتاته بكل أنواع الهراء ويرسم لها صوراً من الفقر والشقاء والحاجة المستمرة.

وبعد ذلك، وقبل أن يودعا بعضهما حاول كلاهما أن يُلطِّفا من فظاظة هذا المشهد وتنزها لعشر دقائق وأخذا يتحدثان عن أكثر المواضيع عمومية وشاعرية. لكن الحديث لم يتم كما أرادا، وافترقا.. انصرفت وهي مندهشة مما قاله دون أن تتمكن من فهم السبب، بينما انصرف وهو أكثر ثقة من أن لهجتها تفصح عن حساباتها وأطماعها المادية.

وبعد أن عاد إلى غرفة الاستقبال التي يقطن فيها استلقى فولودين على الأريكة وحاول أن يستجلي مشاعر ورغبات فتاته. فكَّر في نفسه قائلاً «لقد أتممت الأمر بمهارة. كانت تحاول أن تستغفلني. ربما تفاجأت بشدة عندما سمعت حديثي عن الفقر».

لا.. إنه يريد أن يتأكد من حبها، فقد تكون تلك المشاعر بهدف المصلحة فقط.

ورغم أنه لم يكن واثقاً تماماً من أنها تريد الزواج من أجل مجرد مصالح مادية، لكنه أخذ يفكر كذلك، راغباً في أن يسمع سريعاً كلماتها وتأكيداتها بالعكس. لا يمكن للفقر أو الحاجة أن يقوِّضا الحب الحقيقي. وإذا كانت تحبه حقاً، فلابد أن تأخذه من يده، وتقول له مختلف العبارات من قبيل: حقاً؟ ماذا تقول؟ لماذا تقلق بشأن ذلك؟ إن فقرك لا يخيفني، وسوف نكافح كي نشق طريقنا.

هكذا كان يفكر وهو مستلقٍ على الأريكة يكتنفه الاضطراب والحيرة. وفجأة سمع أحداً يناديه على السلم. لقد كان الأخ المرض

الـذي طلـب منـه بصرامـة أن يخـرج إلى السـاحة كمـكان محايـد، حتـى يمكنهـما أن يناقشـا بحريـة الأوضـاع الجاريـة الآن.

ارتدى فولودين قبعته وخرج من الباب خائفاً من الرفض.

وعندمـا خـرج إلى السـاحة وجـد الأسرة كلهـا واقفـة هنـاك منهمكة في حديـث غاضـب.

ولم يُضيِّـع الشـقيق الممـرض وقتـه الثمـين واقـترب عـلى الفـور مـن فولوديـن وضربـه عـلى الفـور بحصـاة كبـيرة، ربمـا يتعـدى وزنهـا رطلاً إنجليزيـاً.

لم يسـتطع فولوديـن أن يشـيح بوجهـه عنهـا في الوقـت المناسـب، بـل التفـت فقـط إلى إحـدى الزوايـا مـما قلـل مـن حـدة الضربـة قليلاً. صدمـت الحصـاة قبعتـه واحتكـت بأذنـه ووجنتـه.

وبعـد أن خبـأ فولوديـن وجهـه بيديـه اندفـع عائـداً، وطـار مـن خلفـه حجـران أو ثلاثـة أخـرى ألقـت بهـا أيـادي النسـاء الضعيفـة.

أمـا الشـقيق الممـرض فقـد أخـذ يركـض خلفـه، وأخـذ يـدق البـاب بقدميـه بفظاظـة، وهـو يـصرخ في فولوديـن كي يخـرج إليـه ليتحـدث معـه مـرة ثانيـة بهـدوء ودون قتـال تلـك المـرة.

أمـا فولوديـن فـكان يمسـك أذنـه المصابـة بيـده، واقفـاً خلـف البـاب كاتمـاً أنفاسـه. كان قلبـه يخفـق بيـأس، وقـد شـل الخـوف قدميه.

ظـل الممـرض يـدق البـاب بقدميـه، وقـال إنـه إن سـار الأمـر عـلى هـذا المنـوال، فسـوف تمسـك الأسرة جميعـاً بجسـد هـذا الوغـد وتصب فيـه حمـض الكبريتيـك. بالطبـع هـذا فقـط إن لم يعـد لعقلـه وعـاد ليلبـي كل واجباتـه.

أمـا فولوديـن فبعـد أن ضُرِب وصعـق مـما حـدث، اسـتلقى عـلى الأريكـة، وأخـذ يقـول في نفسـه إن كل شيء قـد تهـدم وتدمـر تمامـاً.

لم يجد أمراً واحداً يجلب له العزاء. حتى الحب الآن أصبح موضع شك، وقد تم خداع مشاعره والإساءة إليها بتلك الحسابات المادية الفظة.

وبعد أن فكّر في ذلك راوده الشك ثانية.

ولكن إن لم يكن الأمر كذلك فسيذهب إليها كي يقتنع تماماً بحقيقة الأمر.

نعم.. سيذهب إليها ويقول كل شيء.. سيقول لها إن الحياة تزداد صعوبة، وإن مكمن الخطورة في حياته أنه يتبع المثل العليا، ولهذا فعليها أن تدرك مرة واحدة وإلى الأبد أنه لا يملك شيئاً على الإطلاق، أنه معوز.. ليست لديه كسرة خبز، وعاطل عن العمل. إن أرادت أن تتزوجه فلتعلم أن هذا سيشكل خطورة حقيقية عليها، وإن لم ترد، فليصافح كل منهما الآخر ويفترقا كمركبين في البحر.

أراد أن يهرع إليها على الفور كي يقول لها كلماته الأخيرة هذه، لكن الوقت كان قد تأخر، لذا فبعد أن خلع معطفه الملطخ بالدماء وضع أذنه المجروحة أسفل صنبور المياه وربط رأسه بمنشفة وذهب لفراشه لينام.

لكنه لم ينعم بنوم صاف.. أخذ يتقلب ويطلق شخيراً عالياً حتى إن المصور قد نادى عليه مرتين حتى يوقف شخيره.

هذا الممرض سيبونوف.. تلك الشخصية الجاهلة غير المثقفة أتت فعلاً بزجاجة حمض كبريتيك من مكان ما.

وضعها على النافذة وأعطى شقيقتيه محاضرة سريعة عن فوائد هذا السائل. قال:

- لن يضر أن تنثري منه قليلاً.

وأخذ يُصوِّر لها لحظة نثر السائل على شخص ما.

- لا يلزم بالطبع أن تسكبيه على العينين، ولكن من الممكن على الأنف وبقية مواضع الوجه، وقطعاً سيسبب له هذا بعض الإزعاج. الأهم من ذلك أنه بعد أن يصاب وجهه فلن يعود ليبدو رجلاً جذاباً، ودون أدنى شك ستتوقف الفتاة عن الشعور بالانجذاب إليه، وهكذا يعود كرفيق طيب إلى حظيرته. وستجد المحكمة ظروفاً كثيرة تخفف من وقع الجريمة وستحكم بعقوبة مشروطة.

صرخت مارجريتا جوبكيس بقوة، وأخذت تلوح بيديها بقوة وهي تقول إنه إن كان ذلك ضرورياً، فإنها تفضل أن تلقي بذلك السائل على ذلك الوجه ذي الشارب الخفيف لتلك العاهرة التي أفسدت سعادتها.

إلا أنها عندما أدركت أن فعل ذلك لن يترك أدنى احتمالية لعودة زوجها، صرخت ثانية ووافقت، لكنها قالت إنه لاعتبارات إنسانية عليهما أن يخففا المحلول ببعض الماء.

هدر صوت الممرض، وتناول الزجاجة من فوق حافة النافذة، وقال إنه يمكن أن يلقي بالسائل عليهما كليهما، وليذهبا إلى الجحيم، فقد سئم منهما، وإنه قد يرش السائل أيضاً على شخص ثالث.. ربما تكون مثلاً والدة تلك الفتاة السمراء، فهي من تركت ابنتها تسير على هواها وسمحت لها أن تتسكع مع هذا الرجل. أما فيما يتعلق بتخفيف السائل بالماء فلن يؤدي إلى شيء، فالكيمياء علم دقيق، والسائل يحتاج إلى تركيبة دقيقة، ويجب على أناس بهذا المستوى من التعليم ألا يعبثوا بالتركيبات العلمية.

وطوال هذا المشهد العائلي كانت الشقيقة الصغرى ليليا آخذة في البكاء والنحيب، وقد كانت تشعر بنذير مصائب جديدة قادمة في الطريق.

وأنا كمؤلف أود أن أهدِّئكم وأؤكد لكم أن لا شيء خطير سيحدث أيها القراء المبجلون. وقد انتهى كل شيء، وإن كان ليس على خير تماماً، إلا أنه انتهى بشكل قريب من ذلك. لكن الشعور بالخوف كان جباراً، وقد عانى صديقنا فولودين كثيراً من البؤس بسبب ذلك.

في اليوم التالي، وبعد أن حلق ذقنه وعالج أذنه المجروحة خرج فولودين إلى الشارع وأسرع للقاء صغيرته.

كان يسير في الشارع وهو يومئ بعنف ويتحدث كثيراً مع نفسه.

أخذ يفكر في كافة الأسئلة الخادعة التي يمكن أن يسألها إياها كي تكشف عن جشع تلك الفتاة الشابة الذي تخفيه عنه.

إنها فقيرة، وتعتمد على أمها كاملاً، وتريد أن تُسرع في ضمان حياة كريمة لها، لكنها ترتكب خطأ فادحاً. إنه لا يملك شيئاً كما تعرف. ها هو أمامها.. ليس لديه سوى ربطة عنق واحدة وسروال واحد، بالإضافة إلى ذلك فهو بلا عمل، ودون أمل في المستقبل. ولا يربح شيئاً من عمله بالتصوير، وبالإضافة إلى المبالغ الطائلة التي يدفعها على الأقلام والممحاة لم يعد يرى شيئاً. وإن كان مستمراً في عمله هذا، فذلك من فضل ولطف صديقه المصور باتريكييف فقط الذي تنازل له عن أريكة وغرفة كي يقيم فيها.

هذا ما سيقوله لها، ثم يرى ردة فعلها.

ذهب إليها مسرعاً، لا يرى أو يشعر أو يسمع شيئاً.

وظهرت قرينته السابقة مارجريتا جوبكيس من أحد أركان الشارع.

وما إن رآها، حتى شحب وجهه تماماً، لم ينظر إليها وهو يقترب منها كالمسحور.

وعندما أصبح على بعد ثلاث خطوات من مارجريتا، صاحت مارجريتا بشيء ما، وحركت يدها ورشت السائل على فولودين من أسفل إلى فوق.

كانت المسافة كبيرة بينهما، وكانت القارورة ذات عنق ضيق، وهكذا لم تخرج منها إلا نقاط بسيطة سقطت على رداء فولودين.

ركض فولودين صوب أحد جوانب الشارع مرتعباً بشدة، وأخذ يربت بيده على وجهه ليتأكد أنه على ما يرام وأنه لا يزال سليماً.

وبعد أن تأكد أنه على ما يرام التفت واندفع صوب مارجريتا جوبكيس التي كانت واقفة متصلبة في مكانها كالظل بالقرب من السياج. أمسك بها فولودين من عنقها وأخذ يهزها ويضرب رأسها في السياج ويصرخ بعبارات غير مفهومة.

حدث كل ذلك في الشارع الفارغ الهادئ الذي كان فولودين يلتقي فيه عادة بصغيرته.

ولكن على الرغم من ذلك أخذ الجميع يتوافدون من الشوارع الأخرى والفضول يملؤهم لرؤية هذا العرض المثير الذي يجري أمام أعينهم.

لكن العرض كان قد أوشك على نهايته. فبعد أن خاف فولودين أن يجروه إلى قسم الشرطة توقف عن الضغط على عنق السيدة، وعاد إلى منزله مسرعاً دون أن ينظر خلفه.

كان مصدوماً ومضطرباً جداً. كانت أسنانه تصطك بقوة كضربات الطبول.

عاد إلى المنزل وهو يركض تقريباً وأغلق باب الشقة من خلفه.

بالطبع لا يمكنه الآن بأية حال من الأحوال أن يذهب لصغيرته.

كان محموماً.. ساقاه ترتعشان، وأسنانه تصطك.

استلقى فولودين على الأريكة لبعض الوقت. ثم أخذ يذرع الغرفة والخوف يملؤه من أن ينظر من النافذة ويستمع للضوضاء بالخارج.

لم يخرج من الشقة طوال اليوم خوفاً من أن يلتقي بالممرض، ويجهز عليه الأخير في الساحة أو يجعله كسيحاً، أو يكسر ذراعه ووجهه.

قضى يومه في معاناة مميتة دون أن يتناول طعاماً مطلقاً. كان يشرب فقط المياه بكميات لا تصدق كي تسكن وتهدئ من النار المتأججة بداخله.

وطوال الليل وبعد أن أغلق عينيه ظل يفكر في وضعه الحالي محاولاً أن يجد مخرجاً مريحاً غير مهين له. ووجد هذا المخرج.. توصل إلى فكرة بمقتضاها عليه أن يتوصل إلى هدنة مع قرينته السابقة وملاكها الحارس الرفيق سيبونوف. لن يقدمهما إلى المحكمة بتهمة الشروع في قتله، ومقابل هذا عليهما أن يتوقفا عن تهديد حياته.

وبعد أن هدأته تلك الفكرة، أخذ يفكر في الأمر الآخر؛ الذي لا يقل أهمية عن الأمر الأول. أخذ يقلب الفكرة في رأسه مئة مرة، ويفكر في الكلمات الجديدة الحاسمة التي سيقولها لصغيرته، حتى يمكنه أن يضمن أنه قد حصل على إنسانة حقيقية ذات مشاعر نزيهة، وألا تكون امرأة خبيثة تدبر خدعاً عملية. لن يوقفه شيء، ولن يبالي بتكلفة الأمر كي يتوصل إلى ذلك الهدف. نعم.. سيقول إنه عاطل عن العمل، وفي البداية سيخفي عنها عمله مع المصور حتى

يقتنع تماماً أن الآنسة لا تود أن تحقق من خلف الزواج منه أية مصالح مادية.

وأخذ فولودين يتصور ماذا سوف يفعل؛ سيرفع ياقة معطفه ويغلق النافذة بإحكام، ويعمل سراً دون راحة نهاراً وليلاً في تهذيب الصور الفوتوغرافية. سيعمل هكذا لشهر أو لاثنين، بل لعام، وسيخبئ المال ولن ينفق شيئاً تقريباً، وفي النهاية، وبعد أن يقتنع تماماً بنزاهة صغيرته سيأتي بأكوام من النقود أمام قدميها، ويطلب منها أن تصفح عن فعلته هذه.

وستترقرق الدموع في عينيها وتبعد المال.. نعم.. قد تفعل ذلك.. وتقول له: ما هذا؟ لم كل ذلك؟ سوف يعكر هذا المال من صفو علاقتنا.

وتحل وقتها سعادة لا يكدر صفوها شيء، وينعمان بحياة فريدة رائعة.

انهمرت دموع الفرح من عيني فولودين عندما أخذ يفكر في هذا الحل. نهض من الأريكة، وأخذ يقفز عليها بنشاط ويمسح دموعه بكم قميصه.

لكنه استغرق بعدها في التفكير مجدداً في مصائبه، وفي الشجار الذي تم وكل الأحداث المحزنة الأخيرة.

شعر حينها ببرد شديد، وكذلك بالخوف الشديد من أن تكون هيئته الجميلة قد تشوهت رغم كل شيء، فنهض من الأريكة، وركض مجدداً صوب المرآة كي يتأكد ثانية من سلامة وجهه، وحينها لاحظ البقعة على ردائه.

هكذا قضى ليلته بين كل هذا الاضطراب وهذه المشاعر الصعبة ولم يغفُ إلا قرابة الصباح.

وفي الصباح بدأ في الاهتمام بعمله بوجه شاحب وأعين غائمة، وقد قرَّر بادئ ذي بدء أن يزور صغيرته كي ينفذ خطته سريعاً. بعد ذلك سوف يرفع العلم الأبيض ويجري مفاوضاته مع أهل قرينته السابقة.

وعندما خرج إلى السلم أخذ فولودين ينظف حذاءه كعادته بقطعة من القماش حتى يلمع.

كان قد نظف الحذاء الأول عندما «تحزّق» فجأة، ولابد أن ذلك من برودة السلم، ثم مرة ثانية وثالثة، وبعد عدة دقائق عاودته «الحازوقة» مرة أخرى.

أخذ يتنحنح ويقوم بتلك الرياضة المعتادة البسيطة، ثم بدأ يفرك الحذاء الآخر، ولكن عندما رأى أن الحازوقة لم تنته ذهب إلى المطبخ وتناول قطعة سكر وبدأ يمصها، فمن غير الملائم على الإطلاق أن تتحدث مع المرأة التي تحبها ولديك حازوقة.

لكن النوبة لم تفارقه، وهو يحزّق الآن بشكل آلي منتظم كل نصف دقيقة تقريباً.

ساوره الاضطراب بعض الشيء من هذه العقبة غير المتوقعة والتي تحول دون أن يلتقي بإنسانة عزيزة عليه، فذهب إلى غرفته وهو ينشد بأعلى صوته أغاني سعيدة ومضحكة حتى لا يُفضي به هذا الاضطراب إلى عذاب شديد.

وبعد مرور ساعة تقريباً جلس على طرف الأريكة، وأدرك فجأة وهو في حالة من الهلع أن نوبة الحازوقة لم تهدأ، بل على النقيض من ذلك؛ ازدادت غلظة وطنّاً، وكل ما تغير أن ازداد الفاصل الزمني الذي يفصل بين حازوقتين ليصل إلى دقيقتين تقريباً.

وفي هـذه الفواصـل الزمنيـة كان فولوديـن يجلـس بثبـات عـلى الأريكـة، ويوشـك أن يغـوص في داخلهـا، وهـو ينتظـر بخـوف شـديد اضطـراب حلقـه القـادم لا محالـة، وبعـد أن تأتيـه الحازوقـة كان يثـب مـن مكانـه، وبعـد أن يُلـوِّح بيديـه ينظـر أمامـه معذبـاً، نظـرة تبـدو وكأنهـا مـن العـالم الآخـر، ولا يـرى شـيئاً.

وعـلى هـذا المنـوال أخـذ يعـاني حتـى الثانيـة ظهـراً، ثـم أخـبر صديقـه المصـور بمـا يحـدث معـه. انفجـر المصـور باتريكييـف ضاحـكاً بطيـش، وقـال إن مـا يحـدث أمـر تافـه سـخيف بـكل معنـى الكلمـة، يحـدث معـه كل يـوم تقريبـاً. وحينهـا اسـتجمع فولوديـن مـا تبقـى لـه مـن شـجاعة وتوجـه إلى فتاتـه أولنـكا سيسـيايفا.

ولم تتركـه الحازوقـة طـوال طريقـه إلى هنـاك، وكانـت تجعـل جسـده يرتـج كامـلاً، وهـو يُلـوِّح بيـده في كل اتجـاه.

وعندمـا اقـترب مـن بيـت فتاتـه كان يحـزّق بقـوة شـديدة حتـى إن المـارة كانـوا يسـتديرون صوبـه ويسـبونه قائلـين لـه «يـا حـمار!» وأشـياء أخـرى مـن هـذا القبيـل.

وبعـد أن اسـتدعى فتاتـه بطرقـه عـلى النافـذة كان فولوديـن قـد توصـل إلى تفسـير قاطـع، وقـد نـسي تمامـاً كافـة أسـئلته المخادعـة التـي كان ينـوي أن يطرحهـا بسـبب بليّتـه الجديـدة.

في البدايـة اعتـذر لهـا عـلى نوبـة الحازوقـة العصبيـة التـي أصابتـه كـما هـو واضـح مـن البـرد والأنيميـا، ثـم قبَّـل يـد أولنـكا بكياسـة وقـد حـزّق مرتـين أثنـاء هـذه العمليـة البسـيطة.

أمـا أولنـكا سيسـيايفا وقـد اعتقـدت أنـه قـد شرب الخمـر بسـبب الحـزن الـذي أصابـه، عقـدت حاجبيهـا واسـتعدت لتعطيـه عقوبـة قاسـية، وأمّـا هـو وقـد أخـذ يفكـر كثـيراً في مرضـه فقـد تمتـم بكلـمات

غير واضحة عن أنه عاطل عن العمل، وأن كل رأسماله يتلخص في ربطة عنق وسروال.

قال ذلك كي يجعل أولنكا تجيب عن هذا، وتوضح ما إن كانت موافقة على الزواج به تحت هذه الظروف والخوض في هذا المستقبل المرير الذي ينتظرها إلى الحد الذي قد تعيش فيه على الصدقة كالأعمى، وهل تحبه بغض النظر عن كل ذلك أم لا.

احمرّ وجه أولنكا سيسيايفا للغاية، وقالت له إن الوقت قد تأخر على طرح مثل هذه الأسئلة. الأكثر من ذلك أنها اكتشفت بالأمس أنها في وضع من الحماقة فيه أن تستمع إلى مثل هذا الحديث، وأن الزوج هو الزوج، وواجبه أن يعول أسرته المستقبلية.

شعر فولوديـن بالبلية تكتنفه من هذا الاكتشاف، ولم يحصل على إجابة حاسمة على أفكاره وشكوكه، وضل طريقه وفقد خيوط خطته وأخذ ينظر بارتباك إلى الآنسة ويحزّق بين الوقت والآخر.

ثم أمسك بها من يديها وقال لها إنه يكفي أن تقول له إنها تحبه، وهو سوف يقوم بخطوات حاسمة في هذا الطريق.

حينها ابتسمت الفتاة بلطف وقالت إنها بلا شك تحبه لكن عليه أن يتلقى علاجاً حقيقياً لنوبات الحزقة العصبية التي تصيبه، وإنها لا يمكنها أن تتخيله زوجاً لها بهذا العيب.

وبعد أن انحنى لها افترقا. بالنسبة لها فقد كانت في كامل الثقة من نفسها، أما هو فقد كان غير عاقد العزم إطلاقاً، بل ويائساً من معرفة كنه مشاعرها الحقيقية نحوه.

كان هذا أمراً غريباً ومدهشاً جداً، لكن الحازوقة لم تفارق فولوديـن.

بعد أن عاد إلى المنزل ذهب لينام مبكراً عن موعده وكله أمل أن يستيقظ في الصباح ليجد الأمر قد انتهى وتعود إليه حياته الإنسانية البسيطة الرائعة. إلا أنه عندما استيقظ كان على قناعة بأن بليته لم تنته. الحق أن النوبة لم تعد تأتيه إلا نادراً.. مرة مثلاً كل ثلاث دقائق، ولكن في كل مرة تأتيه النوبة لا يعود يرى أية دلالة على شفائه من هذا المرض.

لم ينهض من فوق أريكته، وهو يرتجف من فكرة أن هذه الوعكة سوف تستمر إلى أبد الآبدين، لذا فقد ظل مستلقياً عليها طوال اليوم، ولم ينهض سوى مرات نادرة ذهب فيها إلى المطبخ ليشرب بعض المياه الباردة.

في الصباح عندما رفع رأسه ثانية من وسادته وأدرك أن مرضه لم يفارقه انخفضت معنوياته تماماً. توقف عن مقاومة الطبيعة وقَبِلَ مصيره بإذعان واستلقى كالميت، وبين الحين والآخر كان جسده يرتعش تحت وطأة حازوقته العصبية الشديدة.

أما المصور باتريكييف، والذي أبدى اهتماماً شديداً بالحالة الغريبة لرفيقه في السكن، فقد راودته المخاوف بأن يرتبط مصيره بمريض يحزّق بشدة طوال الوقت، مما يخيف زواره وزبائنه.

ودون أن يتفوه بكلمة لفولودين هرع ليلتقي بأولنكا سيسايفا المفعمة بالحيوية كي يدعوها لتزور مريضه، راغباً أن يتخلص بهذا من كل مسؤولياته الأخلاقية والمادية الخاصة بالعناية بفولودين.

وصل إليها وظل يتوسل إليها كي تأتي معه قائلاً إنه إن كان وضع حبيبها ليس الأسوأ على الإطلاق، إلا أنه في حالة غريبة للغاية، وإنه في حاجة حقاً للمساعدة.

وقد شعرت الفتاة بالإحباط الشديد من هذا المرض الغريب الذي لحق بعريسها المستقبلي، ولم تستطع أن تعرب عن حزنها واضطرابها الشديدين. ووافقت على زيارة المريض.

توقفت عند عتبة الباب وهي تشعر بالاضطراب الشديد من هذا المنظر البائس المفجع للغرفة وفقرها الشديد، ولم تستطع أن تحسم أمرها بالدخول والاقتراب من المريض.

وما إن رأى المريض فتاته حتى هب من الأريكة ثم استلقى عليها ثانية، وهو يحاول أن يخفي سريعاً رداءه المقطوع.

اقتربت الآنسة من المريض وجلست، وأخذت تنظر إليه نظرة معذبة وهي ترى كيف يرتج جسد عريسها المستقبلي من المرض.

أثارت أخبار ذلك المريض الذي يحتضر لثلاثة أيام متواصلة السكان بالبيوت المجاورة. شعر المواطنون بالفضول من الشائعات المترددة عن دراما الحب خلف القصة. وبدأت زيارات حج حرفية إلى الشقة لم يكن المصور قادراً على منعها وحده. أراد الجميع أن يروا كيف تعامل الحبيبة حبيبها وماذا تقول له وكيف يجيبها عندما تصيبه الحازوقة.

وهنا ظهر من بين المواطنين أخونا الممرض، وهو يحاول أن يلفت الأنظار لكنه لم يخاطر بالدخول إلى الغرفة حتى لا يخيف المريض.

وكواحد من أقرباء المريض بالإضافة لمهنته الطبية كان يتحدث بسلطان بين الزوار عن حالة المريض موضحاً ما حدث له وتفاصيل الحالة بالضبط.

وفي الحقيقة لم يكن ينوي التكسب من خلف ذلك، فقد كان يخاف الرجل.. لا شك في ذلك، لكن دافعاً آخر كان يحركه أيضاً

وهـو الروابـط التـي تربـط الرجـل بشـقيقته مارجريتـا جوبكيـس التـي وجـدت نفسـها دون شريـك في منعطـف العمـر.

لكـن الحالـة الصحيـة السـيئة للمريـض أثـرت عليـه كثـيراً، لـذا فكلـما كان يضـع في اعتبـاره مشـاعر الحـب، لا يكـون بإمـكان أحـد أن يلمـس حتـى إصبـع قريبـه المريـض نيكـولاي بتروفيتـش فولوديـن. في أسـوأ الظـروف سـتتمكن مارجريتوتشـكا مـن تصريـف أمـور حياتها. أمـا فيـما يتعلـق بالمـرض فلابـد أنـه بسـبب حالـة عصبيـة، وقـد هيأ له المـرض التربـة المناسـبة. في المستشـفى التـي يعمـل بهـا أمـراض مريعـة اللـه أعلـم بهـا قـد ظهـرت بسـبب البـرد، لكنهـا لم تـؤد إلى أمـر خطـير، فقـد بقـي أصحابهـا أحيـاء.

أمـا المصـور باتريكييـف، وقـد خـشي أن تُسرق صـوره ولوحاتـه وسـط كل هـذا الهـرج والمـرج، صرخ صرخـة مدوية وأجـبر الحضور عـلى الانصراف مهـدداً إياهـم باسـتدعاء الشرطـة لتفرقهـم بالقـوة إن لم ينصرفـوا.

وبعـد أن حصـل الأخ الممـرض عـلى أوامـره مـن المصـور أخـذ يدفع الحضـور المزعجـين للانـصراف، وهـو يلـوح بحامـل الكاميرا ثـلاثي الأرجل وهـو يبعـد الـزوار صـوب المطبـخ أو السـلم. طلـب منهـم أن ينصرفـوا بسـلام وإلا اضطـر للقيـام بإجـراءات حاسـمة.

وبعـد أن رأت هـذا المشـهد المخـزي مـن تزاحـم الجمـوع، وهـذا الخـزي الواضـح أخـذت الآنسـة أولنـكا سيسـيايفا تتمتـم قائلـة إنـه مـن الأفضـل أن يذهبـوا بالمريـض إلى المستشـفى، أو عـلى الأقـل أن يسـتدعوا طبيـب البنايـة المشـتركة، والـذي يمكـن أن يتخلـص مـن كل هـؤلاء الجمـع.

مـن بـين الحضـور كان موجـوداً بالمصادفـة أحـد المثقفـين السـابقين المدعـو أبرامـوف الـذي أعلـن أنـه مـا مـن حاجـة مطلقـاً للطبيـب هنـا،

فهو سيكلفهم ثلاثة روبلات وسيقوم ببعض الأمور السيئة التي لا يمكن للمريض أن يُشفى بعدها بسهولة. وأنه من الأفضل أن يتركوه يقوم بتجربة قد تقتلع المرض كاملاً من جذوره.

لم تكن لذلك المدعو أبراموف أية خبرة علمية أو طبية، لكنه يفهم بشكل عميق كثيراً من المسائل، ويحب أن يعالج المواطنين من كافة أمراضهم ومعاناتهم بطرقه المنزلية. قال إن مرضه واضح جداً للعيان، وإن ما حدث نتيجة حركة غير صحيحة داخل الجسد، وإنه عليهم أن يوقفوا سريعاً تلك الحركة، فالجسد - إن جاز التعبير - له حركته الخاصة، وإن حدث وبدأت تتحرك في اتجاه واحد، فهو أمر خطير، وهذا منشأ كافة أمراضنا ومشكلاتنا الصحية. وعلينا إذن أن نعالج ذلك بنشاط، ونعطي نظام جسدنا هزة قوية كي يستطيع أن يعمل بطريقته الآلية، دون أن يدرك إلى أين هو ذاهب، وماذا سينتج عن عمله هذا.

وقد أمر بوضع المريض على مقعد، وأخذ يسخر من الطب والأطباء، وذهب صوب المطبخ كي يبدأ في إعداداته العلمية.

وهناك قام - بمساعدة من الشقيق الممرض - بملء دلو كامل من المياه الباردة وسارا بحذر على أطراف أصابعهما صوب باب الغرفة، وحينها ألقيا بالماء على رأس المريض وهما يصرخان عالياً، والذي كان حتى هذه اللحظة جالساً في مكانه على المقعد كشوال من البطاطس.

وقد نسي فولودين مرضه وكان على وشك الشجار معهما، وبعد ما حدث بشكل عام، أخذ يطرد الحضور جميعاً ثائراً، وكان يحاول أن يضرب معالجه المنزلي هذا.

وسرعان ما توقف فولودين عن ذلك، وبعد أن أبدل ملاءة الفراش، وضع رأسه على ركبتي فتاته واستغرق في النوم.

في الصباح التالي استيقظ وهو في كامل الصحة والعافية، وحلق ذقنه النابتة، وبدا كل شيء على ما يرام وبدأ يمارس حياته بشكل طبيعي .

قطعاً لا يقصد المؤلف أن يقول إن هذا الغلاج المنزلي قد آتى مفعوله فعلاً. لقد ذهب مرضه سريعاً من تلقاء نفسه. ولم يستغرق أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، وهي مدة طويلة بعض الشيء لهذا المرض، على الرغم من أن الطب قد واجه بالطبع مدداً أطول مع ذلك المرض. وهكذا استطاعت المياه الباردة أن تجدي نفعاً لأعصاب مريضنا المجهدة، وسَرَّعَت من شفائه.

وفي غضون عدة أيام أتم فولودين زواجه بفتاته الصغيرة وذهب ليقيم معها في شقتها المتواضعة.

ومر شهر العسل في هدوء وصفاء تام.

أما الأخ الممرض فقد استبدل بغضبه أخيراً الرحمة، بل إنه قد زار الزوجين مرتين، واقترض منهما في إحدى المرات ثلاثة روبلات دون أن يعدهما بأنه سيعيدها. وحينها قطع على نفسه وعداً بألا يحاول أن يقتل أو يضايق فولودين تحت أي ظرف من الظروف.

أما فيما يخص العمل والرزق، فقد اضطر فولودين أن يعترف بكذبه.. نعم لقد كذب قليلاً كي يختبر حبها، وهذا أمر لا يسيء إليها مطلقاً.

وحين أخبرها عن ذلك توسل إليها عدة مرات كي تخبره هل كانت تعرف أنه يكذب عن عمد، أم أنها تزوجته دون أن تدري شيئاً عن الأمر.

أخذت السيدة الصغيرة تضحك وهي مستغرقة في التفكير، وأكدت له الأمر الثاني، قائلة إنها لم تكن تعرف بالطبع من البداية شيئاً عن الأمر وكانت تخشى ألا يكون لديه شيء حقاً كي يقتاتا عليه، لكنها أصبحت واعية بعد ذلك بتبدل سلوكه. حسناً.. إنها لا تلومه على شيء، فمن حقه تماماً أن يكتشف الحقيقة بشأن الفتاة التي سيتزوجها.

وما إن سمع فولودين حديث امرأته حتى غضب على نفسه، وأخذ يدعو نفسه حماراً لأنه لم يستطع أن يوقع فتاته في الشَّرَك.

ولكن ماذا كان في إمكانه أن يفعل على أية حال؟ فقد جعله مرضه الخبيث هذا يبدو كالأحمق. لقد حرمه من طاقته وسوف يفسد رأسه. وفي ضوء ما حدث، فإنه لا يستطيع أن يتوصل إلى قرار بشكل لائق. الأكثر من هذا فإن فتاته قد تفوقت عليه بعد أن فرضت عليه هذا الوضع. ولكن كل شيء سوف يتضح في المستقبل القريب.

أما فيما يتعلق بمارجريتا جوبكيس فقد ظلت غاضبة، وحين التقت ذات مرة بفولودين في الشارع لم تجب على تحيته لها عندما أحنى لها رأسه، وأشاحت بوجهها بعيداً.

وكان لهذه الفعلة البسيطة أثرها البالغ على فولودين الذي أراد أن يجعل كل شيء في حياته في الفترة الأخيرة لطيفاً وجميلاً، وأن يعلق الحمَّام بحرية في الهواء الطلق.

وفي هذا اليوم شعر بالاضطراب بعض الشيء وقد تذكر الأحداث الأخيرة في حياته.

لم يستطع النوم ليلاً. أخذ يتقلب في الفراش واجماً خائفاً من أن ينظر صوب قرينته النائمة بجانبه.

وكانت زوجته الصغيرة قد استغرقت في النوم بشفتين مفتوحتين وأخذت تطلق شخيراً.

قال فولودين في نفسه: لابد أنها تزوجته طمعاً. لقد عرفت كل شيء، وبالطبع لم تكن لتتزوجه لو كان فقيراً. وفي قلب حزنه واضطرابه نهض فولودين من الفراش، وأخذ يسير في الغرفة ونظر من النافذة، وقد ضغط بجبهته الساخنة عليها، وأخذ ينظر إلى الرياح طويلاً وهي تهز الأشجار في الحديقة في كنف الظلام.

ثم قلق من أن تتسبب برودة الليل في إصابته بالمرض ثانية، فهرع ثانية إلى فراشه. استلقى طويلاً بأعين مفتوحة وهو يحرك إصبعه على الرسومات المرسومة على ورق الحائط.

«نعم.. قطعاً عرفت أني كنت أكذب عليها» هكذا أخذ يفكر ثانية وهو يسقط في النوم.

وفي الصباح استيقظ سعيداً مطمئن القلب بعد أن توقف عن التفكير في مثل تلك الأفكار الحمقاء. وعندما كان فكر فيها، يتنهد ويلوح بيديه، مردداً في نفسه بأن لا أحد يفعل أي شيء من دون منفعة.

1929

الحمَّام العام

يقولون أيها المواطنون إن الحمَّامات العامة في أمريكا رائعة.

المواطن هناك، على سبيل المثال، يأتي ويضع ثيابه الداخلية في صندوق خاص، ثم يذهب ليغتسل كما يشاء. لن يكون لديه أي داعٍ حتى للقلق، فلن تحدث سرقة أو اختفاء، بل إن الشخص لا يكلفُ نفسه هناك عناء فحص السلة والتأكد من وجود ثيابه.

ولكن قد يقول أحد الأمريكيين القلقين لرجل البطاقات:

- راقب ثيابي يا جودباي[54].

هذا كل ما في الأمر.

ويذهب الأمريكي ليغتسل، ثم يعود ويسلمونه ثيابه الداخلية النظيفة مغسولة ومكوية، وسيجدها بيضاء أنصع من الثلج. وسيجدهم قد أصلحوا سراويله الداخلية وحاكوا أي تمزق بها.. يا لها من حياة!

الحمَّامات لدينا أيضاً ليست سيئة، لكنها أسوأ من هناك. مع أنك قد يمكنك أن تغتسل فيها!

المشكلة الوحيدة التي لدينا في حمَّاماتنا هي موظفو البطاقات. في السبت الماضي ذهبت إلى الحمَّام، فليس بإمكاني على أية حال

---

(54) في الأصل الروسي كتب زوشينكو اسم الخادم جودباي GoodBye بحروف روسية.

السفر لأمريكا والذهاب إلى حمَّام هناك. سلمني موظف البطاقات بطاقتين: الأولى لثيابي الداخلية والأخرى لمعطفي وقبعتي.

وأين يمكن لرجل عارٍ أن يضع البطاقات؟ بالطبع ليس لديه مكان، فليست لديه جيوب. كل ما لديه بطن وساقان. يا لهذا الهراء! لا يمكن للمرء أن يربط البطاقات في لحيته!

ربطت البطاقتين حول ساقي، حتى لا أفقدهما، ودخلت الحمَّام.

والآن تصطدم البطاقات بقدمي. أمر غير مريح أن يسير المرء على هذا الوضع، لكن ما العمل! ثم يتوجب على المرء أن يجد دلواً. فدون الدلو كيف يمكن للمرء أن يغتسل؟ مستحيل.

أخذت أبحث عن دلو. وجدت أحد المواطنين يستخدم ثلاثة دلاء: يقف في واحد ويغتسل بآخر، ويستند بيده اليسرى على الثالث كي لا يأخذه أحد.

حاولت أن أجذب الدلو الثالث صوبي، لكن المواطن لم يتركه يفلت من يده.

- لماذا تسرق دلواً ليس لك؟ لن يعجبك الأمر إن ضربتك به بين عينيك.

فقلت له:

- لسنا في العهد القيصري حتى تضربني بالدلو. يا لك من أناني! يريد الآخرون أيضاً أن يغتسلوا.. لسنا في مسرح.

فأشاح بوجهه بعيداً وأكمل استحمَّامه.

قلت في نفسي وماذا سيجدي أن أراقب سلوكه. سيظل يغتسل عمداً لمدة طويلة قد تصل لثلاثة أيام.

وابتعدت عنه..

وبعد ساعة لمحت عجوزاً يتثاءب، حاملاً في يده دلواً. كان يحني جسده فوقه. ربما يغتسل فقط، أو أنه قد غرق في حلم يقظة.. لا أعلم.. لكني أخذت منه الدلو.

حسناً.. أخيراً لديَّ الآن دلو، ولكن لا مكان لأجلس فيه. ظللت واقفاً أغتسل. يا له من غُسل! الأمر هكذا مستحيل.

حسناً.. عليَّ أن أقف هكذا وأغتسل ممسكاً بالدلو في يدي.

ويا للسماء! كان الاغتسال يجري من حولي بشكل طبيعي. أحدهم يغسل سرواله، وآخر يحك سراويله التحتية، وثالث يعتصر شيئاً ما. باختصار.. لا يمكنك أن تغتسل وسط كل هذه القاذورات. اللعنة على هؤلاء الأوغاد. ويا للضوضاء التي كانت تنتج عن الاغتسال! ليس بإمكاني أن أغتسل! لا يمكنني حتى أن أسمع أين أفرك جسدي الآن! أمر مستحيل!

قلت في نفسي: اللعنة! سوف أنهي استحمَّامي في المنزل.

عدت إلى غرفة الثياب مجدداً، وسلَّموني ثيابي مقابل البطاقات التي كانت معي، ونظرت فإذا كل شيء موجود عدا سروالي.

قلت:

- أيها المواطنون.. ستجدون سروالي واضحاً، فهناك ثقب به، فأين هو؟

فأجابني الموظف:

- نحن لا نراقب الثقوب هنا.. لسنا في مسرح!

حسناً.. لا يهم السروال.. المهم المعطف. لم يعطوني المعطف. يطالبونني بالبطاقة، وقد نسيتها حول قدمي. عليَّ أن أخلع ثيابي ثانية. خلعت سروالي الداخلي وبحثت عن البطاقة، ولم أجدها. كنت قد ربطتها هنا حول قدمي، لكنها غير موجودة. لابد أني قد

فقدتها. أعطيت الموظف الخيط الذي ربطت به البطاقة حول قدمي فلم يقبل.

- لا نقبل بالخيط.. أي مواطن يمكنه أن يأتي بخيط، ولن تكفي الخيوط حينها المعاطف. انتظر حتى يُنهي المواطنون اغتسالهم ويأخذوا معاطفهم، وسأعطيك المعطف الذي سيتبقى.

قلت له:

- وماذا إن لم يتركوا لي سوى قطعة مهترئة أيها الأخ العزيز؟ لسنا في مسرح. أعطني ما يوافق مقاسي. ستجد بمعطفي جيباً ممزقاً، ومن الناحية الأخرى ما من جيب. فيما يتعلق بالأزرار فستجد الزر العلوي، ولن تجد أي أزرار بالأسفل.

في النهاية أعطاني المعطف ولم يأخذ الخيط.

ارتديت معطفي وخرجت إلى الشارع، ثم تذكرت فجأة: لقد نسيت الصابون.

عُدت مجدداً، ولم يسمحوا لي أن أدخل ثانية مرتدياً معطفي.

- اخلع المعطف.

- لا يمكنني أيها المواطنون أن أخلع ثيابي للمرة الثالثة. لسنا في مسرح. على الأقل أعطوني إذن ثمن الصابون.

لكنهم لم يعطوني إياه.

حسناً.. ليس ضرورياً.. سأذهب من دون صابون.

بالطبع قد ينتاب القارئ الفضول، ويسألني: أي نوع من الحمَّامات هذا؟ أين هو؟ وما عنوانه؟

أي نوع هو؟! إنه من النوع العادي، الذي يمكنك دخوله بعشرة كوبيكات.

المرضى

يعد الإنسان نوعاً غريباً من الحيوانات. لا.. لا يمكن أن يكون قد انحدر من القرود. لابد أن هذا العجوز المدعو داروين قد بالغ قليلاً في هذه المسألة.

إن الإنسان يتصرف بطريقة - إن جاز التعبير - إنسانية تماماً. لا تتطابق تصرفاته مع عالم الحيوان في شيء. فإن انخرطت بعض الحيوانات في حديث ما - أياً كانت لغتهم - فلا يمكنهم أبداً أن يتحدثوا حديثاً كذلك الذي استمعت إليه مؤخراً.

كان هذا الحديث في العيادة، في غرفة الاستقبال. أذهب إلى هناك مرة في الأسبوع لأتداوى من مرضي الداخلي. يقوم بعلاجي الطبيب أوبشكين، وهو طبيب جيد ومتفهم، يعالجني منذ خمسة أعوام، ولم تسُؤ حالة مرضي أبداً.

وهكذا ذهبت إلى العيادة، وكان دوري السابع بين المرضى. ما باليد حيلة.. علينا الانتظار.

وهكذا جلست على الأريكة في الردهة وانتظرت.

ثم تناهى إلى سمعي حديث بعض المرضى. كان الحديث خافتاً إلى حد ما، والأصوات خفيضة وما من عراك أو جدال عنيف.

كان هناك أحد الرجال كبار السن ممتلئ الوجه يرتدي معطفاً، ويقول للجالس بجواره:

- اسمع يا عزيزي: ليس الفتق مرضاً خطيراً.. كل ما في الأمر أنك ستبصق ثم تمسح.. بإمكانك بالطبع أن ترى أن وجهي سميناً بعض الشيء. لست أقل مرضاً منك.. لديَّ مرض بالكلية.

وأجابه جاره بلهجة مستاءة بعض الشيء:

- ليس لديَّ فتق فقط، بل إن رئتيّ قد أصبحتا واهنتين، وبعض الأورام أيضاً حول أذني.

فأجاب الأول:

- سيان.. كيف يمكنك أن تقارن هذا بمرض الكلية؟!

وفجأة قالت إحدى السيدات التي كانت تنتظر هناك، وهي ترتدي ثياباً من الفانيلا:

- مرض الكلية ليس خطيراً. أعرف امرأة عزيزة من أقاربي كانت لديها كلية مريضة، ولم يحدث لها شيء. بل إنها كانت قادرة على أن تحيك الثياب وتكويها. أما بالنسبة لتورم وجهك فهو أقل خطورة أيضاً. لا يمكن أن تموت من مرض كهذا.

أجاب العجوز:

- لا يمكنني أن أموت؟ أسمعت هذا؟ تقول إنه لا يمكن أن أموت من مرض كهذا! يبدو أنكِ تفهمين أموراً كثيرة أيتها المواطنة! وهكذا تزجين بأنفك في مناقشات طبية!

أجابت المواطنة:

- إني لا أقلل من شأن مرضك أيها الرفيق، فهو مرض حقيقي، لكني أقول لك إن مرضي ربما يكون أخطر من كليتك المريضة. أنا مصابة بالسرطان.

- حسناً.. إنه سرطان.. الأمر هنا يتوقف على نوعه. فهناك أنواع من السرطان ليست خطيرة البتة، بل ويمكنك أن تشفي منها في غضون ستة أشهر.

وفي تلك اللحظة شحب وجه المواطنة وبدأ يرتعش من هذه الإساءة المفاجئة ثم أخذت تُلوِّح بيديها وهي تقول:

- سرطان يُعالج في ستة أشهر؟ أتسمعون ما يقول؟ لا أعرف أي سرطان هذا الذي تتحدث عنه! كل ما جنيته من مرضك أن تورم وجهك بعض الشيء!

وأراد العجوز أن يرد على إساءة المواطنة له هو الآخر بطريقة ملائمة، لكنه لم يفعل شيئاً سوى أن لوَّح بيديه وأشاح بوجهه بعيداً عنها. وفي تلك اللحظة ابتسم أحد المواطنين المنتظرين وقال:

- أود أن أعرف بما تثرثرون حقاً أيها المواطنون؟

نظر المرضى إليه ثم أخذوا ينتظرون أدوارهم في صمت.

1930

عندما تستعيد صحتك

إن القرم لؤلؤة حقيقية. عندما ترى العائدين منها، لا يمكنك إلا أن تندهش. هذا يعني أن عجوزاً ضعيفاً يذهب إليها، ثم يعود فلا يمكنك أن تتعرف عليه. الأمر يشبه صورة قد هبَّت فيها الروح. الأمر بشكل عام يدعو إلى الفرح وتكوين رؤية للعالم.

باختصار.. القرم هو المكان المناسب لازدهار الحالة الصحية.

سافر أحد الرفاق الذين يعيشون معنا في نفس الساحة ويُدعى سريوجا بيستريكوف إلى هناك.

في السابق كانت شخصيته ضعيفة. ويؤكد ذلك من يعرفون سريوجا، فشخصيته لا تنطوي على أي نوع من التأجج وليست لديه رؤية للعالم.

أما المواطنون الآخرون في المنزل فعلى الأقل يبتهجون في أيام الأعياد. يلعبون ويشربون ويلهون. إنهم يعيشون بشكل عام حياة ملء القلب، ولذا فهم يتمتعون بصحة كاملة كالشياطين.

أما هذا الشخص فيعود منهكاً من العمل لينام على بطنه فوق إفريز النافذة وينغمس في قراءة الكتاب الذي أمامه. إنه لا يذهب كي يتنزه. لا يمكن لجهازه البدني أن يجعله يخرج ليتنزه قليلاً كما ترون ويستمتع ليوم.

بالطبع لا يشرب الخمر ولا يدخن، ولا تثير النساء اهتمامه. باختصار إنه يستلقي على إفريز نافذته حتى يتعفن هناك.

هكذا كان يحيا حياة غير صحية!

اعتقد الأقارب أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام معه. حاولوا أن يجعلوه يسافر في رحلة إلى القرم، فهو لا يستطيع أن يقوم بالأمر بنفسه.

عارض الرجل كثيراً لكنه في النهاية ذهب إلى هناك.

أبقوه هناك شهراً ونصفاً. جعلوه يسبح هناك ونثروا على قدميه بعض الماء.

في النهاية عاد من هناك، ووصل إلى منزله.

يمكنكم أن تصيحوا عالياً من فرط الدهشة. الوجه قد اسمرَّ بالطبع وتورم. الأعين متوهجة، والشعر منتصب، وقد تلاشى كل جنونه تماماً.

في الماضي لم يكن هذا قادراً على إبعاد حشرة عن مكانها، لكنه فور أن وصل، قام في اليوم الأول بتحطيم وجه فيودور البواب لأنه لم يراقب الخشب الموجود في السقيفة جيداً، وقد سُرِق.

أراد أيضاً أن يطلق النار من مسدسه على مدير البيت بسبب مقدار ضئيل من المال، وأبعد كل السكان الذين تجمعوا من حوله يستعطفونه ألا يفعل ذلك.

حسناً.. لا يمكننا الآن التعرف عليه كما ترون. لقد عادت إليه صحته كاملة. لقد برئ تماماً من كافة أمراضه.. لقد قاموا بعمل رائع حقاً.

بدأ الرجل في شرب الخمر بسبب صحته القوية. لم يكن يترك فتاة واحدة تمر بجانبه، وقد أثار عدداً لا يحصى من الفضائح.

إن القرم لؤلؤة حقيقية. كم يتجدد فيها الإنسان!

هناك مشكلة واحدة بالأمر، وهي أن سريوجا بيستريكوف سوف يُفصل من عمله، لأنه يترك العمل ويذهب ليمرح ويلهو.

كم أنتِ عظيمة أيتها الصحة!

1926

ثلاثة قلوب

دعوني أقص لكم قصة حقيقية مثيرة:

كان أحد المهندسين بليننجراد يكنّ حباً كبيراً لزوجته. إن أردنا أن نصف الأمر بطريقة أخرى فسنقول إنه كان يتعامل معها بلا مبالاة بعض الشيء، لكنها عندما هجرته شعر في داخله بحب مضطرم صوبها، وهذا يحدث في بعض الأحيان مع الرجال.

هي لم تكن تحبه كثيراً، وعندما كانت في هذا العام تقضي بعض الوقت في أحد منتجعات شواطئ البحر الأسود، انخرطت هناك تماماً في قصة حب عابرة مع أحد الفنانين.

وبعد أن عرف الزوج الأمر وصل فجأة إلى المكان والغضب يملأ صدره، وعندما عادت إلى المنزل، بدلاً من أن يفترق عنها أو حتى يصالحها أخذ يمزقها بمشاهد غيرته، يسيء إليها يوماً تلو الآخر بملحوظات فظة وقاسية حول علاقاتها مع الآخرين وما إلى ذلك.

أما هي فلم تفعل شيئاً سوى أن تقرر الرحيل.

وفي أحد الأيام الرائعة عندما خرج الزوج ذاهباً إلى عمله، ولعدم رغبتها في إعطاء عذر أو تفسير، أو حتى تضخيم الأمر، أخذت حقيبتها من خزانة الثياب ورحلت لتقيم عند إحدى صديقاتها كي تعيش هناك مؤقتاً حتى تجد وظيفة وشقة.

وفي نفس اليوم التقت بصديقها الفنان وحكت له عما جرى معها.

أما فنان النقش والألوان وبعد أن عرف أنها فارقت زوجها أصبح يلتقيها ببرود، هذا إن التقاها من الأساس، بل إنه استطاع أن يعلن عن وقاحته، وقال إن المرء يشعر شعوراً ما في الجنوب، وفي الشمال يراوده شعور آخر، وإن الأمور والعلاقات تبدو في المنتجعات مثيرة أكثر من حقيقتها بخمس مرات في الظروف العادية.

لم يتعاركا، بل ودعا بعضهما - وأقل ما يقال - بطريقة باردة.

في هذه الأثناء، وبعد أن عرف الزوج أن زوجته تركت البيت وأخذت معها حقيبتها، وصل إلى منزله حزيناً مكلوماً. الآن فقط فهم كم كان يحبها بحرارة!

هرع إلى كافة أقاربها، ومر على كافة البيوت التي يمكن أن تكون فيها كما يعتقد، لكنه لم يجدها في أي مكان.

وتحول يأسه العاصف إلى نوبة من الجنون؛ بل إنه أراد أن يشنق نفسه، وهذا ما أعلنه في حديث خاص مع صاحب المنزل الذي يقطن فيه.

أما الرجل وقد كان مهتماً في الأساس بمستقبل شقته التي أجرها له، فقد أسرع بزيارته كي يحذره من الإقدام على مثل هذه الخطوة المريعة. قاله له:

- إن بنايتنا فازت بالمركز الأول في مسابقة الحي لأفضل البنايات، وسنكون في غاية الحزن إذا قمت بفعل مكروه ما لنفسك. لو كان لديك نشاط اجتماعي كذلك الذي لديَّ، لكنت قد تَصَرَّفت من دون أن تفعل مكروهاً لنفسك.

وعندما رأى الرجل أن كلامه لم يؤثر في المهندس بشيء قاله له:

- أنت تعيش محبوساً داخل عالمك الضيق الخانق، ولهذا فإن معاناتك عظيمة. عليك أن تتعلم أمراً جديداً وهو أن تتحلى بالصبر. إن كنت تريد فسأمضي بعيداً معك في الأمر، ولكني الآن أقدّم لك نصيحة جيدة: انشرْ إعلاناً في الصحيفة، وليكن كما يكتبون عادة في مثل هذه الظروف: أحبك وأذكرك.. عودي إليَّ.. أنا لكِ، وأنتِ لي.. إلخ. وعندما ستقرأ هذا ستظهر فوراً لا محالة، فقلب المرأة لا يمكنه أن يقاوم ذلك.

تركت هذه النصيحة صدى داخل روح المهندس المكلومة، وبآخر ما لديه من قوة نشر هذا الإعلان سريعاً: «ماروسيا.. عودي إليَّ. لقد سامحتك على كل شيء».

وأضاف إلى هذه العبارة الكلاسيكية بعض السطور التي ترك نفسه فيها تعبر عن معاناتها، لكن مكتب التحرير أزالها لئلا تثير نوعاً خاصاً من الشفقة وتبدو كنغمة ناشزة وسط بقية الإعلانات.

دفع المهندس مقابل هذا الإعلان خمسة وثلاثين روبلاً، لكنه عندما دفعها أثار اهتمامه التاريخ وشعر بالهلع عندما عرف أن إعلانه سوف يُنشر بعد خمسة عشر يوماً.

غضب غضباً شديداً وظل يوضح لهم أنه على عجلة جداً من الأمر، وأنه لا يستطيع الانتظار طويلاً، واحتراماً لحزنه الشديد خفضوا المدة إلى أربعة أيام وحددوا موعد نشر الإعلان في الأول من أغسطس.

في أثناء هذا، وفي اليوم التالي من نشر الإعلان جاءت زوجته إليه في السكن حتى تُزيل اسمها من سجل السكن. وشعر بالسعادة لرؤيتها ثانية ومن سنوح الفرصة له كي يُوضّح لها الأمر.

قال لها في غياب مدير المنزل:

- كنت أمسك نفسي لسبعة أعوام عن تسجيل اسم والدتك الكريمة كي تحيا معنا في الشقة، ولكن طالما أنكِ قد عدتِ، فسوف أسجل اسمها كي تأتي وتعيش معنا.

ووافقت زوجته على العودة، لكنها أرادت أن يسجل أيضاً اسم شقيقها، لكنه ثبت على موقفه ووافق فقط على تسجيل اسم والدتها التي وصلت حرفياً في غضون عدة ساعات إلى المكان.

ومر كل شيء على ما يرام ليومين أو ثلاثة، لكن الزوجة تصرفت بتهور وعادت لتلتقي ثانية بالرسام.

وبعد أن عرف الرسام أنها قد عادت لزوجها أبدى لها رقة ولطفاً استثنائيين، وقال إن مشاعره عادت لتضطرم كما يحدث في الجنوب، وإنه الآن سوف يحزن جداً ويعاني ثانية من أنها تقضي كل وقتها الآن مع زوجها لا معه.

وقضيا الليل بطوله سوياً شاعرين بالسعادة والرضا على أكمل ما يكون.

أما الزوج فشعر بالقلق من انتظارها لمدة طويلة دون أن تظهر، وخرج مسرعاً ليبحث عنها، وما إن وصل إلى البوابة حتى رأى الرسام ممسكاً بيد زوجته.

وهناك اندلعت دراما عائلية أكثر صخباً من تلك التي حدثت قبل ذلك، فقد اشتركت والدة الزوجة التي تبلغ من العمر خمسة وستين عاماً في الأحداث، ولعبت دوراً مهماً.

وحينها فارقت الزوجة زوجها ثانية، وهي تحت تأثير الكلمات الحارة للفنان، وذهبت إليه قائلة له إنها يمكنها أن تمكث معه إن كان يريد ذلك.

ولكن الفنان لم يعرب عن رضاه عن تلك العاطفة الحارة وقال لها إنه إنسان متقلقل، فاليوم يعتقد في شيء، وغداً في آخر، وإن الحب شيء والزواج شيء آخر، وإنه تلزمه مدة لا تقل عن عام كي يفكر في تلك الخطوة ويتخذ قراراً حاسماً.

حينها تشاجرت الزوجة مع الفنان وذهبت لتقيم عند صديقتها التي وجدت لها وظيفة سريعاً لتعمل في مصحة نفسية.

في هذه الأثناء، وبعد أن ظل الزوج حزيناً مكلوماً لعدة أيام، شعر فجأة بالعزاء يغمر قلبه بعد أن التقى فجأة بصديقة طفولته.

كانا صديقين مقربين في الماضي، أما الآن وقد وجد الزوج نفسه وحيداً، شعر صوبها بانجذاب عاطفي كبير واقترح عليها أن تنتقل لتعيش معه.

سعدت بسماع هذا منه، فقد وصلت منذ فترة قريبة من روستوف، وكما يقولون لن تواجه بهذه الطريقة مشكلة في العثور على سكن.

بشكل عام، مر أحد عشر يوماً منذ أن نُشر ذلك الإعلان سيئ الطالع. نسي الزوج نفسه الأمر، ولم يعد يفكر فيه، أما الزوجة التي كانت معذبة عند صديقتها تصادف أن قرأت الإعلان وشعرت بذهول وفرحة شديدين.

قالت في نفسها: «لكنه يحبني حباً استثنائياً في كل الأحوال. إني أرى المعاناة في كل شيء من حولي، وطالما الرسام شخص وقح بهذا الشكل فعليَّ إذن أن أعود إلى زوجي.. إني مذنبة لأني تعاملت بهذه الخفة مع شخص قد تعرفت عليه في المنتجع».

ولن نزعج القارئ بمزيد من الأوصاف والتفاصيل. سنقول فقط إنه عندما وقعت الجريدة في يد الزوجة كان لها تأثير القنبلة المدوية.

أما الزوج الذي ظل حائراً بين المرأتين، يهرع من واحدة للأخرى، لم يستطع أن يعطي تفسيراً لائقاً لما حدث.

قالت له زوجته بازدراء إنها لولا هذا الإعلان لما خطت بأرجلها عتبة هذا البيت البورجوازي البائس، أما صديقته التي من روستوف فبعد أن انتحبت قالت له إنها لا تريد أن تزيد من حزن قلبه المكلوم بحضورها، وإنه طالما قد أعرب عن عواطفه بنشر هذا الإعلان القوي الاستثنائي، فإنه ينتظر بالطبع نتيجةً ما له.

باختصار تعانقت المرأتان بود، وغادرتا منزل المهندس، عازمتين ألا تعودا إليه ثانية.

وما إن عرف مدير المنزل عن بلية المهندس الجديدة التي حدثت في المنزل حتى قال له:

- إن كل شيء على ما يرام في بيتنا، بل وفاز البيت بالمركز الأول، والإصلاحات جرت فيه في موعدها المحدد. وهناك توافق كامل في الرأي بين السكان حول القضايا الرئيسية. أنت الوحيد الذي تحمل كل هذا الخلط والهراء إلى حياتنا الهادئة. عُد إلى منزلك الآن وتَصَرَّف كما يحلو لك، فإعادة تربيتك من جديد تصيبني أنا أولاً بالجنون.

وبعد أن ظل في الشقة بصحبة حماته سقط المهندس في نوبة يأس مريعة، ولم يكن يعرف ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تعد صديقته من روستوف إليه في المساء. وبذلك أظهرت أن قلبها لم يكن قاسياً مثل زوجه.

والحقيقة أنه في اليوم التالي أرادت الزوجة أن تعود إليه مرة أخرى، ولكن عندما عرفت من والدتها أن تلك المرأة الريفية من روستوف قد سبقتها، ظلت عند صديقتها.

سريعاً انغمست كاملاً في العمل في مصحتها النفسية، ولم يمر وقت طويل قبل أن تتزوج من أحد الأطباء النفسيين الذين يعملون في المصحة، وهي الآن راضية وسعيدة تماماً. أما الفنان، وعندما عرف أنها تعيش الآن في سعادة فهنأها من قلبه على حياتها الجديدة، وتنهد طالباً منها أن تسامحه على ما بدر منه.

هدأت القلوب الثلاثة بشكل عام بعد كل ما مرت به من عواطف قوية.

أما القلب الرابع؛ قلب الفنان، فعلينا أن نتأكد أنه لا يشارك أبداً في قصصنا الحقيقية عن العواقب الوخيمة لروايات المنتجعات.

وفيما يتعلق بالإعلان المنشور في الجريدة، فالتأخير في الرد عليه يشير إلى أنه لا أحد يلبي متطلبات الحياة. فعلينا في هذا الأمر أن نسرع على الأقل ستة أضعاف.

1937

أضواء مدينة ضخمة

وصل والد أحد السكان الذين يقطنون معنا في الشقة المشتركة من الريف.

لقد جاء بالطبع بسبب مرض ابنه. ولو لم يكن ذلك قد حدث لما رأى مدينة لينينجراد حتى آخر يوم في حياته، ولكن طالما أن ابنه قد أصابه المرض فكان عليه إذن أن يحضر، وها قد جاء.

كان ابنه ساكناً معنا، يعمل نادلاً في أحد المطاعم ويتمتع بسمعة حسنة.

وربما قد عمل بجدّ في المساء فسخنت حرارة جسده، ثم خرج إلى الشارع، وسار عائداً صوب المنزل فأصابه البرد بالطبع بسبب انهماكه في أعماله المطبخية إن جاز التعبير. في البداية أصيب برشح في الأنف وأخذ يعطس لسبعة أيام. ولكن بعد ذلك وصل المرض إلى صدره وارتفعت حرارته فجأة ووصلت إلى أربعين درجة.

بالإضافة إلى ذلك، وبسبب أنه قد أراد أن يقضي يوماً واحداً من العطلة بطريقة ثقافية، سافر إلى بافلوفسك كي يزور القصور التي هناك، وهناك أنهك نفسه وهو يساعد زوجته في الدخول إلى عربة القطار.

وعندما نأخذ كل ذلك في الاعتبار فسنحصل على صورة حزينة لإنسان يمرض وهو في أوج قوته.

ولأنه لديه وسواس من المرض من الأساس، كان نادلنا المسكين على ثقة بأنه لن يتعافى أبداً من مرضه، ولن يعود - كما يقولون - للوفاء بواجباته المباشرة.

وفي أثناء هذا دعا والده كي يأتي إليه في لينينجراد ليودعه الوداع الأخير.

لم يفعل هذا لأنه يكنُّ حباً جارفاً لوالده، ويريد أن يراه في أيامه الأخيرة؛ بل على العكس.. لم يكن يهتم به على الإطلاق طوال أعوامه الأربعين، بل ويتعامل معه بغير مبالاة كاملة. ولكن عندما رأت زوجته أن درجة حرارته قد ارتفعت إلى هذا الحد أسرعت بدافع من احترام الذات إلى إرسال برقية إلى والده كما يفعل الآخرون، وكتبت له فيها: «ابنك مريض.. تعال إلى لينينجراد».

وعندما بدأ الابن بالفعل في التعافي، وصل - ويا للعجب - والده إلى لينينجراد من مكان بعيد جداً، حاملاً حقيبة على ظهره، متكئاً على عصا. والحقيقة كما اتضح بعد ذلك فإن الشيخ كان يحمل حذاءه في حقيبته، لكنه رفض أن يرتدي الحذاء من ناحية المبدأ قائلاً: «كلٌّ يهتم بما هو نافع له.. الغني بحسبه ونسبه، والفقير بما يحتاج إليه من ثياب».

ظن الجميع - بما فيهم الابن طبعاً - أن الأب سيكون شيخاً متواضعاً متديناً نوعاً ما، في السبعين تقريباً من العمر، يتحدث بلغة ورعة، خائفاً من كل شيء، ولكن اتضح العكس تماماً.

اتضح أن العجوز يحب افتعال الشجار بين الحين والآخر، وإثارة كثير من الفضائح، وأنه غليظ سفيه. بالإضافة إلى ذلك لم يتوقف

الأمر على أنه كان من المناهضين للثورة فقط، بل اتضح أنه رجعي بشكل استثنائي فيما يخص آرائه السياسية.

فور أن مر بساحة المنزل سبَّ البواب، وشدَّ أذني أحد المراهقين الذي كان في زيارة لعمه الذي يقطن هنا منذ اثني عشر عاماً.

وكان يتجادل بحدة مع مدير المنزل حتى إن الأخير تعجب من هذا السلوك المعاصر الذي رآه في الأب وأراد أن يرسل تقريراً إلى مكان سكنه.

وتوج كل ما سبق أن جعل الأب الوافد حديثاً ابنه يخاف عندما عرف أن الأب أرسل طلباً رسمياً على الفور ليستعلم ما إن كان هناك مكان له كي يقيم بشكل دائم في لينجراد أم لا.

بالطبع كانت شخصية الأب في الحقيقة جيدة في حد ذاتها، لكن منذ يوم وصوله بدا له أن كافة السكان بالمكان ليسوا من نفس مستوى ثقافته. بدؤوا جميعاً بالسخرية منه وإلقاء النكات عليه كما لو أنه مجرد أحمق، وأخذوا يسخرون من طريقة سلوكه القروية. وحاول كل منهم أن يقول له بعض الهراء مثلما كان البواب يقول له بصوت عال في كل مرة يلتقيه فيها: من أي مزرعة جماعية أتيت أيها الشاب؟

وبالطبع لم يتخلف ابنه النادل عن تلك الموجة العامة، فقال له عامداً في إحدى المرات، وهو يكاد يختنق من الضحك بينما ينظر إلى الجريدة:

- لا تخرج اليوم إلى الشارع يا بابا فسيشنون غارة على من لديهم شعر أشيب أو مائل إلى الحمرة.

حدث كل ذلك بالطبع بلطف ودون سوء نية، ولكن على أية حال لم يلق العجوز خيراً منذ أن وصل، وهو الذي وصل به العمر

إلى العام الثاني والسبعين، وكان قطعاً أذكى من الجميع معاً. وهم اعتقدوا أنه عجوز أشيب الشعر مغفل أحمق، وعلى هذا الأساس تعاملوا معه.

وكان لذلك تأثير سلبي بالطبع على سلوكه.

وكلما تطول أيامه في المكان كان يثير الفضائح، ويعلو الصراخ وتثار المشاهد الفظة وما إلى ذلك.

وما زاد على كل ذلك أنه في اليوم السابع لوصوله سكر من شرب الجعة وأثار جلبة كبيرة في المكان، حتى إنهم أرادوا استدعاء الميليشيا.

وخرج إلى الشارع، وأخذ ينشد الأغاني. كان عجوزاً يرتدي ثياباً قروية خرقاء إلى أقصى حد. أخذ يسير في الشوارع، وفجأة اكتشف أنه ضل طريقه.

بالطبع ليس من المعقول أن يضل طريقه، والأهم من ذلك أنه لديه العنوان، ولكن في وسط حالة السكر التي كان فيها انتابه الخوف.

سأل أحد المارة عن الطريق، لكن الأخير لم يكن يعرف العنوان، وأخبره بأن يسأل أحد عناصر الميليشيا.

بالطبع خاف شيخنا العجوز أن يقترب من رجل الميليشيا الواقف ليؤدي عمله، ومن فرط اضطرابه تعثر فوق كتلتين حجريتين.

ثم اقترب من الرجل بهلع، وهو يعتقد أن الأخير سيطلق صافرته ويصيح فيه.

ومع ذلك قام رجل الميليشيا بما قد تدرب عليه وحيّا الرجل العجوز رافعاً يده بقفازها الأبيض لتلامس قبعته.

وأعد العجوز نفسه للفضيحة كما اعتاد، وفقد شجاعته بعض الشيء من المفاجأة وتمتم بكلمات عديدة لا علاقة لها بمراده.

أما الرجل وبعد أن سأل العجوز عن اسم الشارع الذي يريد أن يذهب إليه أشار له بالاتجاه، وحياه ثانية وعاد ليمارس عمله.

هذه الفعلة البسيطة التي تنم عن الاحترام واللطف، والتي كانت توجه ذات يوم للجنرالات والبارونات كان لها تأثير ساحر على عجوزنا.

ارتعش العجوز عندما حياه رجل الميليشيا للمرة الثانية، وبهذه الطريقة اتضح أنه ما من خطأ، وأنه لا داعي للخوف.

ثم توجه العجوز لرجل ميليشيا آخر، وتلقى تحيته مرة ثانية، وتركت ثانية انطباعاً عميقاً على روحه الضعيفة.

بالطبع أنا لا أعرف ما إن كان ذلك له تأثير سريع على شخصية مثل شخصيته أم لا، ولكن الجميع لاحظوا أن العجوز قد عاد إلى منزله في أعلى درجة من درجات الرزانة، وبينما كان يمر من أمام البواب، لم ينخرط معه في تلك الجدالات المعتادة، بل حيّاه في صمت وأكمل طريقه.

لا أعرف ما إن كان يمكن لحادثة بسيطة كهذه أن تلعب دوراً مهماً بهذا الشكل في إعادة تشكيل الشخصية أم لا، ولكن الجميع قد لاحظوا أن شيئاً ما أصيلاً حتى أعلى درجة قد حدث مع والد جافريلوف.

ولاحظ البعض كيف يذهب إلى رجل الميليشيا عند زاوية الشارع بجانب المنزل ويتحدث معه بأدب جم.

وقد لاحظ كثيرون من الأفظاظ هذا التغيير وعزوه إلى الهلع الذي أصابه عندما أرادوا تسليم العجوز للميليشيا، ولكن البعض فسّر الأمر بطريقة أخرى.

قال أحد المثقفين القاطنين في شقتنا، وكان يعاني من مرض السكر عن ذلك:

- طوال الوقت وأنا أؤكد وجهة النظر التي تعتقد أنه عندما نتعامل مع الشخصية الإنسانية باحترام وإطراء ولطف، فسنصل إلى نتائج استثنائية. وقد تفتح كثير من الشخصيات حرفياً من هذا كالوردة مع شروق الشمس.

ولم تتفق الغالبية مع وجهة نظره، بل وقد ثارت مناقشة في شقتنا ولم نصل إلى نتيجة.

وبعد ثلاثة أيام تقريباً قال الأب لابنه جافريلوف إن هناك أموراً عاجلة تحتم عليه أن يعود سريعاً إلى قريته.

أراد بعض سكان شقتنا أن يخففوا من وطأة السخرية التي سخروا بها منه، فذهبوا معه إلى محطة القطار ليودعوه.

وعندما تحرك القطار كان الأب واقفاً على باب العربة وهو يقدم تحية الوداع للجميع.

وانفجر الجميع ضحكاً.. وذهب كل منهم إلى وجهته.

ولابد أن بعض اللطف سوف يصاحب العجوز في علاقاته هناك بالقرية، ولذلك فستكون حياته هناك أكثر إشراقاً وسعادة.

1936

العرض المائي الرائع

ذهب أحد السينمائيين من موسكو إلى لينينجراد في مهمة عمل. أقام في فندق «أوروبا».

كانت غرفته رائعة ومريحة، تحوي فراشين، وحمَّاماً وسجادة ولوحات فنية، وقد جعل كل هذا من زائرنا - كما يقولون - في حالة مزاجية مناسبة كي يلتقي بالناس ويقضي وقته بسعادة.

بشكل عام بدأ الأصدقاء والمعارف في التوافد إلى زيارته.

وكما يحدث دائماً؛ بعض معارفه الذين كانوا يمرون عليه كانوا يستخدمون حمَّام غرفته، فهناك الكثيرون ممن يعيشون في شقق دون حمَّام، ولا يحب الجميع أن يذهبوا بالطبع إلى حمَّامات عامة، أو حتى إنهم قد نسوا وجود مثل هذه الأماكن. لذا فها هي فرصة مناسبة: زيارة صديق والتحدث معه بل والتفلسف، ثم الاغتسال كما يشاء المرء. الأهم من هذا أن هناك مياهاً ساخنة بالحمَّام ومنشفة مجانية، وما إلى ذلك.

ولهذا يحب الكثيرون تلك الفرصة التي تسنح لهم عندما يزور أصدقاؤهم المدينة.

باختصار؛ في غضون خمسة أيام تقريباً شعر صديقنا الموسكوفي بالإرهاق من طابور الأصدقاء الذين يزورونه بانتظام.

لكنه تمالك نفسه بالطبع لآخر لحظة، حتى اندلعت في النهاية كارثة محققة.

في هذا المساء جاء إليه حوالي ستة من أصدقائه. أخذوا بالطبع يثرثرون حول هذا وذاك من الأمور، ولكن سرعان ما اصطف طابور منهم أمام الحمَّام.

أنهى ثلاثة منهم اغتسالهم سريعاً، وشربوا الشاي وانصرفوا.

كانت الرابعة امرأة عجوزاً، وهي من أقارب صديقنا. استغرقت وقتاً طويلاً جداً في الاغتسال بالحمَّام، بل إنها بدت أنها تقوم بغسل بعض ثيابها بالداخل.

استغرقت وقتاً طويلاً حتى إن صديقنا الموسكوفي وبقية الأصدقاء الذين كانوا في انتظار دورهم لدخول الحمَّام شعروا بالضيق الشديد. إنها بالداخل منذ ساعة وربع ولم تخرج حتى الآن.

ولكن لأنها كانت عمة صديقنا الموسكوفي فلم يسمح لأصدقائه بأي تجاوز في حقها.

باختصار، عندما خرجت من الحمَّام كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

أحد الضيوف لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك وانصرف، أما الآخر - وهو إنسان لحوح وسفيه بشكل عجيب - فكان مصراً على دخول الحمَّام اليوم بغضّ النظر عن الوقت الذي سوف يتمكن فيه من فعل ذلك، حتى يتمكن من الاغتسال من أجل هدف محدد في الغد. وهكذا انتظر العمة حتى خرجت من الحمَّام، ثم شغَّل المياه الساخنة، واستلقى على الأريكة في انتظار حوض الاستحمَّام حتى يمتلئ بالمياه.

وفي هذا الوقت غفا الرجل من فرط الإرهاق، واضطر صديقنا الموسكوفي للنوم على الأريكة.

أما المياه، وبعد أن ملأت حوض الاستحمّام خرجت منه، وأغرقت الغرفة في وقت قصير بل ووصلت حتى الطابق السفلي أيضاً، ولكن لأن هذا الطابق كان عبارة عن صالون، ولم يكن أحد جالساً فيه وقتها، لم يلحظ أحد الكارثة سريعاً.

باختصار استيقظ بطلانا من شدة الحرارة والبخار، وظن بطلنا الموسكوفي - كما روى لاحقاً - أنه يحلم بنفسه في جاجرا[55].

لكنه عندما أفاق رأى الغرفة بأكملها غارقة في المياه، وعلى سطحها يعوم حذاؤه والجرائد ومختلف الأغراض الخشبية.

لم تسمح لهما المياه الساخنة بالطبع أن يوقفا تدفقها فوراً، فهما لم يتمكنا من الوصول إلى حوض الاستحمّام كي يغلقا المحبس. جلسا على الأريكة دون أن يستطيعا أن يخاطرا بأن يغمسا أقدامهما في المياه الساخنة التي يتصاعد منها البخار.

لكنهما بعد ذلك تمكنا من تحريك المقاعد بطريقة ما وقفزا من مقعد للآخر، وتمكن صديق الموسكوفي المندهش من الوصول إلى حوض الاستحمّام وأغلق محبس المياه.

ما إن أُغلق المحبس وبدأت المياه تتسرب إلى مكان ما حتى هرع أفراد الإدارة إلى الغرفة بوجوه شاحبة.

وبعد أن فحصوا الحمّام والطابق السفلي أخذت الإدارة تتشاور على الفور مع المهندس الذي استدعوه.

(55) مدينة في أبخازيا تبعد خمسة كيلومترات عن الساحل الشمالي للبحر الأسود عند سفح جبال القوقاز، جوّها شبه الاستوائي جعلها شهيرة في روسيا في العهد القيصري لذهاب الناس إليها كنوع من المنتجعات الصحية.

وفي أثناء هذا اندلعت مناقشة حادة جداً بين صديقينا حول من هو المذنب ومن سوف يدفع ثمن الخسائر.

كان صديق الموسكوفي يتنفس بصعوبة شديدة من فرط الخوف، وقال إنه يمكنه بصعوبة أن يدفع أربعين روبلاً، ولكن أي شيء أكثر من ذلك على صاحب الغرفة أن يدفعه، فهو الذي سمح لزواره بكل تهور أن يستخدموا الحمَّام.

واندلع شجار بينهما كان يمكن أن ينتهي بصورة مؤسفة لو لم يكن أفراد الإدارة بالقرب منهما.

قال الموسكوفي بصوت مرتعش لأفراد الإدارة:

- كم ثمن الخسائر؟

أجاب أفراد الإدارة:

- كما تعرف لقد فسد بعض الأثاث بالطابق السفلي: تمثال ضخم وثلاثة تماثيل لأطفال. ولهذا فتكلفة الخسائر مرتفعة.

وما إن سمع عن التماثيل حتى ارتجف صديقنا الموسكوفي حرفياً. نظر بهلع إلى أفراد الإدارة وهمس:

- وكم سعر تلك التماثيل؟

أجاب المهندس:

- تقدر الخسائر بحوالي سبعة أو ثمانية آلاف.

وعند سماعه للمبلغ فقد الموسكوفي رباطة جأشه تماماً واستلقى على الأريكة وهو لا يفهم تقريباً ما يجري حوله.

وحينها كشف صديق الموسكوفي عن شخصيته الدنيئة. تصرف كوغد، وحاول أن يفلت بجلده - إن جاز التعبير - من الأمر، ومع ذلك فقد حال دون وقوع ذلك صديقه الضعيف لكن الأمين.

قال الموسكوفي متلعثماً للإدارة:

- ألا يمكن أن نخفض المبلغ إلى ألفين؟ لسنا على الأقل في حاجة إلى تجديد تماثيل الأطفال، فهذا لم يعد الوقت المناسب كي تكلف الفنادق نفسها بإحضار تماثيل كهذه.

أجابت الإدارة:

- لكنك تحزن وتساوم من أجل لا شيء! لن نطالبك بثمن الخسائر.

ما إن سمع هذه الكلمات حتى أغلق صديق الموسكوفي عينيه وقد اعتقد أنه غارق في حلم. ولكن أفراد الإدارة قالوا:

- أنت لا تتحمل أي ذنب على ما حدث. هذا خطأ فني. لقد صممنا صرف المياه بشكل سيئ، وهذا خطأ فني من جانبنا.

وهنا منحهما المهندس تفسيراً علمياً. قال وهو يشير إلى حوض الاستحمَّام:

- كما ترون هناك في أعلى حوض الاستحمَّام ثقب، يجب أن تتسرب منه المياه حتى لا يمتلئ الحوض عن آخره، وطبقاً للحسابات العلمية الصحيحة لا يمكن للمياه أن تتجاوز حافة الحوض أبداً، لكننا اكتشفنا هنا بعض الضعف الفني، فذلك الثقب كما ترون لا يصرف تدفق المياه سريعاً، ولهذا فنحن نتمنى أن تقبلا اعتذارنا على هذا الإزعاج. مثل هذه المواقف لن تحدث أبداً في المستقبل. سنصلح الأمر.. إنها مشكلة فنية لا مكان لها في العصور العظيمة التي نحيا فيها الآن.

وما إن سمع هذه الكلمات حتى أراد صديق الموسكوفي أن يسقط على ركبتيه حتى يشكر الإدارة والقدر، لكن صديقنا الموسكوفي لم يسمح له بفعل ذلك. قال للمهندس:

- بالطبع لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ولكن قل لي: من

سيعوضني على خسائري؟ لقد فسد حذاء السهرة خاصتي وكذلك حقيبتي، وقد يكون هناك شيء آخر قد بلي بسبب خطئكم أيضاً.

أجلب أفراد الإدارة:

- اكتب بياناً بما فسد وسنعوضك عنه.

في اليوم التالي حصل الموسكوفي على ستة وأربعين روبلاً لقاء حقيبته التالفة.

أراد صديقه أن يستغل الفرصة هو الآخر حتى يحصل على مبلغ صغير مقابل هذا الخطأ الفني، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، فلم يكن لديه الحق في أن يقضي ليلته في غرفة لا تخصه.

في اليوم التالي وصل إلى الفندق ثانية ودخل الحمَّام متجاهلاً غضب صديقه الشديد وعدم رضاه.

1935

ميشيل سينياجين
مقدمة

هذه القصة بمثابة ذكرى عن واحد من الناس، عن شاعر صغير مغمور قضى معه المؤلف عدداً من الأعوام.

وقد صُعِق المؤلف من مصير هذا الشاعر، ولهذا قرر أن يكتب سيرته الذاتية حتى يخلد ذكراه، ليس بهدف تنوير الأجيال القادمة أو ما شابه، إنما ببساطة هذا ما رغب فيه المؤلف.

لا يمكننا جميعاً أن نكتب سير العظماء الذاتية ومذكراتهم وأن نتقصى ما حدث في حيواتهم، ونكتب عن أفكارهم العبقرية ومآثرهم العظيمة. على أحدنا أن يحكي عن تجارب الآخرين، الذين يمكن أن نقوله عنهم إنهم بشر عاديون تماماً، والذين لا نجد أسماءهم - إن جاز التعبير - في كتاب الحياة المخملي الناعم.

بالإضافة إلى ذلك فحياة أولئك البشر - من وجهة نظر المؤلف - تبدو نموذجية ومثيرة للفضول إلى حد كبير. فكل أخطائهم وذنوبهم ومعاناتهم وسرورهم لا يمكنها أن تتلاشى قطعاً بسبب أن الإنسان - إن أمكن القول - لا يمكنه أن يرسم عملاً فنياً مميزاً من طراز «الفتاة حاملة الإبريق» على قطعة قماش رخيصة، ولا يمكنه

أن يتعلم أن يعزف سريعاً على البيانو، ولا يمكنه أن يكتشف نجماً جديداً في السماء سريعاً من أجل سعادة ورخاء الإنسانية.

بل إن الأمر على النقيض من ذلك، فحياة أولئك العاديين مفهومة بشكل أوضح، بل وتثير إعجاباً أكثر من التصرفات الاستثنائية وغير العادية ومن نزوات فنان عبقري مثل عازف أو مدوزن[56] البيانو. إن حياة أولئك البسطاء أكثر إثارة للاهتمام وأبسط في فهمها.

لا يعني المؤلف بذلك أنكم على وشك قراءة شيء مثير بشكل استثنائي ومدهش في درجة عاطفيته. لا.. سوف تقرؤون عن حياة متواضعة تماماً، وسيتم وصفها بشكل متعجل بعض الشيء، وبارتجال، وسيحوي الوصف بالطبع كثيراً من الأخطاء. حاول المؤلف بالطبع بقدر المستطاع بذل قصارى جهده، لكنه لم تكن لديه تلك الروح الهادئة والحب لمختلف التجارب والأشياء البسيطة كي يقدم وصفاً عبقرياً تماماً. لن تشعروا بالأنفاس الهادئة للمؤلف الذي يحمي مصيره ويعتز به في هذا العصر الذهبي. لن تجدوا هنا عبارات منمقة وجرأة ثورية وسروراً بالطبيعة العظيمة.

سوف تقرؤون هنا عن حياة بسيطة حقيقية، فشخصية المؤلف عصبية بعض الشيء، وقلقه واهتمامه بالتفاصيل المفهومة ضمناً يجبرانه على استبعاد القصص الفصيحة المنمقة من أجل أن يتيح المساحة لما يثير الاهتمام حالياً من قضايا وشكوك مختلفة.

أما فيما يتعلق بعنوان القصة، فالمؤلف يعترف بأن العنوان الذي اختاره جافّ وأكاديمي، ولا يمسّ القلب والعقل إلا قليلاً،

(56) الرجل الذي وظيفته ضبط أوتار البيانو.

لكنه سيترك هذا العنوان مؤقتاً. كان المؤلف يريد أن يسمي هذا الكتاب بعنوان مختلف، مثلاً «بين براثن الحياة»، أو «تبدأ الحياة بعد غد»، لكنه لم تكن لديه الجرأة الكافية والوقاحة لفعل ذلك، فقد تم استخدام مثل هذه العناوين كثيراً، ولم يكن لدى المؤلف الذكاء والتخيل الكافيين ليتوصل إلى عنوان جديد.

بعد مائة عام - عن زماننا - عن التكيف - عن المبارزات - عن الجوارب - مقدمة القصة

في المستقبل القريب، ولنقل مثلاً بعد مئة عام، أكثر أو أقل قليلاً، عندما يكون كل شيء قد استقر تماماً، وعندما تبدأ الحياة في السطوع بنور لا يوصف، دعنا نفترض أن مواطناً ما، مواطناً ذا شارب صغير يرتدي بدلة سويدية رملية اللون، أو دعنا نقل إنه يرتدي منامة حريرية، سوف يتناول كتابنا المتواضع، ويستلقي على الأريكة ليقرأ فيه. سيستلقي على أريكة مغربية، أو دعنا نقل إنه سيستلقي على متكأ صغير مريح أو حتى مقعد طويل، ويريح رأسه الذي تفوح منه رائحة العطر على يديه النظيفتين، ويستغرق في التفكير برفق في أمور رائعة، ويفتح الكتاب. يقول وهو يأكل بعض الحلوى:

- من المثير للاهتمام أن يقرأ المرء عن تلك الطريقة التي عاشوا بها في زمانهم.

وبجانبه تجلس قرينته، أو دعنا نقل رفيقة حياته، في ثوبها النسائي الفضفاض الاستثنائي، وتقول له وهي تعدل من وضع ثوبها:

- أندرياس (أو ربما ثيودور) لمَ تزعج نفسك بالقراءة عن هذا العالم الغريب؟ كل ما ستفعله هو أن توتر أعصابك في مثل هذا الوقت من الليل.

وربما تتناول من الرف كتاباً كبيراً بغلاف أرقط ناعم، ويكون عبارة عن قصائد لأحد الشعراء البارزين، وتبدأ في القراءة:

زنبقة تهتز على نافذتي
وقلبي يخفق بقوة
الحب.. الحب هو أنشودتي
وأنا في طريقي إليك

عندما يحاول المؤلف أن يرسم في مخيلته صورة لهذا حتى ولو لدقيقة واحدة، يسقط القلم من يده، ولا يشعر برغبة في الكتابة. هذا ما في الأمر.

لا يؤكد المؤلف بالطبع أننا سوف نرى مثل هذه المشاهد في المستقبل القريب، لا.. إن هذه الاحتمالية ليست قوية. إن ذلك مجرد حدس سريع، ولا يمكننا أن نكون متيقنين من ذلك، بل ويمكن أن يحدث سريعاً ما يناقض ذلك، فقد تأتي بعدنا أجيال تتمتع بالصحة والحيوية.

سوف تكون هذه الأجيال سمراء تنضح أجسادهم بالصحة، يرتدون ثياباً متواضعة وبسيطة دون أي ميل إلى الترف والتأنق الكاذب.

ربما حتى لا يقرؤون وقتها مثل تلك الأشعار البائسة، أو حتى يقرؤونها فقط في ظروف استثنائية، ويفضلون قراءة كتبنا العادية، والتي سوف يمسكون بها بأيادٍ مرتعشة مفعمة بالعاطفة، وبتوقير كامل لمؤلفيها.

ولكن ما إن يفكر المؤلف في إمكانية وجود قراء كهؤلاء فعلاً حتى يواجه المصاعب ويسقط القلم ثانية من يده.

ولكن ما الذي يمكن أن يمنحه المؤلف لقراء رائعين بهذه الصورة؟

يعترف المؤلف بإخلاص بكل عظمة زماننا، لكنه ليس في مقدوره أن يؤلف كتباً تتوافق مع هذه العظمة، وترسم أحوال زماننا بدقة. ربما يكون قد أهدر موهبته على الأمور البورجوازية اليومية المبتذلة، وعلى أحزانه وهمومه الشخصية المختلفة، لكن ليس في مقدوره أن يؤلف هذا العمل الكبير الذي يمكنه أن يثير اهتمام أولئك القراء المستقبليين المبجلين. لا.. ربما من الأفضل أن يغلق عينه، ويكف عن تخيل المستقبل، والتفكير في الأجيال القادمة. من الأفضل أن يكتب لقرائنا المعاصرين ذوي الخبرة.

لكن الشكوك تساوره ثانية، ويسقط القلم مرة أخرى من يده. في الوقت الحالي عندما تكون أكثر المواضيع أهمية وإثارة للاهتمام تتعلق بغياب التعبئة أو بناء صوامع الغلال، فلن يكون من اللباقة أن يكتب المرء عن معاناة البشر الذين في واقع الأمر لا يلعبون أدواراً معقدة في الحياة.

قد يطلق القارئ على الكاتب ببساطة لفظة «خنزير» ويقول:

- انظروا إلى ما يكتبه.. إنه يصف الكوليرا ومعاناة الناس! انظروا إلى ما يكتبه.. وربما يبدأ الآن في تأليف القصائد حول الزهور.. هذا ما ينقصنا!

لا.. لن يكتب المؤلف قصائد عن الزهور، فهو يكتب قصة، وهو يظن أيضاً أنها قصة ضرورية، وإن جاز التعبير فهي ملائمة للحديث عن حياتنا الماضية. إنها قصة عن أحد الشعراء غير البارزين الذين عاشوا في زماننا. يتوقع المؤلف بالطبع أن يتلقى نقداً قاسياً على هذه الفكرة من أوساط النقاد الشباب والطائشين، الذين يتعاملون مع هذه الأعمال الأدبية على أنها غير مجدية. لكن ضمير المؤلف صاف. إنه لا ينسى تلك الجبهة الأخرى،

ولا يـزدري الكتابـة عـن التسـمم الإفسـنتيني، وعـن حافظـات العلـف وعـن محـو الأميـة. بـل عـلى العكـس.. إنـه قـادر عـلى إنتـاج عمـل متواضـع مـن هـذه النوعيـة.

ولكـن جنبـاً إلى جنـب مـع ذلـك لـدى المؤلـف طمـوح اسـتثنائي أن يكتـب عـن ذكرياتـه مـع هـذا الإنسـان، لأن المسـتقبل قـد يتجاهلـه، وينـسى الجميـع كل شيء عنـه، وينمـو العشـب فـوق الطريـق الـذي سـار فيـه بطلنـا المتواضـع، ذلـك الإنسـان الـذي عرفتـه، بـل دعنـا نقـل: قريبنـا: م.ب سـينياجين.

وقـد سـمحت الظـروف الأخـيرة أن يطلـع المؤلـف عـلى حيـاة هـذا الرجـل بشـكل كامـل بـكل تفاصيلهـا، وأن يعـرف كل مـا حـدث في أعوامـه الأخـيرة. لقـد مـرت حياتـه الشـخصية بأكملهـا كمشـهد مسرحـي أمـام عينيـه.

هـذا الرجـل ذو الشـارب الـذي يرتـدي بدلـة سـويدية إن انزلـق - لا قـدّر اللـه - إلى المئويـة القادمـة لابـد أنـه سـيندهش، وسـيتداعى عـلى أريكتـه المغربيـة. سـيقول وهـو يملّـس عـلى شـاربه:

- يا عزيزتي.. إنه أمر مثير.. لديهم نوع من الحياة الشخصية.

وتجيبه بصوت مبحوح:

- أندرياس.. لا تزعجني بحق الله، فأنا أقرأ قصائد شعرية.

وفي واقـع الأمـر أيهـا القـارئ، شـخص مثلـه بشـاربه هـذا لـن يتمكـن في أيامـه الهادئـة هـذه أن يرسـم صـورة صحيحـة عـن زماننـا. سـوف يتخيـل قطعـاً أننـا كنـا نقـضي كل أوقاتنـا جالسـين في أكواخنـا المتواضعـة نـأكل العصافـير ونحيـا حيـاة وحشـية لا يمكـن تصورهـا، مليئـة بالكـوارث اليوميـة والهلـع.

والحقيقـة علينـا أن نقـول مباشرة إن الكثيريـن ليسـت لديهـم تلـك

الحياة الشخصية، فهم يبذلون كافة قواهم وإرادتهم من أجل أفكارهم وسعيهم للوصول إلى أهدافهم. أما الأكثر سطحية منهم فيناورون قدر المستطاع ويؤقلمون أنفسهم كي يتمكنوا من مسايرة الزمن والعيش بطريقة جيدة وتناول الطعام بكثافة.

وتمضي الحياة بتقلباتها.. تأتي بالحب والغيرة وولادة الأطفال ومختلف المشاعر الأمومية العظيمة، وكذلك تجارب كثيرة مختلفة مشابهة. ونصطحب الفتيات إلى دور السينما، ونتنزه في الزوارق، ونعزف الجيتار، ونأكل البسكويت بالكريمة، ونرتدي جوارب وأحزمة أنيقة. ونرقص رقصة الفوكستروت[57] على موسيقى بيانو منزلي.

لا.. إن ما ندعوها حياة شخصية تمضي في طرقها القليلة كما تفعل تحت أي ظرف من الظروف.

ويؤقلم عاشقو هذه الحياة أنفسهم بقدر ما يستطيعون.

وكما نقول، لكل عصر وجدانه، وفي كل عصر حتى الآن كان العيش سهلاً أو بالأحرى صعباً بالقدر نفسه.

دعنا نأخذ قرناً مضطرباً على سبيل المثال، ولنقل القرن السادس عشر. إن نظرنا إليه من بعيد، فسيبدو لنا الأمر لا يصدق. كانوا يُجرون المبارزات تقريباً في كل يوم، ويلقون بالضيوف من فوق الأبراج، ويتم الأمر بصورة طبيعية جداً، وكأن كل شيء على ما يرام.

بالنسبة لنا إنْ فكّرنا في الأمر طبقاً لوجداننا الآن، فسنخشى أن نعتبر الحياة في ذلك القرن لائقة. فلنأخذ مثالاً بسيد إقطاعي أو نبيل إنجليزي سابق يتجول.

(57) خطوة النعلب وهي رقصة كانت شهيرة في ذلك الوقت.

ها هو يتجول، وهذا يعني أن سيفه معلق على جانبه، فمن يدري، فقد يدفعه أحدهم الآن - لا قدّر الله - بكتفه أو يسبه، فيتوجب عليه أن يبارزه على الفور. وهكذا يمضي الأمر!

يمضي إلى نزهته وما من أثر لأي حزن أو هلع يرتسم على وجهه، بل على النقيض من ذلك؛ إنه يمضي مبتسماً ويصفر مدندناً بلحن ما، ويُقبِّل زوجته بلا مبالاة عند الوداع. يقول لها:

- سوف أذهب لأتنزه يا عزيزتي[58].

أما هي، فالأمر لا يعنيها كثيراً، فتجيبه:

- حسناً.. لا تتأخر على الغداء.

أما في زماننا فستبكي الزوجة، وتركع عند قدميه لتقبلهما متوسلة إليه ألا يخرج إلى الشارع، أو على الأقل ستسأله أن يكفل لها حياة مستورة. ولكن الأمر وقتها كان يمضي بهدوء وبساطة. يأخذ سيفه الصغير ويشحذ نصله إن كان قد استخدمه في قتال سابق، ويخرج ليتنزه حتى حلول موعد الغداء، ولديه كافة الفرص الممكنة التي تتيح له الانخراط في مبارزة أو قتال.

من الضروري أن نقول هنا إنه إن عاش المؤلف في تلك الفترة، فلن تكون لديه القوة كي يخرج من المنزل، وسيحيا حياته بأكملها بالداخل، ويغلق بابه على نفسه بالقفل والمفتاح حتى يصل به العمر بقدر المستطاع إلى زماننا الآن.

من وجهة نظرنا قد نعتبر هذه الحياة ثقيلة، لكنهم لم يدركوا ذلك في وقتها، وعاشوا حياتهم ببساطة، بل وذهبوا إلى الحفلات التي ينظمها أصحاب الأبراج!

(58) كلمة يا عزيزتي مكتوبة بالفرنسية بحروف روسية.

ولهذا فالإنسان مخلوق ساحر، فبغضّ النظر عن نوع الحياة التي يحياها، فهو يحياها على نحو رائع، أما أولئك الذين لا يستطيعون فعل ذلك، فقطعاً يتنحون جانباً حتى لا تطأهم الأقدام. ومن هذا المنطلق فالحياة لها قوانينها الصارمة، وليس بإمكان كل إنسان أن يستلقي في وسط الطريق ليعرب عن اعتراضه.

ودعونا الآن نعد إلى القصة الرئيسية التي بدأ بها الكتاب. يعرب المؤلف عن اعتذاره على استطراداته التي لا تخص الموضوع مباشرة، فهي تشكل جميعاً قضايا وأسئلة حيوية تحتاج إلى حلول وإجابات سريعة.

وفيما يتعلق بالوجدان الذي تحدثنا عنه فهو أمر حقيقي تماماً.. لقد تم التحقق تماماً من الأمر عبر التاريخ.

لذا فسننتقل بضمير هادئ إلى ذكرى ذلك الإنسان الذي عاش في بداية القرن العشرين.

وعلى مدار القصة سوف يجد المؤلف نفسه مضطراً إلى أن يتطرق إلى كثير من المواضيع الصعبة والخبرات الحزينة، وإلى العوز والحرمان.

لكن المؤلف يود من القارئ ألا يتعجل في الوصول إلى أية استنتاجات مبكرة بسبب ذلك.

هناك بعض الشكاكين يحاولون أن يعزوا كل هذا البؤس إلى الثورة وحدها التي اندلعت في ذلك الزمن.

وكما تعرفون فذلك أمر غريب، فالثورة ليس لها علاقة بالأمر. صحيح أن الثورة طرحت هذا الإنسان عن موقعه تماماً، لكن - إن جاز التعبير - يمكن العيش دائماً تحت أي ظرف من الظروف. ويشك المؤلف أن تكون ذكريات شبيهة قد كُتبت عن إنسان آخر في عصر آخر.

ويطلب المؤلف من قرّائه أن يضعوا هذا في اعتبارهم.

كان يقطن بالغرفة المجاورة للمؤلف مدرّس رسم سابق. كان يدمن الخمر ويحيا حياة بائسة غير لائقة. كان يحب دائماً أن يقول:

- لم تكن الثورة هي ما حطّمني. لو لم تندلع الثورة لكنت قد أدمنت على الشراب أيضاً أو حتى دمرت نفسي بالسرقة، أو قُتلت في الحرب، أو أُسرت ولووا عنقي هناك. كنت أعلم إلى أين أمضي، وما شكل الحياة التي سأحياها تحديداً.

وكانت كلماته ذهبية حقاً.

لا يود المؤلف أن يصنع ميلودراما من ذلك. لا.. فالمؤلف على ثقة في مسيرة الحياة المنتصرة، وهو يستحسن العيش في ترف. كثير من الناس يفكرون الآن في ذلك الأمر، ويقدحون أذهانهم كي يتوصلوا إلى طريقة يجعلون بها الآخرين يعتقدون في هذه الفكرة.

هذه بالطبع مقدمة للقصة. فالحياة لم تستقر بعد، ويقولون إن البشر لم يبدؤوا في ارتداء الجوارب إلا منذ مئتي عام مضت فقط.

لذا فكل شيء الآن على ما يرام، والحياة السعيدة لم تعد بعيدة جداً.

مولد البطل - فترة الشباب - مزاجه الصوفي - حب الجمال - عن الأرواح الرقيقة - عن متحف الإرميتاج - عن زهرية سيكيثية[59] رائعة.

وُلِد ميخائيل بوليكاربوفيتش سينياجين في 1887 في قرية بانكوفو بمقاطعة سمولينسك. كانت أمه نبيلة وأبوه مواطناً فخرياً[60].

(59) منطقة قديمة بجنوب شرق أوروبا وشمال آسيا، تمتد من الدانوب في الغرب وحتى حدود الصين في الشرق.

(60) كان هذا اللقب يستخدم في روسيا القيصرية للإشارة إلى مواطن ليس من أصل نبيل، لكنه حصل على هذا اللقب مكافأة على وصوله إلى مستوى معين من التعليم.

ولكن طالما المؤلف أصغر من م.ب سينياجين بعشرة أعوام، فلا يمكنه أن يذكر شيئاً يستحق الذكر عن أعوامه المبكرة حتى عام 1916.

ولكن لأنهم كانوا يدعونه دوماً: ميشيل، حتى عندما وصل إلى الأربعين من العمر، فهذا يدل على أنه نعِم بطفولة ناعمة، وتمتع بالتفهم والحب والحنان المفعم بالعاطفة. كانوا ينادونه: ميشيل، ولم يكن يمكنه حقاً أن يحظى باسم آخر. كل الأسماء الفظة الأخرى لا تناسبه ولا تلائم قامته النحيلة وحركته الأنيقة وكياسته الأصيلة، وجدارته ومشاعره.

ومن الواضح أنه أنهى دراسته في المدرسة الثانوية، وأنه درس في مكانٍ ما بعدها لعامين أو لثلاثة. على أية حال كان يتمتع بمستوىً تعليمي مرموق.

وفي عام 1916 التقى به المؤلف عندما كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً في إحدى المدن، وقد تعرف على حياته على نحو عفوي وكان شاهداً - إن جاز التعبير - على كثير من التغيرات والأحداث المهمة والمميزة.

لم يذهب م.ب سينياجين إلى الجبهة بسبب الفتق الذي كان يعاني منه. وفي نهاية الحرب الأوروبية مرَّ على المدينة بمعطف مدني، مرسوم على عروته زهرة، ممسكاً بعصا ذات مقبض عاجي جميل.

كان دائماً يسير في الشوارع حزيناً واهناً، وحيداً تماماً، يتمتم لنفسه ببعض القصائد الكثيرة التي ينظمها، متمتعاً بموهبة لا بأس بها، وذائقة جميلة لكل ما هو جميل وفاتن.

كانت المناظر الطبيعية الكئيبة والمألوفة التي يراها في بسكوف تبعث فيه السرور بشدة: أشجار البتولا، والقنوات المائية ومشاتل الزهور في كل مكان.

كان يغادر المدينة، وبعد أن يخلع قبعته يستمتع بمراقبة لهو الطيور والبعوض.

أو يمكن أن ينشغل بمراقبة السحب الضخمة ويرفع رأسه ليرى تشكيلاتها المختلفة وينظم أبيات الشعر والقصائد عليها.

في هذه الأعوام كان لا يزال هناك عدد كبير من المثقفين والمتنورين من الناس الذين يتمتعون بروح حساسة وحب رقيق للجمال ومنتجات الفن المختلفة.

علينا أن نقول بشكل مباشر إنه كانت هناك دائماً في وطننا طبقة استثنائية من المثقفين تستمع إليها أوروبا كافة باهتمام، بل والعالم بأجمعه.

ولقد كانوا فعلاً خبراء في أمور الفن والباليه، ومؤلفي كثير من الأعمال الفنية العظيمة، وهم من أوحوا بكثير من الأعمال والتعاليم العظيمة.

لم يكونوا مجرد خبراء[61] بالمعنى الذي نفهمه، بل كانوا ببساطة مثقفين ولامعين.

تمتع كثيرون منهم بطيبة القلب. بعضهم كان يبكي ببساطة عند رؤيته لكثير من الزهور أو الطيور تقفز فوق أكوام من القذارة.

كان هذا في الماضي، ولكن علينا أن نقول بالطبع إن الأمر لم يكن طبيعياً، وهذا الازدهار الريان كان حرفياً على حساب أمر آخر.

ليس لدى المؤلف خبرة كبيرة بفن الديالكتيك، وليس على دراية بالنظريات العلمية المختلفة، لذا فلن يأخذ في اعتباره

(61) في العشرينيات والثلاثينيات شعر النظام الجديد في روسيا بالحاجة إلى طبقات المتخصصين كالمهندسين مثلاً، ومع أنهم لم يكونوا شيوعيين إلا أن النظام سمح لهم بتولي بعض المسؤوليات في الزراعة والتجارة والصناعة تحت إشراف رجال الحزب. وفي اللغة العامية كانوا يدعونهم خبراء. لكن كان يتم التعامل معهم بصفتهم مجرد فنيين بدلاً من أناس يتمتعون بعلم ومعرفة حقيقيين، مثلما يشير زوشينكو هنا.

البحث عن الأسباب والنتائج، لكنه من الممكن أن يبرهن بوقاحة ويتعمق أكثر من ذلك في تلك المسألة.

إن افترضنا مثلاً أسرة لديها ثلاثة أبناء، ولنفترض أن أحد الأبناء قد تعلم كيف يأكل الشطيرة بالزبد، ومنحناه بعض الكاكاو ليشربه، وكان يستحمّ كل يوم في حوض الاستحمَّام، ويسرح شعره كل يوم بعد تلميعه بأحد المستحضرات، بينما لم نمنح الأخوين الآخرين شيئاً سوى التفاهات، ولم نشبع احتياجاتهما، فسيكون الابن الأول حراً تماماً في المضي بطريقه في التعليم إلى الأمام، وكذلك في تطوير سماته الروحية. سوف ينظم القصائد، ويبتسم عند رؤيته للطيور، ويتفوه بمختلف الكلمات الراقية.

منذ مدة غير طويلة ذهب المؤلف إلى الإرميتاج، وأخذ يمعن النظر هناك في القسم السيثي[62]، ووقعت عيناه على مزهرية ورد فاتنة، وإن كانوا لا يكذبون فهذه المزهرية تعود إلى أكثر من ألفي عام مضت. يا لها من مزهرية أنيقة ذهبية! إنها نموذج استثنائي للفن السيثي، لكن ليس معروفاً لم صنعوها تحديداً. ربما قد صنعوها من أجل اللبن، أو من أجل أن يضعوا فيها بعض الزهور الجامحة حتى يستنشق ملكهم عبيرها. الأمر غير معروف، ولم يوضحه لنا العلماء. لقد وجدوا هذه المزهرية في مدينة كورجان.

وقد رأيت فجأة بعض الرسومات على هذه المزهرية، فقد كان مرسوماً عليها بعض الفلاحين الجالسين. فلاح من الطبقة الوسطى[63] جالس في مكانه، وآخر يضغط بإصبعه على سنه، والثالث يصلح من حذائه المصنوع من الخوص.

(62) نسبة إلى السيثيين.

(63) اقتباس ساخر مرة أخرى، فطبقاً للماركسيين هناك ثلاثة أنواع من الفلاحين: الأغنياء - الطبقة الوسطى - الفقراء.

أخذ المؤلف ينظر عن كثب إلى الرسومات. يا إلهي! إنهم يشبهون فلاحينا قبل الثورة تماماً، ولنقل مثلاً إنهم من عام 1913. نفس الثياب.. نفس الأقمصة الواسعة.. نفس الأحزمة، ونفس اللحى الطويلة الشعثاء.

شعر المؤلف بالصدمة بعض الشيء من ذلك. ما هذا؟! انظر إلى القائمة: إنها مزهرية يعود عمرها إلى ألفي عام مضت. انظر إلى الرسومات، وستجدها أقل عمراً منها بألف وخمسمئة عام. هذا يعني إما أنه هناك خداع متواصل من جانب العلماء المتخصصين بالإرميتاج، وإما أن هذه الثياب والأحذية قد تم الحفاظ عليها حتى زمن ثورتنا. وإن كان الأمر كذلك فهذا يعني أنه طوال ألف وخمسمئة عام لم نتوصل إلى ثياب أفضل من ذلك، لأننا كنا طوال كل هذا الوقت مشغولين بالعمل لدى السادة.

لا يود المؤلف بالطبع بكل هذه الملحوظات أن يُنزل من قدر طبقات المثقفين في ذلك الزمن. لا.. إنه يريد ببساطة أن يوضح كيف حدث ذلك ومن هو المسؤول عنه.

علينا أن نعترف بأن هذا التقسيم كان جيداً ببساطة، وأنه لا شيء يمكن أن يقال ضده. ولكن على أية حال كان بطلنا إنساناً مثقفاً ومتنوراً إلى درجة كافية. كان يفهم الكثير من الأمور، وقد شعر بالحب صوب نباتات الزينة الجميلة، وكان يشعر بالابتهاج في كل لحظة عند قراءته للأدب. كان يحب هؤلاء الشعراء الرائعين جداً مثل فيت[64] وبلوك[65] ونادسون[66].

(64) أفاناسي فيت (1820 - 1892) شاعر روسي شهير.

(65) ألكسندر بلوك (1880 - 1921) أحد أعظم الشعراء الروس الرمزيين.

(66) سيميون نادسون (1862 - 1887) شاعر روسي عاطفي ينتمي إلى الرومانسية الجديدة.

لم يكن إبداعه الأدبي يتميز بأصالة استثنائية، فقد كان واقعاً تحت التأثير القوي لهؤلاء الشعراء البارزين، وعلى وجه خاص بالطبع تحت تأثير الشاعر العظيم في تلك الفترة: ألكسندر بلوك.

والدة وخالة م. ب سينياجين - ماضيهما - شراء الضيعة - الحياة في بسكوف - السحب تجتمع - شخصية وميول خالة سينياجين - لقاؤه بليف نيكولايفيتش تولستوي - قصائد الشاعر - مزاجه العاطفي - هيامه.

عاش ميشيل سينياجين بصحبة والدته آنا أركاديفنا سينياجينا، وشقيقتها ماريا أركاديفنا، والتي سنتحدث عنها قريباً بالتفصيل، وسنولي وصف شخصيتها عناية خاصة، وذلك لأن تلك المرأة المبجلة أرملة الجنرال (فلان)، تلعب دوراً مهمّاً في قصتنا.

وهكذا انتقل ثلاثتهم في عام 1917 للعيش في بسكوف، كزوار جاؤوا إلى المكان عرضاً، وقد استقروا في تلك المدينة الشهيرة الصغيرة لسبب لا يتعلق بإرادتهم.

وفي وقت الحرب وصل سينياجين ووالدته إلى هنا كي يعيشا مع خالة سينياجين ماريا أركاديفنا التي كانت تعيش في ضيعتها التي لا تبعد كثيراً عن بسكوف.

وفي تلك الضيعة أرادت الشقيقتان أن تعيشا بالقرب من الطبيعة، وفي قلب ذلك الهدوء التام والصمت الرائع بعد أن عاشتا في الماضي حياة صاخبة.

وكان اسم هذه الضيعة البائسة يتناسب مع ذلك: «البقعة الهادئة».

أما ميشيل، هذا الشاب الحزين بعض الشيء، والذي يشعر بميل إلى ذلك الحزن، وبإنهاك من عمله الشعري ومن صخب

الحيـاة في المدينـة، بمطاعمهـا ومطرباتهـا وشـجاراتها، أراد أن ينعـم ببعـض الوقـت الهـادئ هـو الآخـر، وأن يحيـا في صمـت حتـى يسـتجمع قـواه، ويمـضي ثانيـة في طريقـه بـكل قوتـه.

ومع ذلك فالأمور لم تمض كما كان مخططاً لها أن تمضي.

وكانـت «البقعـة الهادئـة» قـد تـم شراؤهـا قبـل الثـورة مبـاشرة، بحـوالي شـهرين، لـذا لم تنجـح الأسرة حتـى في جلـب كافـة أغراضهـا وصناديقهـا، وهـذه الصناديـق والأسرة والأرائـك، كانـت قـد تـم تخزينها مؤقتـاً عـلى عجـل في شـقة بالمدينـة عنـد أحـد المعـارف ببسـكوف. وفي هـذه الشـقة تحديـداً سـوف يتوجـب عـلى ميشـيل أن يقـضي عـدة أعـوام بصحبـة والدتـه المسـنة.

ولتميزهـما بالتفكـير الحـر، ولأن لديهـما هـذه النزعـة لحـب الثـورة، لم تضطربـا كثـيراً بسـبب الثـورة والاسـتيلاء عـلى ممتلـكات أصحـاب الأراضي. إلا أن الشـقيقة الصغـرى ماريـا أركاديفنـا، والتـي كانـت قـد دفنـت مـا يقـرب مـن 60 ألـف روبـل، كانـت أحيانـاً مـا تتنهـد وتتـأوه وتقـول إن الشـيطان وحـده يعلـم كيـف يكـون الأمـر عندمـا يسـتحيل عليهـا السـفر إلى ضيعـة قـد اشـترتها بأموالهـا الخاصـة.

أمـا آنـا أركاديفنـا والـدة ميشـيل فكانـت سـيدة غامضـة بعـض الـشيء، فهـي لم تقـم بـأي شيء في حياتهـا سـوى ولادة هـذا الشـاعر الاسـتثنائي.

كانـت سـيدة عجـوزاً هادئـة لا تميـل إلى الشـجار، تحـب أن تجلـس عنـد السـماور، وتسـتمتع بـشرب القهـوة بالقشـدة.

أما فيما يتعلق بماريا أركاديفنا، فكانت امرأة من نوع آخر تماماً.

لم يكـن لـدى المؤلـف فرصـة كي يشـعر بالـسرور برؤيتـه لتلـك السـيدة في أعـوام شـبابها، ومـع ذلـك كان مـن المعـروف أنهـا كانـت

فاتنة بشكل استثنائي، وعاطفية، ممتلئة بالحيوية، تتمتع بروح معنوية عالية.

ولكن في تلك الأعوام التي يدور عنها الحديث، كانت العجوز قد بدأت تفقد ملامح شخصيتها، وسريعاً بدأت تفقد جمالها، لكنها ظلت مؤثرة وتتمتع بالحيوية.

وقد طبعت وظيفتها السابقة ملامحها عليها. في سني الشباب كانت ترقص الباليه، وعملت في فرقة الرقص بمسرح مارينسكي[67].

كانت شهيرة إلى حد ما، وقد انجذب إليها أيضاً أمير سابق عظيم يُدعى نيكولاي نيكولايفيتش. في الواقع سرعان ما تركها، بعد أن ترك لها دثاراً من الفرو وبعض الخرز وأشياء أخرى. ولكن المهنة التي كانت بدأتها قد تم التأكيد عليها الآن.

سوف تلعب العجوزان دوراً واضحاً في حياة ميشيل سينياجين في المستقبل، لذا فيجب ألا يشعر القارئ بالضيق أو الغضب من توقف المؤلف لبعض الوقت لوصف شخصية العجوزين؛ البطلتين الذابلتين.

كانت الأجواء الشعرية التي تسود البيت بفضل ميشيل، تؤثر أيضاً على السيدتين. كانت ماريا أركاديفنا تحب أن تقول إنها سوف تُدوِّن ذكرياتها. فحياتها العاصفة ولقاءاتها مع كثير من الشخصيات البارزة تستحق التدوين. لقد التقت شخصياً مرتين بليف نيكولايفيتش تولستوي، وبنادسون وكوني[68] وبيريفيرزيف[69] وكثير من الشخصيات البارزة الأخرى التي ترغب في أن تعرض للعالم بعض أفكارهم.

---

(67) المسرح الرئيسي للأوبرا في سان بطرسبرج في ذلك الوقت.

(68) أناتولي كوني (1844 - 1927) محام شهير، وصديق لكثير من الكتّاب، وكان هو نفسه مؤلفاً لبعض الكتب المهمة.

(69) فاليريان بيريفيرزيف أحد المؤرخين ومؤسس للمدرسة الماركسية الاجتماعية.

وهكذا فقبل اندلاع الثورة انتقلت الأسرة إلى بسكوف، وقضت هناك ما يقرب من ثلاثة أعوام.

كان م.ب سينياجين يقول في كل يوم إنه لا ينوي أبداً أن يقضي مزيداً من الوقت هنا، وإنه سوف يغادر المكان عند سنوح أول فرصة ليذهب إلى موسكو أو سان بطرسبرج.

إلا أن ما حدث بعد ذلك من أحداث وتقلبات الحياة أخّر كثيراً هذا الرحيل، واستمر صديقنا ميشيل سينياجين في العيش تحت سماء بسكوف، وقد شغل نفسه بنظم القصائد، وبولهه المؤقت بواحدة من الفتيات المحليات، والتي كرَّس لها كثيراً من قصائده.

بالطبع لم تتحل هذه القصائد بالعبقرية، ولم تكن حتى أصيلة، ولكن عذوبة المشاعر، والبراءة والبساطة جعلت منها قصائد مميزة من بين القصائد التي كانت موجودة في ذلك الوقت.

والمؤلف لا يذكر تلك القصائد، فالحياة والهموم والأحزان قد أزالت من ذاكرته تلك الأبيات الأنيقة والإيقاعات الشعرية، ولكن بعض الأبيات المتفرقة والمتناثرة مازال يتذكرها والتي كانت محملة بالمشاعر الحقيقية:

البتلات ونباتات لا تنسني[70].

تنجرف من خلف النافذة

ولا يذكر المؤلف بقية تلك القصيدة تحت عنوان: «الخريف» لكنه يذكر أن نهايتها كانت مليئة بالحزن المتعلق بالمدينة:

آآه قل لي لماذا

من أين جاء في الطبيعة

(70) نوع من النباتات اسمه «لا تنسني».

هذا النظام؟ ولمَ ليست
السعادة كاملة؟

وقد نظم ميشيل قصيدة أخرى عن حبه للطبيعة، وعن تجلياتها العاصفة:

مضت العاصفة الرعدية
ويمكنني أن أتشمم عبير
أغصان الزهور البيضاء
وتفوح من النافذة
الروائح البديعة
ومازال العشب نامياً
والدموع رائقة
والرعد يرعد
إنها ضجة الطبيعة!

ومع ذلك فهذه القصيدة مكتوبة بحرفية، حتى إنني تساورني بعض الشكوك في حقيقة أن هذا الشاعر المبتدئ هو من نظمها.

وفي كل فرصة كان ميشيل سينياجين يقول إنه هو مؤلفها، ونحن لا نعتبر أنه من حقنا أن نبعث الضيق في القارئ بمثل هذه الآراء.

على أية حال مازالت الأسرة جميعها تحفظ تلك القصيدة، وتغنيها المرأتان العجوزان أمام المؤلف.

وعندما كانوا يستقبلون الضيوف، كانت آنَّا أركاديفنا سينياجينا تقودهم صوب غرفة ميشيل، وتشير إليهم بالجلوس على المنضدة المصنوعة من خشب البتولا، وتتنهد وتنظر إليهم بطراوة وتقول:

- على هذه المنضدة كتب ميشيل أفضل قصائده: «العاصفة الرعدية - البتلات ونباتات لا تنسني - السيدات السيدات».

وحينها يقول ميشيل مرتبكاً:

- كفى يا أمي! أنتِ فعلاً..

ويهز الضيوف رؤوسهم بتعبير لا ينم عن الموافقة ولا عن الحزن، ويلمسون المنضدة بأصابعهم، ويقولون بطريقة غريبة:

- إممم.. ليست سيئة!

وقليل منهم ممن يتمتع بالحس التجاري كان يسأل: كم تكلفة تلك المنضدة؟ ثم ينتقلون بالحديث إلى مواضيع أخرى لا تثير اهتمام الأم أو ميشيل.

وكان الشاعر ينتبه كثيراً للسيدات..

ولأنه كان في تلك الفترة واقعاً تحت التأثير القوي للشعراء البارزين في تلك الفترة، وبخاصة بلوك، فلم يوجِّه عاطفته صوب امرأة بعينها. كان يتوجه بحبه صوب امرأة غير حقيقية، وغير محددة.. امرأة لامعة في جمالها وغموضها.

إحدى قصائده الرائعة: «السيدات السيدات.. لمَ لا أحدق فيكن بلطف؟» تكشف بوضوح عن كنه تلك العلاقة، وكانت خاتمتها على النحو التالي:

لهذا أحب امرأة غير معروفة

وقد تعرفت عليَّ تلك المرأة غير المعروفة

إني لا أحب النظر إلى وجه امرأة أعرفها

ولا أحب أن أمنحها خاتم الخطبة.

وبغضّ النظر عن أن الشاعر ليس مغرماً بامرأة محددة، فقد أخذت موهبته العبقرية منحى مناقضاً في بقية الأمور الدنيوية.

ولكن من الواجب علينا أن نشير إلى أن ميشيل قد كبت شهواته الأرضية، بعد أن وجدها وقحة بائسة. كان الأمر الرئيسي الذي

يخيفه هو أن يسقط في الشرك بشكل ما، ويجد نفسه مضطراً إلى الزواج، وبهذه الطريقة ينحدر إلى المستوى المألوف وتصبح تصرفاته وأفعاله عادية.

كان ميشيل ينوي شيئاً آخر، وقد رغب في مستقبل استثنائي. لقد حلم بزوجة المستقبل وتصور أنها ستكون امرأة مدهشة لا تشبه فتيات بسكوف في شيء.

إنه لم يتصور كيف ستكون زوجته تحديداً، لكنه عندما يفكر في الأمر كان يتخيل كلباً صغيراً، وفروا وعدة وطقم الفرس. تخرج من العربة برداء نسائي فاخر، والخادم ينحني أمامها باحترام وهو يفتح الباب.. هذه هي المشاهد التي كان يرسمها في خياله عندما يفكر في زوجته المستقبلية.

أما هذه الفتاة التي كان يشعر بالانجذاب صوبها فكانت نموذجاً سيئاً. كانت تُدعى سيموتشكا م، وقد أنهت في هذا العام مدرستها الثانوية ببسكوف.

علاقة حب - سعادة قصيرة - حب قوي للشعر - الأرملة م وشخصيتها - زيارة غير متوقعة - مشهد غير جميل - الموافقة على الزواج

رغم أنه كان يتعامل مع سيموتشكا بلا اهتمام بعض الشيء، فإن ميشيل كان مولهاً بها بحرارة، ومع ذلك لم يفكر للحظة واحدة في الزواج بها.

لقد كانت مشاعره ببساطة مجرد وله.. علاقة غير جدية، وكما يقولون: «حب صعب» يجب ألا يملأ قلبه تماماً. كانت سيموتشكا فتاة جميلة، بل رائعة الجمال، ولكن جسدها كان للأسف مليئاً تماماً بالنمش.

ولأنها لم تدخل إلى أعماق حياة ميشيل، فلم يعترض على هذه الظاهرة الطبيعية، بل واعتبرها أيضاً ظاهرة لطيفة، ولا تخلو من الفائدة.

حين يذهبان إلى الغابة أو إلى أحد الحقول كانا يتغنيان بالقصائد، أو يركضان ويتسابقان كالأطفال، ويستمتعان ويفرحان بالشمس وعبير المكان من حولهما.

وعلى الرغم من ذلك شعرت سيموتشكا في إحدى اللحظات الرائعة بأنها تحمل في أحشائها طفلاً، وسرعان ما أخبرت شريكها. لقد أحبته بمشاعر المرأة البكر، بل وكانت تحدق في وجهه لمدة طويلة دون أن تتحول بنظرها عنه.

لقد أحبته حباً قوياً مؤثراً، وفهمت تماماً أنها بالنسبة له مجرد فتاة قروية، لا زوجة.

وقد صدمت أخبار سيموتشكا ميشيل بقوة بل وجعلته يشعر بالخوف. لم يكن يخشى سيموتشكا بقدر ما يخشى من والدتها م، المعروفة في المدينة، إنها تلك الأرملة المليئة بالحيوية التي تعول أسرة ضخمة. لديها ما يقرب من ست فتيات استطاعت بنجاح وحيوية أن تزوجهن، وقد قامت في سبيل تحقيق ذلك بكل الخدع والتهديدات بل وحتى الإساءات الممكنة.

كانت امرأة سمراء، تنتشر البثور على جلدها. وعلى الرغم من ذلك، كانت جميع فتياتها شقراوات، بل وحواجبهن بيضاء، ربما يشبهن أباهن الذي مات منذ عامين.

في ذلك الوقت لم يكن هناك طلاق أو نفقة، وأخذ ميشيل يفكر بهلع في العواقب الممكنة.

لم يستطع قطعاً الزواج منها، فلم تكن هي المرأة التي يحلم بالتزوج منها، ولا كان يعتقد أنه سيحيا تلك الحياة القروية.

بدا له أن كل ذلك مؤقت وعرضي وضعيف. بدا له أنه سرعان ما سيبدأ حياة أخرى، مليئة بالسعادة المجيدة، والأفراح والمآثر وكل ما هو جديد.

وبينما ينظر إلى قرينته كان يفكر أنه يجب ألا تصبح زوجته أبداً تحت أي ظرف من الظروف. إنها فتاة ذات حواجب ورموش بيضاء، بالإضافة إلى ذلك النمش الذي ينتشر على سطح جلدها. وما زاد على ذلك أنه كان يعرف شقيقاتها الكبريات، وجميعهن قد تزوجن، وسريعاً ما ذبلن وهرمن، وهذا أيضاً لم يكن يوافق روح الشاعر.

لقد أراد حقاً أن يرحل إلى سان بطرسبرج، ولكن الأحداث التالية هي ما أخرت ذلك وجعلته يستقر لبعض الوقت في بسكوف.

جاءت إليه تلك السيدة السمراء ذات البثور في شقته وطلبت منه أن يتزوج من ابنتها.

لقد جاءت إليه في ذلك اليوم وفي تلك الساعة التي لم يكن فيها أحد معه في الشقة، أما ميشيل فسواء أراد أم لم يرد فكان عليه أن يتحمل الضربة كلها بمفرده.

جاءت إليه في غرفته، وبارتباك وخجل أخذت توضح سبب زيارتها.

أما شاعرنا المتواضع الحالم الرقيق، فحاول في البداية أن يعارضها بأدب، لكن حديثه بأكمله لم يكن مقنعاً، ولم يصل إلى وعي المرأة.

وسرعان ما بدأت اللهجة اللطيفة في التحول تدريجياً، بل إن الإيماءات بدأت تأتي، وكذلك الكلمات النابية والصرخات.

كان كلاهما يصرخ في الوقت ذاته، وكل منهما يحاول أن يكتم الآخر، وفي الوقت نفسه يحاول كل منهما أن يحطم طاقة الآخر وإرادته.

جلست الأرملة م على أحد المقاعد، وما إن شعرت بالدفء حتى أخذت تذرع الغرفة وتحرك المقاعد وخزانات الكتب وحتى الصناديق الضخمة كي تكتسب مزيداً من الإقناع. أما ميشيل فحاول أن يخرج من تلك الهاوية، ودون أن يستسلم صاح وأخذ يحاول أن يدفع المرأة خارج الغرفة نحو الرواق.

ولكن تلك المرأة والأم المحبة قفزت فجأة على حافة النافذة وأخذت تصيح بصوت عال قائلة إنها سوف تقفز الآن من النافذة إلى شارع سوبورنايا وتقضي نحبها إن لم يوافق على هذا الزواج. وبعد أن فتحت النافذة تدلى جسدها بعض الشيء خارجها وهي تخاطر في كل ثانية بالسقوط منها.

وقف ميشيل مشدوهاً، دون أن يعلم ماذا عليه أن يفعل: هل عليه أن يركض صوبها أم للمنضدة أم يقذف بنفسه عليها ويمسك بها من رأسها، أم يخرج إلى الرواق كي يطلب مساعدة أحد.

وكان الناس قد بدؤوا في الاحتشاد أسفل في الشارع، وهم يشيرون بأصابعهم ويبتسمون ويخمنون سبب صراخ تلك المرأة ووقوفها على حافة النافذة. شعر ميشيل بالغضب والإساءة والخوف من الفضيحة، وها هو واقف الآن مكتئباً أمام شخصية هذه المرأة المليئة بالحيوية.

وقف بالقرب من المنضدة يراقب ضيفته بهلع، تلك التي كانت تصرخ بصوت عال جداً كالتاجرة، تطالبه بأن يجيبها بالموافقة.

كانت قدماها تنزلقان من حافة النافذة، وكل حركة طائشة كان بإمكانها أن تتسبب في سقوطها من الطابق الثاني.

كان الجو رائعاً في هذا التوقيت من أغسطس، وشعاع الشمس ينساب داخل الغرفة عبر النافذة المفتوحة. كل شيء كان دافئاً ورائعاً في ذلك اليوم اللطيف، وهذه المرأة الصارخة المذعورة هي وحدها ما كان يعكر صفو سير الأمور الطبيعي.

اضطرب ميشيل وأخذ يرجوها أن تكف عن الصراخ، وأعطاها موافقته على الزواج من سيموتشكا.

وسرعان ما هبطت المرأة عن إفريز النافذة عن طيب خاطر، وطلبت منه بصوت هادئ أن يعذرها على سلوكها الصاخب - إن جاز التعبير - وقد عزته إلى مشاعرها وأحاسيسها الأمومية.

قبَّلت ميشيل على وجنته وقد أطلقت عليه «ابنها»، وهي تبكي من فرط تأثير عاطفتها.

وقف ميشيل كئيباً غير عالم ماذا عليه أن يقول ويفعل، وكيف يخلص نفسه من هذه المصيبة. قاد الأرملة صوب الباب، ونزولاً عند إرادتها قبَّل يدها وقد تفاجأ هو نفسه مِن فعْله ذلك، وأخيراً ودعها وهو يتمتم بكلمات متلعثمة لا تخص الأمر تقريباً من بعيد أو من قريب.

أما الأرملة وقد لمع وجهها وشعرت بالسرور فتركت المنزل في صمت، ونثرت بعض مساحيق التجميل على وجهها وحددت حواجبها التي كانت قد انحرفت قليلاً.

صدمة عنيفة - إرث أدبي - لقاء - زواج - رحيل الخالة - موت الأم - ولادة الطفل - رحيل ميشيل

في مساء هذا اليوم التعيس، وبعد رحيل الضيفة التي لم يدْعُها أحد كتب ميشيل قصيدته المعروفة، والتي لحنها موسيقياً أحدهم بعد ذلك: «يا شجر الصنوبر.. يا شجر الصنوبر.. أجبني..».

وقد هدأ هذا من روعه قليلاً إلا أن الصدمة كانت قوية جداً، حتى إن ميشيل شعر في الليل بضربات قلبه تدقّ بعنف، وبخوف غير طبيعي وكذلك شعر بالدوار والغثيان.

اعتقد أنه يموت، وبأيد مرتعشة نهض الشاعر من فراشه وهو لا يرتدي سوى سرواله الداخلي، واضعاً يده فوق قلبه، ولشعوره بالخوف والهلع أيقظ والدته وخالته اللتين لم تكونا قد عرفتا بعد ما حدث. ودون أن يوضح لهما شيئاً أخذ يتمتم بكلمات عن الموت، وأراد أن يمنحهما وصيته الأخيرة بشأن مخطوطات كتبه.

واقترب مترنحاً من المنضدة وأخذ يسحب أكواماً من أوراقه، ويوضح لهما مكنونها ويصنفها وينتقي منها، ويقول لهما ما الذي يجب أن ينشره في رأيه قريباً، وما الذي يجب تأجيل نشره إلى المستقبل.

كانت كلتا السيدتين العجوزين قد نسيتا تلك المغامرات الليلية، لذا نهضتا بهلع في تنوراتهما الداخلية بشعر أشعث وأخذتا تذرعان الغرفة، وتعتصران أذرعهما وتحاولان إقناعه أو حتى إعادته بالقوة إلى فراشه، وقد اعتقدتا أنه من الضروري وضع كمادة على قلبه، ودهن جانبه باليود حتى تجري الدماء وتصل إلى رأسه.

ولكن ميشيل طلب منهما ألا تباليا بحياته التافهة، وطلب منهما أن تتذكرا ما قاله لهما بشأن إرثه الأدبي.

وبعد أن صنَّف أوراقه أخذ ميشيل يركض عبر الغرفة، وهو يملي على خالته ماريا أركاديفنا قصيدته الجديدة: «البتلات ونباتات لا تنسني» التي لم يكن قد تمكن من كتابتها على الورق حتى هذا الوقت.

أما الخالة ماريا فأخذت تبكي وانهمرت منها الدموع التي لطخت الورقة أسفل ضوء الشموع، وأخذت الأمور تختلط عليها في سطور القصيدة وإيقاعاتها.

هذا العمل المحموم ألهى ميشيل عن مرضه تماماً.

استمرت دقات قلبه، لكنها أصبحت أكثر انتظاماً، وتلاشى الدوار، وتحول إلى نعاس ولا مبالاة.

ولدهشة الجميع غفا ميشيل بهدوء فجأة على مقعده.

وبعد أن دثرتاه ورشمتا عليه علامة الصليب، مضت السيدتان العجوزان وهما تشعران بالخوف من أن يكون جهاز الشاعر العصبي قد أصابه المرض.

في اليوم التالي استيقظ ميشيل منتعشاً مسروراً، لكن خوف أمس لم يفارقه، وأخبر والدته وخالته عما حدث أمس.

اشتعلت الدراما وانهمرت الدموع إلى أقصى حد عندما وصلته ورقة من سيموتشكا ترجوه فيها أن يلتقيا.

وذهب للقائها، برزانة متغطرسة، دون أن يفكر أنه على الرغم من رزانته قد يفكر في التهرب من وعده.

توسلت إليه المرأة العاشقة أن يصفح عن سلوك أمها الجائر، وقالت إنها عن نفسها تود لو تربط حياتها به للأبد، لكنها لن تخاطر بطلب هذا منه.

أجاب ميشيل بتحفظ قائلاً إنه سيفي بوعده لكنه لا يستطيع أن يضمن لها أنهما سوف يعيشان سوياً في المستقبل. من الممكن أن يعيش في بسكوف عاماً آخر أو اثنين، لكنه في نهاية الأمر لابد أنه سيرحل إلى موسكو أو بتروجراد حيث ينوي أن يكمل مسيرته المهنية، أو سيبحث هناك على أية حال عن حياة تتوافق معه، ويمكنها أن تلبي احتياجاته.

ودون أن يسيء للفتاة أوضح لها ميشيل الفارق بينهما، فإن لم يكن واضحاً في مصيرهما الذي وحدته الثورة، فهو واضح في حياتهما. قال لها:

- أنتِ مركبة صغيرة، وأنا كبيرة، ومن الضروري لي أن أسبح في مكان آخر.

وافقته الشابة العاشقة وقالت إنها لا تريد أن تُقيِّد حياته بشيء، وليتصرف كما يشاء.

وببعض الكلمات المطمئنة من هذا النوع بدأ ميشيل نفسه يقول إن زواجهما أمر محسوم، ولكنه لا يستطيع أن يقول متى سيحدث بالضبط.

وافترقا وظلا كما كانا قبلاً، صديقين لا عدوين، وبخطوات سريعة هادئة عاد ميشيل إلى منزله على الرغم من أن الجرح لم يندمل سريعاً في روحه.

وتزوج ميشيل من سيموتشكا بعد ستة أشهر تقريباً، وكان الوقت شتاءً في يناير من عام 1918.

وقد كان لهذا الزواج المقبل تأثير كبير على صحة والدة ميشيل. بدأت تشكو من تفاهة الحياة وخوائها، ولاح الوهن والضعف في عينيها، ولم تعد تبتعد تقريباً عن السماور. وقد كان مفهوم الزواج وقتها يختلف بعض الشيء عنه الآن، فمن وجهة نظر النساء العجائز كان الزواج خطوة وحيدة حاسمة، ومقدسة بشكل سري[71].

أصاب الذهول الخالة ماريا هي الأخرى، وشعرت بالاستياء من الأمر، وأخذت تقول كثيراً إنه لم يعد لها مكان هنا، وإنها سوف

(71) في الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية ثمة سبعة أسرار كنسية ومنها سر الزيجة (الزواج) أي إن عملاً سرياً فائقاً يحدث في الزواج حينما يحل الروح القدس على الزوجين ويوحدهما ليصبحا جسداً وروحاً واحدة.

ترحل إلى بتروجراد في أقرب وقت ممكن، حيث تبدأ في كتابة مذكراتها ولقاءاتها.

وقد ارتبك ميشيل بعض الشيء من كل ذلك، وكان ينتقل من غرفة للأخرى عابساً وهو يقول إنه لو لم يكن قد أعطى كلمته، لكان قد بصق على الجميع ومضى حيث يريد. ولكن على أية حال فإن هذا الزواج لن يقيده، فهو سيد حياته، وهو لن يتراجع عن خططه، ومن المحتمل أن يلحق بخالته في غضون ستة أشهر أو عام.

وتم الزفاف سريعاً وبشكل متواضع.

قاما بإجراءات الزواج في المفوضية، ثم أُجرِي الزفاف في كنيسة التجلي، وذهب كافة أقارب العروسين إلى الزفاف بحشمة، وبدا الجميع مستائين بطريقة ما. وحدها الأرملة م من رشت المساحيق على وجهها وارتدت خمارها في الكنيسة وفي شقة ميشيل التي تمت فيها مأدبة الزواج.

تحدثت الأرملة مع الجميع على المائدة واقترحت الأنخاب، وأغرقت السيدات العجائز بالمجاملات، وحاولت قدر ما تستطيع أن تنشر روح الفرح وأجواء الزفاف في المكان.

واحمرت الشابة خجلاً من أمها ومن وجهها المنمش ومن حديثها المتواصل الذي لم يكن يسمح لأحد آخر بالتحدث، فجلست في مكانها صامتة محنية الرأس.

طوال الليل لم يفارق ميشيل رباطة جأشه إلا أن فكرة أخذت تضايقه، وهي أنه بغض النظر عما يقوله أي شخص، فقد سقط كالأحمق في الشَّرَك، وأن هذه المرأة المليئة بالحيوية قد جعلته يتصرف بدافع من الخوف.

وفي نهاية العشاء، وبعد أن تلقى التهاني والأمنيات السعيدة، سأل الأرملة مبتسماً بارتياب وهو يقترب من أذنها:

- أكنتِ ستقفزين حقاً من النافذة يا إيلينا بوريسوفنا؟ قولي الحق.

وهدأته الأرملة وأخذت تقسم له إنها كانت ستقفز فعلاً لو لم يكن قد وافق، لكنها في النهاية، وبتأثير من ابتسامته الساخرة قالت بحرارة إن لديها ست بنات، وإنها إن قفزت من النافذة لأجل كل واحدة منهن، فمن يدري من سيبقى لهن!

نظر ميشيل إلى ذلك الوجه الشرير المستاء بخوف، وتمتم بوجه محمر وهو يتذكر التفاصيل:

- كل هذا محض كذب وأنانية وخداع.

ومضت الأمسية على أفضل ما يكون ودون أي شيء يعكر صفو الضيوف، وبدأت الحياة اليومية بالحديث عن الرحيل والحياة الأفضل هناك، وعن أنه في هذه المدينة لا يمكن تدبر مستقبل لائق، بالأخذ في الاعتبار هذا الإعصار الثوري الذي يشتعل أكثر فأكثر.

وفي هذا الخريف رحلت الخالة ماريا أركاديفنا إلى بتروجراد، وسرعان ما أرسلت من هناك خطاباً يائساً أوضحت فيه أنها تعرضت للسرقة في طريقها إلى هناك، وتم الاستيلاء على حقيبتها وبعض حليها.

كان الخطاب مرتبكاً ومتشابكاً، وكان من الواضح أن الصدمة قد أثرت بقوة على هذه السيدة العجوز.

وبعد هذا بمدة قصيرة رحلت والدة ميشيل فجأة في هدوء، ولم يتمكن حتى من وداعها والاستماع إلى وصيتها الأخيرة.

وقد أثر كل ذلك بقوة على ميشيل، الذي أصبح هادئاً بعض الشيء، وخجولاً، بل وحتى خائفاً. انهمرت دموعه، ولكن سرعان ما غطت أحداث أخرى على هذا الحدث.

أنجبت سيموتشكا طفلاً ضعيفاً لكنه جميل، واستولت عاطفة أبوية جديدة على ميشيل لم يختبرها من قبل.

لكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد بدأ حديثه ثانية عن الرحيل، وبدا تلك المرة أكثر واقعية وحسماً.

وفي الخريف وبعد أن حصل على خطاب آخر من خالته ماريا استعد للرحيل قائلاً إنه سوف يترك لزوجته وطفله كل ملكيته السائلة كي تتصرف فيها كما تشاء.

استمعت الفتاة الشابة إلى كلماته بهلع، وهي التي تحبه كما الماضي، أو ربما أكثر قليلاً، ولم تمنعه عن مراده قائلة إنه يمكنه أن يتصرف كما يريد.

إنها تحبه كما أحبته دوماً، وبغضّ النظر عن أي شيء عليه أن يعرف أنها ستظل هنا في بسكوف مخلصة له، على استعداد أن تذهب معه إلى بتروجراد، وحتى إلى المنفى أو الأشغال الشاقة.

وخوفاً من أن تلحق به إلى بتروجراد، أدار ميشيل دفة الحديث معها إلى موضوعات أخرى، لكن الفتاة الشابة أخذت تنشج وتواصل الحديث عن الحب والتضحية.

لكنها لم تكن قرينته.. لقد عرفت هذا طوال الوقت، وسواء انتهى به الأمر رجلاً عجوزاً كسيحاً، أو ضريراً، أم حتى إن أرسلوا به إلى سيبيريا، بإمكانه دوماً أن يناديها، وستلبي بفرح دعوته على الفور.

نعم.. يمكنها أيضاً أن تتمنى له المصائب والبلايا، فهذا سوف يوحدهما في الحياة.

أسرع ميشيل في إنهاء استعداداته للسفر، معذّباً بالشفقة، ولاعناً نفسه على جبنه الذي ينتابه في تلك الأحاديث.

ووسط هذه الكلمات وتلك الدموع كتب ميشيل قصيدة جديدة: «لا.. لا تمنعيني أيتها الأرملة الشابة»، وجهّز حقائبه سريعاً.

لم يطل به عهد السعادة الأسرية، وفي صباح رائع، وبعد أن وطّد عزمه على الرحيل، سافر إلى بتروجراد بصحبة حقيبتين صغيرتين وسلة وحيدة.

خطط جديدة - محنة الخالة ماريا - ميشيل يحصل على وظيفة جديدة - غرفة جديدة - حب جديد - كارثة غير متوقعة - مرض الخالة الخطير

رحل ميشيل إلى بتروجراد واستقر في فونتانكا عند طرف حي نيفسكي.

عاش مؤقتاً في غرفة خالته خلف حاجز، فقد كان من الصعب أن يحصل على غرفة له بمفرده، إلا إن مات أحد السكان.

لكن ميشيل لم يكن متعجلاً بشأن هذا الأمر، فقد كانت أفكار وخطط أخرى تدور في رأسه.

رحل إلى بتروجراد قبل تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة[72] بعام أو اثنين، وكان الجوع والانهيار - إن جاز التعبير - قد عصرا المدينة حتى آخر قطرة. وبدا أنه من الغريب أن يذهب أحد إلى المدينة في هذا التوقيت ليبحث عن حياة ووظيفة أفضل، ولكن كانت لديه أسبابه.

في الخطاب الأخير لفتت الخالة ماريا نظر ميشيل بعدم اكتراث إلى أنه من المحتمل في الشهور القادمة أن تنتقل ملكية بتروجراد إلى

(72) ارجع إلى هامش رقم 25.

فنلندا أو إنجلترا، ويتم إعلانها مدينة حرة. تلك الشائعات كانت تسري في هذا الوقت بين السكان، أما ميشيل الذي كان مضطرباً من تلك الشائعات فكان يُسرع في إعدادات سفره.

بالإضافة إلى ذلك أشارت الخالة ماريا إلى أنها لم تغير قناعاتها الليبرالية أبداً، ولن تعارض الثورة، ولكن طالما الثورة قد استمرت طويلاً إلى العام الثالث حتى الآن، ولم يعيدوا إليها ملكيتها حتى هذه اللحظة، فهذا يعني أن ما يحدث أمر مؤسف ليس له مثيل، وأنه يتوجب عليهما الآن أن يتخذا بأنفسهما خطوات حاسمة.

وفي ضوء كل هذا وصل ميشيل إلى بتروجراد واستقر في فونتانكا.

وقد وجد أن خالته قد تغيرت على نحو غير عادي. لم يتعرف عليها ببساطة. كانت قد أصبحت عجوزاً نحيفة تماماً ذات فكٍّ متدلٍّ، ونظرة هائمة.

أخبرته خالته أنها قد سُرقت مرتين في هذا الوقت. كانت المرة الأولى في القطار، والثانية هنا في شقتها. أتى إليها بعض المحتالين وتظاهروا بتفتيش المنزل، بعد أن قدموا إليها أمر تفتيش مزوراً، وانتزعوا تقريباً كل ما له قيمة منها.

أصبحت السيدة التي كانت سعيدة ومليئة بالحيوية سابقاً امرأة عجوزاً هادئة غير مبالية. تستلقي على فراشها في معظم الوقت، ولا تتحدث مع ميشيل إلا على مضض. وإن بدأت الحديث، فلابد أن يكون الموضوع الرئيسي للحديث عن السرقة التي تعرضت لها، وتشعر بالاضطراب وتظل تتحدث عن مختلف أنواع الهراء.

لكن الخالة لم تكن في عوز، فهي تعلق حول عنقها سلسلة هائلة معلقاً فيها منظار ذهبي للأوبرا، وفي أصابعها مختلف

أنواع الخواتم من مختلف أنواع الذهب، ولديها ما يكفي من الممتلكات في الغرفة.

وبين الحين والآخر كانت الخالة ماريا تبيع شيئاً أو آخر وتعيش بذلك عيشة مُرضية، وتساعد ميشيل الذي ليس لديه شيء ليبيعه أو يعيش منه.

ظلت الشائعات التي تتحدث عن تحرير المدينة غير مؤسسة على شيء، وفي ظل استمرار الوضع على ما هو عليه أصبح من الضروري أن يفكر المرء في حياة أكثر استقراراً، وأن يفكر في مصيره.

وسجَّل ميشيل اسمه في مكتب العمل، وسرعان ما حصل على وظيفة.

تم توظيفه في مقر مكتب العمل ذاته، ولأنه ليست لديه خبرة في مجال معين، وفي الحقيقة لم يكن يستطيع فعل أي شيء، أعطوه عملاً تافهاً متواضعاً في قسم الاستعلامات.

وبالطبع لم يكن لمثل هذا العمل أن يشبع احتياجات ميشيل الروحية والشعرية. الأكثر من ذلك أنه كان محبطاً بعض الشيء، بل وشعر بالاستياء من هذا العمل الذي يناسب فتاة صغيرة مستهترة. كان يعطي المعلومات والتوجيهات، ويُوضِّح مكان هذه الغرفة، ومكان عمل ذلك الرفيق. كان أمراً مضحكاً، وغير جاد، بل إنه يسيء لكرامته كرجل.

ولكن لم يكن ممكناً للمرء في هذا الوقت أن يكون شديد الحساسية وصعب الإرضاء، وأتم ميشيل كل واجباته آملاً بقوة في أي نوع من التغيير وتحسين الأوضاع. في هذه الأثناء حصل ميشيل على غرفة في إحدى الشقق كانت قد توفرت فجأة بسبب رحيل

أحد الشعراء إلى خارج البلاد. كانت غرفة صغيرة جميلة تطل على شارع فونتانكا ونيفسكي.

وقد ألهم هذا ميشيل بالطبع، بل ونظم بعض مسودات القصائد بعد أن أنعش هذا قريحته الأدبية التي كانت قد جفَّت في الوقت الماضي.

وما إن حصل على بعض المؤن والمساعدات من خالته حتى شعر أنه في أفضل حال، وأخذ يقوم بكثير من الزيارات، فقد وجد في المدينة العديد من أصدقائه ومعارفه السابقين.

وفي هذا الشتاء حصل على خطابين من سيموتشكا..

اضطرب ميشيل من هذه الخطابات، ولكن شعوره المعذب بالشفقة عليها لم يمكنه من الرد على الخطابين، وقد وجد أنه من الصواب ألا يضايق هذه الشابة ويمنحها أملاً مجهولاً.

وواصل حياته، وقد ظهرت إلى النور أفراح جديدة. في هذه الفترة كان قد تعرف على امرأة فاتنة جريئة بعض الشيء - الحق يُقال - في أفعالها وتصرفاتها.

كانت هذه المرأة تُدعى إيزابيلا يفريموفنا كريوكوفا، وكانت امرأة أنيقة بالغة الجمال، لا تعمل بوظيفة معروفة، ولا يبدو أنها حتى عضو في نقابة عمالية.

وقد تسببت هذه العلاقة بكثير من المشكلات والأمور المقلقة لميشيل.

فلأنه ليست لديه الإمكانات الكافية لحياة كريمة، حاول ميشيل أن يأخذ كل ما يستطيع أخذه من خالته التي كانت تصبح مع كل يوم أكثر كآبة وجفافاً، ولم تكن تدع ميشيل يدخل غرفتها إلا كرهاً. وكانت تراقب حركاته بقلق عندما

يزورهـا، خشـية أن يسـتولي عـلى شيء مـن ممتلكاتهـا في أثنـاء الزيـارة.

أعطتـه بعـض المبالـغ الزهيـدة، وكان عـلى ميشـيل أن يحـاول إقناعهـا أحيانـاً، وأن يـصرخ بهـا في أحيـان أخـرى، بـل ويسـبها إن اقتـضى الأمـر وينعتهـا بالبخـل والوقاحـة ويقـول لهـا إنهـا مـن الرعـاع.

وعلى هذه الحال استمرت الحياة المزعجة لما يقرب من عام.

وكانـت المـرأة الجميلـة العاشـقة تذهـب إلى ميشـيل وهـي ترتـدي كعوبهـا الفرنسـية، وتغرقـه في كل مـرة بمتطلبـات جديـدة، لـذا فقـد كان يتوجـب عليـه أن يتحـرك، ويعمـل ذهنـه كي يجـد مصـدراً جديـداً للدخـل.

وواصـل ميشـيل عملـه، لكنـه أصبـح أكـثر إهـمالاً ولا مبـالاة في إتمامـه. لم يعـد يمنـح المعلومـات سـوى قـسراً، وأصبـح يـصرخ في الـزوار، بـل وحـدث عـدة مـرات أن داس في غضبـه عـلى أقدامهـم، وصرخ فيهـم أن يذهبـوا إلى الجحيـم ومـا إلى ذلـك.

لم يكـن يحـب بشـكل خـاص الفلاحـين القذريـن شـديدي المـراس الذيـن يأتونـه طالبـين معلومـة مـا، وكانـوا يخلطـون الأمـور، ويتطلـب الأمـر وقتـاً طويـلاً حتـى يُوضِّحـوا مرادهـم تحديـداً.

كان ميشـيل يـصرخ فيهـم بفظاظـة، ويطلـق عـلى كل منهـم أحمـق غبيـاً، ويشـعر بالضيـق الشـديد مـن رائحـة الفقـر والوجـوه القبيحـة، والثيـاب السـوقية.

بالطبـع لم يكـن يسـتطيع الاسـتمرار عـلى هـذه الحـال طويـلاً، وبعـد عـدد كبـير مـن الشـكاوى فقـد ميشـيل وظيفتـه حارمـاً نفسـه بذلـك مـن أي مصـدر دخـل.

وكان هـذا في واقـع الأمـر بمثابـة ضربـة قويـة، بـل وكارثـة محققـة،

ولكن الشاعر العاشق لم ينتبه إلى هذه السحب الكثيفة التي تعلو فوق رأسه.

كانت إيزابيلا يفريموفنا تأتي إليه تقريباً في كل يوم، وتنشد بصوت خفيض بعض الأغاني الغجرية الرومانسية وتدقّ الأرض بقدميها وتصطحب معها جيتارها.

كانت فتاة شابة فاتنة، ولدت كي تنعم بمستقبل رائع وحياة مستهترة. كانت تحتقر الفقر والحاجة، وتحلم بالسفر خارج البلاد، وتحث ميشيل على ذلك، وهو من حلمت أن يصطحبها للذهاب إلى بلاد فارس.

وفي ضوء هذا لم يبحث ميشيل عن عمل، وعاش آملاً في تغير الظروف بشكل غير متوقع وسرعان ما تغيرت فعلاً.

في أحد الصباحات الكريهة، وكان قد ذهب إلى غرفة خالته كي يطلب منها أن تقرضه بعض المال الذي لا تحتاج إليه، وبينما كان يعد نفسه للعراك، تعجب ميشيل من الفوضى التي تعم المكان. كانت الخالة ماريا جالسة على أحد المقاعد ترتب الزجاجات والقوارير والصناديق.

شعرت بالاضطراب عندما دخل ميشيل إلى غرفتها، وأخفت وجهها خلف منديل وبعض الزجاجات وأخذت تصرخ وتلقي بكل ما يقع في يدها على ميشيل.

ظل ميشيل متسمراً عند الباب دون أن يستطيع أن يتحرك قيد أنملة، ودون أن يفهم ما يحدث على وجه التحديد. وبعد عدة ثوانٍ، وكانت الخالة قد نسيت أمر ميشيل، أخذت تذرع الغرفة، وهي تنشد بعض أغاني الحانات، وتقذف بقدمها ما تجده في طريقها. وحينها أدرك ميشيل أن الخالة ماريا قد فقدت عقلها،

ولشعوره بالاضطراب والخوف منها أغلق الباب وأخذ يراقب العجوز المجنونة من ثقب الباب.

أصبحت تقوم بحركات فتاة شابة بشكل غريب، وتغيرت تماماً فبعد أن انعدمت حركتها تقريباً في العام الأخير أصبحت تقوم بحركات سعيدة صاخبة.

كانت الخالة تطير في الغرفة حرفياً، وتركض صوب المرآة، وتقوم بإيماءات مضحكة أمامها، وهي ترسل قبلاتها في الهواء لشخص ما غير معروف.

وقف ميشيل مشدوهاً خلف الباب، وأخذ يفكر كيف يتصرف الآن وما العمل، وما الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها من هذا الموقف.

وبعد أن أغلق الباب جيداً، هرع إلى المسؤول عن الشقة كي يبلغه عن هذه المصيبة.

حياة سعيدة - لقاء الخالة - بيع الممتلكات الأخيرة

كان ميشيل يحيا في شقة مشتركة، وكانت تحتوي على عشر غرف وثلاثين ساكناً. لم يكن لميشيل علاقة بأي منهم، بل إنه كان يتجنب لقاءهم والتعرف إليهم.

من ضمن هؤلاء السكان عاش الحائك يلين مع طفله وزوجته عاملة المصنع، وأيضاً كان هناك المحاسب جوستسفيتميتا، وموظف البريد الذي يُعتبر مدير الشقة.

كان يوم الأحد وكافة السكان بالمنزل في غرفهم.

تحدث ميشيل مع مدير الشقة وحذّره من حالة الجنون الصاخب التي أصابت خالته، محاولاً ألا يثير أي ضجيج هامساً بانفعال.

تقرر استدعاء عربة الإسعافات السريعة وإرسال العجوز إلى مستشفى المجانين، طالما أن الأمر قد يشكل خطورة على السكان.

هبط ميشيل لاهثاً صوب الشقة بالدور السفلي واستدعى عربة الإسعافات السريعة عن طريق الهاتف، ولم تستغرق العربة وقتاً طويلاً حتى وصلت.

رافق ميشيل رجلان يرتديان معاطف بيضاء ودخلوا شقة العجوز.

كانت الخالة ماريا متوارية في زاوية الغرفة، ولم تسمح لأحد أن يقترب منها، وأخذت تُلقي بكل ما يصل إلى يدها عليهم وتسبهم سباباً فاحشاً كالرجال.

خلف الأبواب المفتوحة تجمع السكان محاولين تقديم المساعدة بالنصح والخطط التي تمكّن الرجال من الإمساك بالعجوز.

تهامس الجميع، ورأوا أفعال المرأة العجوز المجنونة.

أما الممرضان اللذان كانا يرتديان معاطف بيضاء، وبحكم خبرتهما، فقفزا فجأة صوب العجوز في وقت واحد وأمسكا بها من ذراعيها ثم أحكما الخناق حولها. حاولت العجوز أن تعضّ أيديهما، وكما يحدث دائماً، هدأت حالتها العاصفة، بل وتحولت إلى عدم اكتراث لا ينمّ عن أي حياة.

سمحت الخالة لهما بأن يجعلاها ترتدي معطف المطر، ووضعا وشاحاً فوق رأسها، ومع دفع ميشيل لها من الخلف هبطت درجات السلم بأمان، ووضعوها داخل العربة التي دخل إليها ميشيل أيضاً وهو ينظر بهلع إلى العجوز المجنونة.

وطوال الطريق لم تَلُحْ على العجوز أدنى علامة على الحياة، وعندما وصلت فقط العربة إلى مستشفى المجانين أمام نهر

برياجكا[73]، عادت الخالة ماريا لحالتها العاصفة، وأخذت تقاوم طويلاً رافضة النزول من العربة، وعادت لتسبهم بكلمات فاحشة، لكنهم نجحوا في إخراجها بسلام واقتادوها من يدها عبر الرواق مارين بالحديقة.

أما الحارس الواقف عند المدخل، وكان قد أُلِف مثل هذه الأفعال، فأخذ يراقب المشهد دون أي فضول، وهو جالس على أريكته، مشيراً بإصبعه في صمت إلى المكان الذي يجب أن يذهبوا إليه.

واقتادوا العجوز عبر ممر مظلم، وتوقفوا عند مكتب الاستقبال.

ملأ ميشيل هناك استمارة، وبعد أن أعطوه حُلي العجوز: السلسلة الذهبية التي تحمل منظار الأوبرا - الخاتم - دبوس الزينة.. خرج من غرفة الاستقبال وهو في حالة انفعال شديدة.

مرَّ بالحديقة، وبعد أن خرج إلى الشارع توقف متردداً. ثم أخذ يسير طويلاً في الشارع، والخوف والهلع يسيطران عليه من مجرد النظر صوب مستشفى المجانين، والاستماع إلى أصوات الصراخ والبكاء التي تصل إليه من النوافذ المفتوحة.

كان على وشك العودة إلى المنزل، ولكن بعد أن توقف على الجسر الخشبي فوق نهر برياجكا، التفت عائداً صوب الناحية الأخرى.

كان مبنى المستشفى القذر البائس على مرمى البصر. وخلف قضبان النوافذ لمح أجساداً بيضاء. قليل منها لا يزال واقفاً عند النوافذ ينظر إلى الشارع، وآخرون كانوا يحاولون أن يحركوهم من مكانهم.

(73) نهر صغير بليننجراد، وكان هناك مستشفى للمجانين فعلاً في ذلك الوقت.

ما في الشارع بالأسفل على ضفة نهر برياجكا فوقف أناس يلعبون ينظرون بفضول غير خاف على المجانين، وهم يرفعون رؤوسهم كي يتمكنوا من النظر جيداً.

عاد ميشيل سريعاً إلى منزله دون أن ينظر، حاملاً في يده حُلِي العجوز ومجوهراتها.

مرت الأيام الأولى من الصدمة، وهدأ كل شيء ومضت الحياة كعادتها.

واصل ميشيل الحياة دون قلق، فليست لديه وظيفة ولا حتى يبحث عن واحدة، وواصل لقاءاته بمعشوقته وعاش على نقود خالته التي سقطت في يده على حين غرة.

في تلك الأيام كانت السياسة الاقتصادية الجديدة في أوجها، وقد افتُتحت المتاجر مجدداً، وكذلك المسارح والسينمات، وعادت سيارات الأجرة للظهور، وكذلك السائقون المسرعون. وانغمس ميشيل وفتاته في دوامة الحياة.

ذهبا إلى كافة المطاعم والحانات وهما يمسكان بأيدي بعضهما. رقصا الفوكستروت حتى يشعرا بالإنهاك والسعادة، وكانا يعودان إلى المنزل في سيارة أجرة، وينعمان بنوم عميق، ويبدأ المرح ثانية في الصباح التالي. إنها حياة لا يقترب منها القلق. ولكن في إحدى المرات، وبينما تذكر خالته وتبديده لمالها شعر ميشيل بتأنيب الضمير، وكان يعد نفسه في كل مرة بأن يزور المريضة كي يعطيها بعض الحلوى والهدايا ويجعلها تشاركه في الإنفاق.

ولكن الأيام مرت يوماً تلو الآخر، بينما أهمل ميشيل أمر هذه الزيارة.

وفي هـذا الشـتاء المـليء بالسـعادة والرقـص حصـل ميشـيل عـلى إشـعار مـن مالكـة المنـزل السـابقة، والتـي تسـكن الآن فيـه، تبلغـه أن زوجتـه قـد فقـدت الطفـل وتزوجـت مـن رجـل آخـر، وتركـت الشـقة وهـي تديـن لهـا بمبلـغ معتـبر مـن المـال. لقـد تركـت بعـض الأثـاث سـوف تتـصرف فيـه إن لم يُرسِـل المـال في غضـون شـهر.

ومـا إن قـرأ ميشـيل هـذا الخطـاب، وبعـد أن شرب كثـيراً مـن الخمـر، حتـى جعَّـده بغضـب وألقـى بـه عـلى السـجادة، راغبـاً ألا يتذكـر شـيئاً عـن حياتـه الشـاحبة الماضيـة.

وهكـذا انقـضى الشـتاء، وفي أحـد أيـام شـهر فبرايـر، وبعـد أن بيعت آخـر حـلي العجـوز وممتلكاتهـا ذهـب ميشـيل إليهـا في زيارة.

اشـترى مختلـف الحلويـات، وذهـب صـوب المستشـفى عنـد ضفـة برياجـكا بقلـب منقبـض وخـوف غامـض.

أتوا بالخالة صوب حجرة الاستقبال، وتركوها مع ميشيل.

انقلـب الجنـون العاصـف إلى هـدوء حزيـن، وهـا هـي الخالـة ماريـا الآن في ردائهـا الكتـاني الأبيـض واقفـة أمـام ميشـيل، تنظـر إليـه نظـرة غريبـة ماكـرة دون أن تتمكـن مـن التعـرف إليـه.

تحـدث معهـا ببعـض الكلـمات البسـيطة العارضـة، وأخـذ يُلـوِّح بيـده بنشـاط، بطريقـة يمكـن أن يفهمهـا المجانـين. ثـم انحنـى أمامهـا في صمـت وخـرج مـن المـكان عازمـاً ألا يعـود إليـه أبـداً.

وعـاد ميشـيل إلى منزلـه بقلـب مبتهـج، وبضمـير هـادئ أخـذ يرتـب أمـور الميراث.

وسـاعدته إيزابيـلا يفريموفنـا بإخـلاص في هـذا الأمـر، محاولـة إقناعه بـألا يتقيـد بالشـكليات وألا يخجـل مـن بيـع كل ممتلـكات العجوز.

بلية مفاجئة - فضيحة مريعة - مرض ميشيل العصبي - شجار مع الحبيبة - انهيار

في شهر أبريل من عام 1925 كان الطقس رائعاً بشكل استثنائي.

خرج ميشيل من غرفته مرتدياً معطفاً خفيفاً ممسكاً بيد إيزابيلا يفريموفنا، راغباً في التنزه على ضفة المياه والتمتع برؤية ذوبان الجليد.

وبينما كان يغلق الباب بالمفتاح وهو ينشد: «الموز.. الموز» أخذ ينظر إلى فتاته.

كانت تقف متباهية في الردهة، وهي تقوم بخطوات مختلفة بقدميها الرشيقتين وترقص الشارلستون [74].

كانت تبدو فاتنة الجمال في فستانها الربيعي الزاهي بهيئتها الجانبية المليحة، وخصلات شعرها التي تتسلل من أسفل قبعتها.

أخذ ميشيل ينظر إليها بهيام متعجباً من فتنتها وشبابها ولا مبالاتها.

بالطبع لم تكن فتاة مثقفة، قادرة على التحدث بسهولة عن كانط ونظرية الاحتمالات ونظرية النسبية.

قطعاً لم تكن تعلم شيئاً عن ذلك، وليس لديها أي ميل صوب العلوم النظرية، وتفضل على ذلك الحياة السهلة البسيطة. لم تكن تجعدات التفكير التي تلوح على الوجه تقترب من جبهتها أبداً.

أحبها ميشيل بكل ما لديه من عاطفة، وكان يقارنها في ذهنه بزوجته السابقة سيموتشكا، ويصاب بالهلع متسائلاً في نفسه كيف أمكنه أن ينحدر إلى هذه الدرجة ويتزوج من هذه الفتاة القروية؟

(74) رقصة قديمة شهيرة.

وهكـذا أخـذا يرقصـان الشارلسـتون، وهـما يمسـكان بأيـدي بعضهـما، ثـم ذهبـا عـبر الـرواق إلى الردهـة، وتوقفـا هنـاك كي يسـمحا لشـخصين بـأن يدخـلا المـكان.

كان هـذان الشـخصان هـما: أحـد السـعاة حامـلاً في يـده دفـتراً، وبجانبـه امـرأة عجـوز، ترتـدي معطفـاً شـتوياً وعـلى رأسـها وشـاح صـوفي.

ولم تكن المرأة العجوز سوى الخالة ماريا..

سـأل العامـل بصـوت فـظ هـازل مـا إن كان هنـا مـكان إقامـة المواطنـة المحترمـة «أ»، وإن كان هنـا مـكان إقامتهـا فعـلى أي مـن الموجوديـن هنـا أن يسـتقبلها.

غـام كل شيء أمـام أعـين ميشـيل، وتسـمّر في مكانـه، ولم يسـتطع أن ينطـق مـن فـرط الهلـع.

وبطريقـة مـا تمكّـن مـن أن يكتـب شـيئاً مـا سريعـاً في دفـتر السـاعي، وحـدّق ميشـيل في خالتـه التـي كانـت تبتسـم في حـرج، وقـد مـدّت يدهـا لتحيـي ابـن شـقيقتها.

بـدأ ميشـيل في التمتمـة ببعـض الكلـمات غـير المفهومـة، وتوجـه إلى البـاب، وحـاول أن يسـد المدخـل راغبـاً في ألا يجعـل خالتـه تتمكـن مـن الدخـول.

اقتربـت منـه الخالـة ماريـا، وبـدأت توضـح لـه الأمـر قائلـة إنهـا كانـت تشـعر أنهـا ليسـت عـلى مـا يـرام، أمـا الآن فقـد تعافـت تمامـاً، وهـي ليسـت في حاجـة الآن سـوى إلى الصمـت والهـدوء الكاملـين.

أمـا الآن وقـد أدركـت إيزابيـلا يفريموفنـا خطـورة الأمـر، ولأنهـا لم تـرد أن تتدخـل بـين الأقـارب، قالـت لميشـيل إنهـا سـوف تمـر عليـه غـداً، وهرعـت إلى السـلم وسرعـان مـا اختفـت تمامـاً.

وبصحبة ميشيل، سارت الخالة ماريا في اتجاه باب غرفتها.

أمسك ميشيل ذراع خالته محاولاً ألا يجعلها تدخل الغرفة حيث لم يعد فيها سوى أغراض تافهة للغاية، وجذب الخالة صوبه قائلاً إن عودتها أمر رائع حقاً، وإنهما سيجلسان الآن على الأريكة التي في غرفة ميشيل ويحتسيان الشاي سوياً.

ولكن الخالة ماريا لم تكن تريد شرب الشاي، لذا أصرت ودخلت غرفتها، وهي تحاول بقوة أن تستعيد منظر غرفتها السابق في عقلها المضطرب.

دخلت الغرفة وتوقفت مصعوقة والغضب يغلي في داخلها.

ورحمة بأعصاب القراء لن يواصل المؤلف وصف الفضيحة والمشاهد الدراماتيكية التي اندلعت في نصف الساعة الأولى. فغرت الغرفة الفارغة فاها لتفصح عن غياب كل شيء منها. في زاوية الغرفة كانت هناك مغسلة رخامية لم تمسها يد، وبعض المقاعد كذلك لم يتم بيعها بسبب حالتها المهترئة البالية.

وفهمت الخالة ماريا أركاديفنا ما حدث على الفور. واكتسى وجهها بشحوب مريع، ثم لمع الغضب في عينيها، وهجمت على ميشيل بغضب ضار، وعادت لتسبه كالرجال، وتنبح بتلك الكلمات التي جعلت السكان يجفلون عند سماعها.

وتحول الانهيار العصبي إلى دموع صامتة، وقد استفاد ميشيل من ذلك التحول، وانسل إلى غرفته فوراً منهكاً ومحطماً وقد رمى بنفسه على فراشه.

ونحو الغروب أصبح من الواضح أن الخالة قد عادت إلى جنونها ثانية، وهي الآن تقوم بتلك الحركات البهلوانية في غرفتها مجدداً.

ونهض ميشيل بصعوبة شديدة من مكانه وتأكد من هذا الوضع، وقام بالإجراءات اللازمة، وعاد بعدها إلى غرفته.

ونحو المساء كانوا قد أرسلوا الخالة ثانية إلى مصحة الأمراض العقلية.

وتحدث السكان عن ضرورة محاكمة ميشيل لأنه قد تسبب في عودة خالته إلى الجنون ثانية، والذي قد قرر الاستفادة بآخر ممتلكاتها بعد أن تركت المكان بعد إصابتها بالجنون.

إلا أن ميشيل في اليوم التالي كان قد استلقى على فراشه محموماً من حالته العصبية، وقد قطع ذلك تلك المناقشات.

ظل مستلقياً على فراشه لثلاثة أسابيع، وقد أخذ يفكر في أن نهايته وموعد حسابه قد حانا، ولكن الشباب والصحة القوية حالا دون ذلك.

ولم تعد إيزابيلا يفريموفنا تزوره إلا نادراً، وتحول سرورها إلى توتر، ولم تعد تتحدث مع المريض إلا قليلاً جداً وقد أصبحت متقلبة المزاج. غيَّر المرض من ميشيل بشكل واضح. تلاشت كل رباطة جأشه، وعادت إليه حالته التي كان عليها في بسكوف؛ تلك الحالة الحزينة المنغمسة في التفكير.

وأخذ يفكر ثانية في ظروف وجوده وفي طريقة تمكنه من تلبية احتياجاته الأساسية.

أخذ م.ب سينياجين في التحرك هنا وهناك، ومضى كثيراً إلى مكتب العمل ليسجل اسمه.

وفي حين إنه لم يكن لديه ما يفعله، وليست لديه خبرة في شيء، كانت فرصه ضئيلة بالطبع في الحصول على عمل مناسب.

صحيح أنهم عرضوا عليه ذات مرة العمل في تشذيب إحدى

الأراضي، ولكن قالوا طالما ليست لديه أية خبرة فسيكون من الصعب جداً أن يحصل على شيء آخر. وقد أساء هذا العرض جداً إلى ميشيل، بل وجعله يشعر بالخوف. أيتوجب عليه أن يسافر إلى مكان ما على ارتفاع ستين فرسخاً، ويحفر بالفأس هناك في قلب الطين والوحل؟ هذا أمر لم يخطر على باله أبداً، لذا مضى إلى منزله بعد أن سبَّ أولئك الأوغاد بغضب.

أخذ يبيع أغراضه التي كان قد حصل عليها عندما كان ميسور الحال، وعاش لنصف عام في حال حسنة، دون أن يشعر بحاجة شديدة لشيء ما.

ولكن لم يكن الوضع ليستمر على هذا المنوال إلى الأبد، ومن الواجب التفكير في طريقة لتدبر معيشته.

أدرك ميشيل أن الحال ينحدر به، لذا حاول ألا يفكر في ذلك الأمر، وأن يؤجل تلك اللحظة الحاسمة بقدر الإمكان.

وفي تلك الآونة كان قد تشاجر مع إيزابيلا يفريموفنا التي كانت تمر عليه أحياناً وهي غاضبة ومتقلبة المزاج، وتسأله عما ينوي فعله. تشاجر معها ناعتاً إياها بالأفعى السامة والمرأة الفاسدة، وقد حسَّن هذا من ظروف حياته بعض الشيء.

كانت إيزابيلا يفريموفنا تتشاجر معه عمداً، وتصفق الباب بقوة، وتمضي بعيداً، ليس قطعاً قبل القيام ببعض الفضائح وتبادل السباب حول أمور جانبية.

أدرك ميشيل وضعه الحرج، وأن وقته قد فات، وفكر أنه قد يتوجب عليه فعلاً أن يذهب إلى ذلك العمل ويشذب الأرض، لكنه كان قد سبَّ الرجل في مكتب العمل وسحب أوراقه، لذا لم تكن لديه الشجاعة كي يعود إليهم مرة أخرى.

لقاء سعيد - عمل جديد - أفكار كئيبة - فقر شديد - راحة بال - الطبيعة الكريمة - مساعدة من المؤلف - سرقة المعطف المصنوع من جلد القرد.

بعد أن أبقى لنفسه فقط على بيجامة رمادية ومعطف خريفي، باع ميشيل تقريباً كل ما لديه دون أسف، ولكن سرعان ما بليت فجأة تلك الثياب التي أبقاها لنفسه، وقد زاد ذلك من انهياره.

وما إن أدرك أنه لن يجد مخرجاً من هذا الوضع، حتى شعر ميشيل فجأة بالهدوء، وبدأ يسبح مع التيار، دون أن يشغل باله بما سيحدث.

وحدث ذات مرة أن التقى بأحد معارفه كان يعمل في لجنة السياسة الاقتصادية الجديدة، وهو مالك لعدد بسيط من مصانع المياه المعدنية وعصائر الفاكهة، فسأله ميشيل بمرح ما إن كانت لديه فرصة عمل شاغرة له.

ووعده الرجل بأن يجد لديه فرصة في العمل بمصنعه، لكنه حذره بأن العمل قد يكون غير مناسب لشاعر وقد لا يوافق عليه ميشيل. سيتوجب عليه أن يغسل أعداداً ضخمة من الزجاجات، تلك التي تأتي للمصنع من كل مكان بهدف الغسيل بالرمل لتنقيتها من أية شوائب.

قبِل ميشيل الوظيفة وظلّ لعدة شهور يواظب على الذهاب إلى المصنع بسوق أبراكسين حتى أفلس صديقه.

لم تفارقه الطمأنينة وراحة البال. كان يبدو كما لو أنه قد فقد صورته القديمة عن نفسه. عاد إلى المنزل ونام، دون أن يفكر في شيء أو حتى يتذكر شيئاً. حتى عندما أفلس صديقه وفقد كل ما لديه، لم يشعر ميشيل بأنها بلية كبيرة.

الحقيقة أنه كان في بعض الأحيان يتذكره، وكان وقتها يذرع الغرفة كالذئب، يقرض ويعض أظفاره، وهي العادة التي كان قد اكتسبها في العام الأخير.

ولكن هذه كانت الاضطرابات الأخيرة، ومن بعدها عادت الحياة لتسير على نحو سهل دون الحاجة للتفكير.

وكان كافة السكان بالشقة قد شاهدوا وعرفوا بالفعل كيف تسير أمور ميشيل، لذا تجنبوه حتى لا يحاول أن يعيش عالة على كاهلهم. ودون أن يلحظ ميشيل نفسه لم يعد مالك الغرفة، بل أحد السكان الذين يقطنون في ركن غرفة، فمن وقتها أصبح أحد باعة بذور عباد الشمس يمر على الغرفة من وقت للآخر.

وهكذا مضى عام تقريباً، وأخذت الحياة تجذب ميشيل أعمق فأعمق.

كان الحائك يجور يلكين يمر كثيراً على غرفة ميشيل، ويدخلها دون استئذان، وبصوت سكير سأله ذات مرة أن يعتني بطفله، فعليه أن يغيب قليلاً، وقد مضت زوجته إلى مكان تتسكع فيه ولا أحد يعلم أين بالتحديد نظراً لجمالها وشبابها.

ومر ميشيل على غرفة الحائك وأخذ ينظر دون اهتمام كيف يزحف الطفل الجائع على الأرض ويلعب ويمزح ويأكل الصراصير.

ومر يوم تلو الآخر، دون أن يفعل ميشيل شيئاً.

أصبح يطلب أحياناً بعض الصدقات. ذات مرة خرج إلى الشارع وتوقف عند تقاطع شارع نيفسكي وفونتانكا يطلب الصدقة.

وعندما كان الناس ينظرون إلى وجهه وبدلته التي كانت جميلة ذات يوم، كانوا يمنحونه أحياناً عشرة أو عشرين كوبيكاً.

وعندما يحدث ذلك كان ينحني وترتسم ابتسامة عريضة على وجهه، ويحاول أن يلقي نظرة سريعة على العملة محاولاً تحديد قيمتها سريعاً.

لم يلحظ التغييرات التي تطرأ عليه. كانت روحه هادئة كما الماضي، ولم يكن الحزن ليجد مكاناً في قلبه.

يعتقد المؤلف أنه من الهراء أن يقوم كثير من الكتّاب، حتى البارزون منهم، بوصف المعاناة والألم المؤثرين لمواطنين بعينهم، قد حلت بهم المصائب، أو دعنا نقل إنهم يصفون الحالة الروحية لامرأة الشارع دون أي تزيين أو تجميل، ويضفون عليها تفاصيل نفسية ومعاناة لا يدري المرء من أين أتوا بها. يعتقد المؤلف أن الأمر لا يبدو بهذه الطريقة مع غالبية الناس.

الحياة مرتبة بشكل دقيق، وإن جاز التعبير فهي أكثر بساطة وملاءمة بل وأفضل، ولا فائدة كبيرة تُرجى من خيال الكاتب.

ما إن يصبح المرء فقيراً حقاً حتى يتوقف عن القلق من أي شيء. والمليونير الذي تعوّد على وجود ملايينه معه لا يفكر هو الآخر في حقيقة كونه مليونيراً، ويعتقد المؤلف أن الفأر لا يعاني من حقيقة كونه فأراً.

ولكن فيما يتعلق بالمليونير فربما قد بالغ المؤلف قليلاً. إنه لا يستطيع أن يؤكد شيئاً فيما يتعلق بالمليونير أكثر من أن حياته تمضي وسط الضباب.

ولكن هذا لا يغير الأمر في شيء، فيظل سحر الحياة في أوج قوته.

وهنا تتوارد على رأس المؤلف هذه الأفكار التي كان من دواعي سروره أن يعرضها في المقدمة. إن الإنسان قد خلق على نحو بارع،

وهو يرغب بشدة في أن يحيا تلك الحياة التي يريد أن يحياها.

لا يود المؤلف بالطبع أن يقول إن إنساناً ما - وفي حالتنا هذه هو م.ب سينياجين - قد تحجر ولم تعد لديه مشاعر ورغبات وحب للطعام الجيد وما إلى ذلك.

لا.. ظل كل ذلك في داخله كما هو، لكنه اتخذ مظهراً آخر أو - كما يقولون - اتخذ نطاقاً مختلفاً، وأصبح على نطاق إمكاناته. ولم يشعر بأي نوع من المعاناة إثر ذلك، وحتى الحزن الذي كان يشعر به قبلاً بدا أنه يشعر به أكثر من ذي قبل.

إن مشاعر المؤلف صوب عظمة الطبيعة ونبلها لا توصف.

على المؤلف أيضاً أن يقول إنه كان هو الآخر في حاجة شديدة في تلك الأعوام، ولم يتلقَّ مساعدة تُذكر من أقربائه، ومع ذلك كثيراً ما منح ميشيل مبالغ صغيرة من المال، كان الأخير يأخذها بتكبر ودون أي شكر.

إلا أنه في غياب المؤلف تناول ميشيل من فوق الشماعة معطفاً للمؤلف ذا ياقة من جلد القرد وباعه بمبلغ تافه جداً. بعد ذلك توقف تماماً عن زيارة المؤلف وعن تحيته.

بالطبع تفهم المؤلف حالته البائسة، ولم يتفوه بكلمة واحدة عن هذه السرقة، ولكن لأن ميشيل كان يشعر بذنبه ابتعد ببساطة عن المؤلف، ولم يرد أن ينخرط معه في أي نوع من أنواع الحوار.

وكان على المؤلف أن يذكر تلك الحادثة وهو في كامل الإحراج بل وبشعوره بخطئه، مع أنه في واقع الأمر لا يُلام بأي شيء على ذلك.

الحياة تبدأ غداً - حساب اليوم - نُزُل رخيص - أربعون عاماً - أفكار مفاجئة - ميلاد جديد

من الواجب أن يُحذِّر المؤلف القراء من أن قصتنا ستنتهي بسعادة، وأن صديقنا ميشيل سينياجين سينعم في النهاية بالسعادة.

ولكن حتى تحين النهاية لا يزال علينا أن نتعرض قليلاً لبعض المعاناة والتجارب المؤلمة.

هكذا مرت شهور وأعوام، وكان ميشيل سينياجين يتوجه في كل يوم إلى عمله بالتسول إما عند جوستيني دفور أو عند باساج[75].

اقترب من الحائط وتوقف هناك منتصباً ساكناً، ولم يمد يده، لكنه كان ينحني عندما يمر به شخص مناسب. كان يجمع حوالي 3 روبلات في اليوم، وأحياناً يزيد المبلغ عن ذلك، وبذلك يمكنه أن يلبي احتياجاته الأساسية، بل ويعيش حياة مُرضية، ويشتري بين الحين والآخر السجق والكوارع والخبز الأبيض وما إلى ذلك. إلا أنه كان يدين بإيجار الشقة، ولم يدفع المبلغ المطلوب منه لعامين تقريباً، وهو يحمل الآن عبء هذا الدين كسيف ديموقليس[76].

وكان البعض يمرون عليه بالفعل في غرفته ويسألونه عن موعد رحيله.

ولم يكن ميشيل يجيبهم سوى بإجابات غير واضحة ووعود غامضة ومواقيت مجهولة.

---

(75) بناية من القرن الثامن عشر عند شارع نيفسكي بليننجراد تحوي عدداً كبيراً من المتاجر - Пассаж: بناية مشابهة بنيت في عام 1848.

(76) كان خطيباً مفوهاً وعضواً ببلاط ديونيسيوس الثاني حاكم سيراقوسة بصقلية من سنة 367 إلى 344 ق.م.. وقد ورد ذكره في حكاية واحدة، هي «سيف ديموقليس»، ومفادها أن ديموقليس كان متملقاً مغالياً. حسب شيشرون الخطيب الروماني: «إن ديموقليس غالى في وصفه لسعادة وحظ ديونيسيوس». لتلقين ديموقليس درساً، دعاه ديونيسيوس إلى حفل كبير، وبعدما أخذ مقعده، وجد ديموقليس سيفاً معلقاً بشعرة واحدة متدلياً فوق رأسه، وظل ذلك يعبر عن الخطر المستمر الذي يواكب الثروة والسعادة المادية التي يهتم بها. وقد أصبح سيف ديموقليس مثلاً يضرب للتهديد بالخطر.

إلا أنه مساء ذات يوم لم يعد إلى المنزل، فلم يكن راغباً في التذرع بحجج جديدة، أو الاستماع إلى متطلبات جديدة، ومضى ليبيت ليلته في نُزُل رخيص بحي ليتيني.

في ذلك الوقت كان هناك نُزُل رخيص بليتيني، ليس على مبعدة من كيروتشنوي، يمكن أن يمنحوك فيه فراشاً مقابل 25 كوبيكاً، بالإضافة إلى فنجان من الشاي ومياه للاغتسال. قضى ميشيل هناك ليلته عدة مرات سابقاً، ثم انتهى به الأمر لينتقل هناك بشكل كامل بعد أن أخذ متعلقاته البسيطة.

وحينها بدأ حياة هادئة عادية دون انتظار أية معجزات أو فرص.

لم يكن بالطبع جمع المال أمراً سهلاً، فكان يتوجب عليه أن يقف في الشارع بغضّ النظر عن نوع الطقس، وأن يخلع قبعته في كل دقيقة مما يجعله يشعر بالبرد القارس. ولكن لم يكن بإمكانه فعل شيء آخر، وهو لم يكن يبحث عن حل آخر.

غيَّر هذا النزل بسكانه الأفظاظ وطبائعهم الحادة من شخصية ميشيل المتواضعة بشكل كبير جداً.

ففي هذا المكان لم تكن الشخصية الهادئة والخجل لهما أي تقدير، بل إن جاز التعبير ليس لها قيمة على الإطلاق.

الأصوات الفظة والزاعقة، والسباب والسرقة والشجار كانت تجبر هذه الشخصيات على الرحيل أو التعود عليها أو تبديل سلوكياتهم. وقد تغير ميشيل في وقت قصير. أصبح يتفوه بعبارات قبيحة بصوت عال، ويدافع عن نفسه من السباب والسخرية، فينحدر به الحال هو الآخر وينخرط في السباب، بل ويشترك في بعض المشاجرات.

في الصباح كان يرتب فراشه ويشرب شايه، وغالباً لم يكن يكلف نفسه عناء الاغتسال، ويذهب مسرعاً إلى عمله، وأحياناً يأخذ معه حقيبة قذرة من الكتان تمنحه مظهر رجل مثقف وتشير إلى أصله وإمكاناته. أما عادته القذرة التي اكتسبها في الفترة الأخيرة، وهي قرض أظفاره، فقد أصبحت قوية دائمة راسخة، وأصبح ميشيل يقرض أظفاره حتى الجلد دون أن يلاحظ ودون أن يحاول ترك هذه العادة.

عام آخر مضى على هذه الحال، لتصل المدة إلى تسعة أعوام منذ أن وصل إلى لينينجراد. كان ميشيل قد بلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، ولكن وجهه المتورم، وشعره الطويل الأشيب، وتلك الخرق الرثة التي على كتفيه.. كل ذلك يجعله يبدو وكأنه أكثر عمراً وبؤساً.

في مايو من عام 1929، كان ميشيل جالساً على مقعد بالحديقة الصيفية مستمتعاً بدفء شمس الربيع، ودون أن يلاحظ، وعلى حين غرة أخذ يفكر بخوف وسرعة في حياته الماضية.. أخذ يفكر ويسترجع حياته في بسكوف، وزوجته سيموتشكا، وهذه الأيام الماضية التي بدت له الآن مدهشة، بل وخرافية!

ظل يفكر في ذلك للمرة الأولى منذ عدة أعوام. وبينما كان يفكر في ذلك شعر بتلك الرجفة وذلك الاضطراب العصبي القديم الذي كان قد فارقه منذ مدة طويلة، والذي كان يحضره عندما ينخرط في كتابة القصائد أو يتأمل في أمور سامية.

تلك الحياة التي بدت له مهينة لكرامته، تلمع الآن ببراءة غير عادية. بدت له الآن تلك الحياة التي فارقها أنها المثلى في حياته بأكملها. الأكثر من ذلك أن تلك الحياة تبدو له الآن وكأنها حكاية لا تتكرر.

كان ميشيل يطوف في الحديقة وهو مضطرب على نحو غريب، ملوحاً بيديه وهو يركض بين الطرق.

وفجأة لاحت له فكرة واضحة ومفهومة جعلته يرتعش من رأسه وحتى أخمص قدميه.

نعم.. سيسافر اليوم على الفور إلى بسكوف. وسيلتقي هناك بزوجته السابقة سيموتشكا حبيبته ذات النمش اللطيف. سيلتقي بزوجته ويقضي معها الفترة المتبقية من حياته في وفاق وحب وصداقة رقيقة كاملين. غريب أنه لم يفكر في ذلك من قبل! لقد ظلت حبيبته هناك في بسكوف، ولابد أنها ستفرح ببساطة عند عودته.

وبينما كان يفكر في ذلك انخرط فجأة في البكاء من المشاعر الكثيرة التي انتابته، وكذلك السرور.

وعندما تذكر تلك الكلمات البائسة والسعيدة - في الوقت ذاته - التي قالتها له منذ عشرة أعوام مضت، اندهش ميشيل كيف استطاع تجاهلها، وكيف أمكنه أن يتصرف بتلك الخسة، ويتجاهل زوجته الرقيقة العطوفة التي كانت على استعداد أن تمنحه حياتها بأكملها.

إنه يذكر الآن كل كلمة قالتها له. نعم.. هي من قالت له إنها تترجى القدر أن يمرض ويصبح كسيحاً، وقد افترضت أن هذا من شأنه أن يعيده إليها. وهذا ما حدث الآن؛ إنه مريض وعجوز ومنهك.. إنه فقير متشرد، وقد فقد كل شيء في حياته. سوف يذهب إليها الآن، ويركع على ركبتيه ويطلب منها أن تسامحه على كل ما فعله بها. وسوف تقول سيموتشكا له إنها مستعدة لأن تذهب من أجله إلى السجن أو الأشغال الشاقة.

وبينما لا يزال يشعر بالاضطراب من هذه الأفكار أخذ ميشيل يركض دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب.

وقد هدأ هذا الركض من فرط اضطرابه، وبينما كان يركض ولا يود أن يضيع دقيقة واحدة توجه ميشيل إلى المحطة، وسأل متى سيغادر القطار ومن أي رصيف.

ولكن بعد أن تذكر أنه لم يعد لديه روبل واحد، سأل بخوف عن قيمة التذكرة.

تذكرة القطار المتوجه إلى بسكوف تكلف ثمناً أغلى، لذا فقد قطع ميشيل تذكرة إلى لوجا، وقرر أن يحاول الوصول من هناك بطريقة ما إلى مدينته حيث ترك سعادته هناك ذات يوم.

وصل إلى لوجا ليلاً، ونام بعمق متدثراً ببعض القماش والثياب.

وما إن لاح نور النهار حتى ارتجف جسده بأكمله من برودة الصباح ومن فرط الاضطراب. نهض ميشيل سريعاً على قدميه، وبعد أن اشترى بعض الخبز بدأ يسير صوب بسكوف.

العودة - أرض الوطن - اللقاء بالزوجة - غداء - أصدقاء جدد - الوظيفة - أحلام جديدة - مرض مفاجئ

سار ميشيل على الطريق بامتداد السكك الحديدة. في البداية كان يسير بخطوات مترددة غير واثق من نفسه، ثم استطالت خطوته وسار لعدة ساعات دون توقف ودون تفكير في أي شيء بعينه.

وبدلاً من الاضطراب والسعادة اللذين كان يشعر بهما، أصبح يشعر بلامبالاة باهتة وعدم اكتراث. إنه يسير الآن بقوة القصور الذاتي دون إرادة أو اهتمام حقيقي.

كان صباحاً رائعاً من صباحات مايو. تصيح الطيور وتطير من بين الشجيرات مثيرة ضجة، وبين هذه الأشجار يسير ميشيل.

تنساب أشعة الشمس الحارقة على كتفيه، وقدماه الملفوفتان بقماش والمرتديتان للحذاء والكلوش قد أصابتهما القروح وأنهكتا من السير الطويل الذي لم تتعودا عليه.

وفي منتصف اليوم وبعد أن شعر ميشيل بالإنهاك تماماً، جلس عند أحد الجداول، وبعد أن بسط ركبتيه جلس طويلاً دون أن يتحرك أو يعدل من وضعيته أبداً.

لاحت فجأة في الأفق سحب بيضاء وأوراق الشجر، وأولى الزهور الصفراء للهندباء ذكّرت ميشيل بأفضل أيامه، وأجبرته على أن يضطرب ثانية لبرهة من تلك الفرص التي سيلتقيها في طريقه.

استرخى ميشيل على العشب، وأخذ ينظر إلى السماء الزرقاء، وشعر ثانية بالسرور والاطمئنان.

لكنه كان سروراً هادئاً.. لم يكن هذا السرور وتلك البهجة اللذين استوليا عليه في أيام شبابه. لا.. لقد أصبح إنساناً آخر، وقد تغير قلبه وكذلك أفكاره.

ولا يعرف المؤلف أهذا حقيقي أم لا، ولكن إحدى بنات المؤلف قد انتهت في العام الماضي من دراسة الكتابة بالاختزال، وقد حكت له عن وجود سحالي في أفريقيا تطرح جزءاً من جسدها عنها عند تعرضها لأي هجوم، وتهرب، ثم تجد مكاناً آمناً حيث تستلقي تحت أشعة الشمس بينما تنمو لها أعضاء جديدة بدلاً من تلك التي فقدتها. ويتوقف الحيوان الذي كان يهاجمها عن مطاردتها، وقد ارتضى بما تركته له من أعضاء.

إن كان ذلك حقيقياً، فالإعجاب بالطبيعة يملأ جوارح المؤلف بارتعاش وتعطُّش جديد للحياة.

لم يكن ميشيل يشبه تلك السحلية. لقد كان هو في بعض الأحيان المهاجم، وهو من أمسك بأعدائه من أعناقهم، ولكن بينما كان يفعل ذلك كان من الواضح أنه يفقد قدراً من نفسه، وهو الآن فارغ غير مبال، ولا يعلم تحديداً لماذا جاء إلى هنا، وما إن كان ذلك أمراً حسناً أم لا. إنه يشعر الآن بالغيظ من أنه قد انخرط في تلك الرحلة الطويلة، دون أن يعرف شيئاً عن سيموتشكا ودون أن يكاتبها. ربما لم تعد بين الأحياء!

وفي غضون يومين، وبينما كان يستريح كل ساعة تقريباً ويقضي ليلته في النُزُل، وصل ميشيل أخيراً إلى بسكوف، وعندما رآها خفق قلبه .

سار ميشيل في شوارع يعرفها جيداً، ووصل فجأة إلى منزله، وأخذ ينظر بحزن إلى نوافذه ويضغط عليها بيده حتى آلمته.

وحينئذ استولى الاضطراب ثانية على قلبه.

بعد أن فتح البوابة بكتفه دخل إلى تلك الحديقة الصغيرة الظليلة، التي نظَم فيها القصائد والتي جلست فيها الخالة ماريا ووالدته وسيموتشكا.

كان كل شيء على حاله كما كان منذ تسعة أعوام، ولم يختلف شيء سوى ذلك العشب الذي نما في ممرات الحديقة.

يمكنه أن يرى نفس شجرتي التنوب الطويلتين عند الشرفة، وبيت الكلب ذاته خلف السقيفة ولكن دون كلب.

ظل ميشيل واقفاً في مكانه كالتمثال لعدة دقائق دون أن يتحرك قيد أنملة، وهو مستغرق في التفكير في كل هذه الذكريات القديمة الجميلة. خفق قلبه بقوة مراراً، ولكن صوتاً أعاده فجأة

إلى نفسه. إنها عجوز ترتدي وشاحاً أبيض تحدق فيه بقلق وتسأله لمَ دخل إلى المكان، وما إن كان في حاجة لشيء.

حاول ميشيل وهو يبحث عن الكلمات ويشعر بالخوف وهو يذكر بعض الأسماء أن يسأل عن السكان السابقين، وعن المستأجر وعن زوجته السابقة سيرافيما بافلوفنا.

أما العجوز التي انتقلت إلى هنا منذ مدة قصيرة فلم تستطع أن تشبع فضوله، لكنها أعطته العنوان الذي تسكن فيه الآن سيموتشكا.

وفي غضون نصف ساعة كان ميشيل واقفاً أمام أحد المنازل بشارع باسمانايا، محاولاً أن يُهدئ من حدة نبضات قلبه.

طرق على الباب، ودون أن ينتظر إجابة فتح الباب ومر بعتبة المطبخ.

وكانت هناك امرأة ما ترتدي مئزراً واقفة بالقرب من الموقد، تمسك طبقاً بيد، وبالأخرى شوكة تمسك بها قطعة لحم مسلوقة وتخرجها من القدر المغلي.

نظرت إليه المرأة بغضب، واكفهر وجهها، واستعدت للصراخ، ولكن سرعان ما تلاشت الكلمات من شفتيها.

كانت هذه المرأة هي سيرافيما بافلوفنا.. إنها سيموتشكا، وقد تغيرت بشدة ولاحت عليها ملامح تقدم العمر.

آآه.. لقد نحفت للغاية. جسدها الممتلئ ووجهها المستدير تغيرا بشدة.

لديها الآن وجه ذابل ضارب إلى الصفرة وشعر قصير.

- سيرافيما بافلوفنا!

هكذا قال ميشيل بصوت خفيض، واقترب منها.

صرخت في هلع، وسقط الطبق المعدني من يدها، وأخذ يتدحرج على الأرض بصوت عال. وسقط اللحم المسلوق في القدر ثانية، وتناثر الحساء المغلي إثر سقوط اللحم.

- يا إلهي!

هكذا قالت وهي لا تدري ماذا عليها أن تفعل وماذا تقول.

تناولت الطبق وأخذت تتمتم:

- سوف أخبر زوجي.. الآن..

واختفت خلف الباب. وفي غضون دقيقة ظهرت مجدداً، وبعد أن مدت يدها بخجل لتصافح ميشيل دعته للجلوس.

لم يجرؤ على الاقتراب منها وقد شعر بالخوف من هيئتها، وجلس على المقعد وقال إنه وصل إليها في النهاية، وإنه الآن في وضع بائس مريع.

تحدث بصوت خفيض ملوحاً بيديه متنهداً ومرتبكاً.

- يا إلهي! يا إلهي!

هكذا تمتمت المرأة الشابة وهي تلوي يدها بكرب شديد.

نظرت إلى وجهه السمين وثيابه المهترئة القذرة، وأخذت تبكي في صمت دون أن تعرف ماذا عليها أن تفعل.

ولكن فجأة خرج من الغرفة زوج سيرافيما بافلوفنا، ويبدو أنه عرف بالأمر، فصافح ميشيل بصمت وتنحى جانباً ليجلس على أحد المقاعد بالقرب من النافذة.

لقد كان المواطن «ن»، وهو يعمل رئيساً لتعاونية، وقد تخطى سن الشباب، بل يمكن أن نقول لقد أصبح رجلاً عجوزاً بديناً بعض الشيء، شاحب الوجه.

وبعد أن قدَّر سريعاً وضع منافسه البائس غير المنتظَر، تحدث

بصوت قوي واضح، ناصحاً سيرافيما بافلوفنا بأن تعتني بميشيل وتقدم له الطعام.

وعرض على ميشيل أن يقيم معهما في المنزل في الغرفة الصيفية الصغيرة بالأعلى، فهي على الأقل دافئة.

تناول ثلاثتهما الغداء معاً، وأكلوا لحماً مسلوقاً، مع بعض الفجل الحار، وبين الحين والآخر كانوا يتبادلون الحديث عن الخطوات المستقبلية.

قال زوج سيرافيما بافلوفنا إن إيجاد وظيفة الآن أصبح سهلاً بعض الشيء، وإنه لا يرى أية صعوبة تُذكر فيما يتعلق بذلك الأمر. وهذا سوف يسمح قطعاً لميشيل بأن يختار من بين مجموعة من الوظائف، ولا داعي للقلق من شيء. سوف يعيش معهما مؤقتاً، حتى تنجلي الأمور في المستقبل.

أما ميشيل، فلم يستطع أن يرفع عينيه من سيموتشكا عرفاناً، وهو يلتهم اللحم والخبز بشراهة ويحشو فمه بمزيد من الطعام.

أما سيموتشكا فلم تجرؤ على النظر إليه، وكانت تلقي بعض نظراتها عليه فقط بين الحين والآخر، وتتمتم أحياناً: «يا إلهي! يا إلهي!».

وقادا ميشيل إلى الغرفة العليا، بعد أن وضعا له فراشاً من قماش القنب، ومقعداً صغيراً.

حصل ميشيل على بعض الثياب الداخلية ومعطف حريري قديم، وبعد أن اغتسل وحلق لحيته ارتدى بسعادة هذه الثياب النظيفة، وأخذ ينظر إلى نفسه طويلاً بسعادة في المرآة، وهو يشكر في كل دقيقة مَن أحسنا إليه.

كان قد أنهك من فرط الاضطراب ومن طول المسافة التي سارها على قدميه، فغرق في النوم كالحجر.

وفي الحادية عشرة من الليل استيقظ ميشيل ولم يفهم شيئاً ولم يدرك أين هو، ونهض سريعاً من الفراش.

وبعد أن تذكّر ما حدث جلس بالقرب من النافذة وأخذ يتذكّر كل ما حدث اليوم.

ولكن بدا له أن كل شيء على ما يرام. بدا له أنه سينعم من جديد بالهدوء والسعادة، وما إن فكر في ذلك حتى شعر فجأة بالجوع.

وما إن تذكر الغداء اللذيذ الذي تناوله بشراهة ودون تفحص، حتى هبط بهدوء وخفة إلى المطبخ بحثاً عن شيء يتناوله حتى يستعيد قواه سريعاً.

سار بحذر على أرض المطبخ التي تصدر صريراً، وأضاء المكان وأخذ يتحسس بيده فوق الموقد بحثاً عن أي طعام.

خرجت سيرافيما بافلوفنا إلى المطبخ[77] وجسدها بأكمله يرتعش، وقد ظنت أن ميشيل قد أتى إلى المطبخ لرغبته في التحدث معها، فاقتربت منه وأمسكت بذراعه وبدأت تتمتم ببعض الكلمات بصوت مضطرب.

في البداية فهم ميشيل الأمر وهو خائف للغاية، وبينما كان يمسك في يده بقطعة خبز ظل يستمع صامتاً لحديث حبيبته السابقة.

قالت له إن كل شيء قد تغير ومضى، وإنها عندما تفكر فيه فهي تجد أنها ظلت فعلاً تحبه، لكنها ترى من غير المجدي الآن القيام بأي خطوات أو تغييرات جديدة. لقد وجدت ملاذها الهادئ، ولم تعد تبحث عن شيء الآن.

(77) عادة ما كان المطبخ في طرف الشقة، وله باب منفصل يفصله عن المكان بالخارج.

أما ميشيل ولبساطة قلبه، فقد فشل في سماع كلماتها بدقة بل وحتى أسئلتها من الحزن والاضطراب، وأجاب دون فرح أنه لا ينتظر تلك التغييرات، لكنه سوف يكون سعيداً إن سمحت له بالإقامة هنا لبعض الوقت.

وبينما كان يمضغ الخبز ضغط ميشيل على يدها بعرفان وطلب منها ألا تقلق عليه وألا تضطرب. تحدثا لمدة ساعة تقريباً ثم افترقا. بالنسبة له فقد مضى هادئاً وسعيداً إلى حد ما، أما هي فمضت مضطربة حائرة بل ومعذبة. لقد كانت تنتظر شيئاً ما.. لقد انتظرت أن تسمع شيئاً آخر.

وعندما اختلت بنفسها أخذت تبكي ماضيها طويلاً، وكذلك حياتها بأكملها، وتبكي كل ما يحدث، وهي تفكر في نفسها أن كل شيء يمكن أن يمر عدا الموت.

وفي غضون عدة أيام، عندما تناول ما يريده من الطعام، وشعر أنه على ما يرام حصل ميشيل أخيراً على عمل في إدارة إحدى التعاونيات.

عادت إليه حياته السابقة، وكان يشارك الآخرين بذكرياته بينما يتناول الغداء، ويتحدث عن الخطط المستقبلية وعن الفرص التي تنتظره قائلاً إنه قد بدأ حياة جديدة، وإنه قد أدرك الآن كل أخطائه وأوهامه الساذجة، وإنه يريد أن يعمل ويكافح ويصنع لنفسه حياة جديدة.

وكانت سيرافيما بافلوفنا وزوجها يتحدثان معه بود ويشعران بالسرور من قلبيهما بنجاحه وانبعاثه من جديد.

هكذا مرت الأيام والشهور، ولم يكدر صفو ميشيل شيء.

ولكن في فبراير من عام 1930 أصيب ميشيل فجأة بإنفلونزا تحولت إلى التهاب رئوي، ومات بين يدي أصدقائه والمحسنين إليه.

بكت سيموتشكا على نحو رهيب، وظلت في حالة سيئة لمدة طويلة، تلوم نفسها على أنها لم تقل لميشيل كل ما كانت تفكر فيه.

دُفِن ميشيل في مقابر دير سابق، ومقبرته مزينة بالزهور الجميلة حتى يومنا هذا.

1930

يوسف نبيل بساليوس

- مواليد مصر في العام 1987.
- خريج كلية الألسن - جامعة عين الشمس - قسم اللغة الروسية - 2008.

من ترجماته:

صبي مع المسيح عند شجرة عيد الميلاد: دستويفسكي. روافد.

قصص قصيرة لكافكا - مجلة الإمارات الثقافية.

الحرية: فولتير - أخبار الأدب.

- له العديد من الإبداعات باللغة العربية والمؤلفات الفكرية والمقالات النقدية.
- حصل على عدة جوائز، منها على سبيل المثال لا الحصر: جائزة إحسان عبدالقدوس في الرواية عن رواية موسم الذوبان - 2011.

أشرف الصباغ

- مواليد مصر في العام 1962.
- حصل على الدكتوراه في الفيزياء النظرية والرياضيات عام 1993 في كلية الفيزياء - جامعة موسكو الحكومية.
- حصل على دبلوم اللغة الروسية (تعليم وترجمة) عام 1991 في جامعة موسكو الحكومية.
- له العديد من المؤلفات الأدبية باللغة العربية منها: «شرطي هو الفرح»، رواية - دار الآداب، بيروت، 2017، و«كائنات الليل والنهار»، رواية - دار العين، القاهرة 2018.
- له الكثير من الترجمات من اللغة الروسية، منها على سبيل المثال لا الحصر: «بوشكين - حياته ومصرعه» - ضمن سلسلة «كراسات فكرية»، دار روافد، القاهرة 2015. وأيضاً «تشيخوف بين روتشيلد والخال فانيا»، مجموعة من الكتاب (ترجمة)، دار «العين»، القاهرة 2016.
- قام بكتابة أعمال إبداعية وترجمات ومقالات وتحقيقات صحافية بمطبوعات متفرقة بداية من عام 1985 في العديد من الإصدارات العربية.

ميخائيل زوشينكو

ولد عام 1894 وتوفي العام 1958 في بطرسبورج (لينينجراد سابقاً). التحق للدراسة بكلية الحقوق بجامعة بطرسبورج.

منذ عام 1921 بدأ في العمل بالأدب، وكان واحداً من جماعة «الإخوة سيرابيون»، وفي العشرينيات والثلاثينيات كان من ألمع أسماء القصة القصيرة بالاتحاد السوفييتي.

انتخب زوشينكو فى المؤتمر الأول للكتاب السوفييت، الذي عقد عام 1934 عضواً في إدارة اتحاد الكتاب السوفييت.

في عام 1935 نشر زوشينكو مجموعة قصص هجائية بعنوان «الكتاب السماوي». واعتبر النقد الأدبي السوفييتي الرسمي أن زوشينكو قد خرج في هذا الكتاب عن أطر الهزل والهجاء الإيجابي، الأمر الذي جعل السلطات تفرض الحظر على نشر كتبه في الاتحاد السوفييتي.

إبداعات عالمية

ميخائيل زوشينكو - قصص مختارة

لم تقتصر شهرة زوشينكو على روسيا، فقد أصبح معروفاً في العالم أجمع، واستطاع أن يبدع لنفسه أسلوباً خاصاً يميزه عن غيره من الأدباء، وانفرد بينهم بروح الفكاهة الساخرة وبالتهكم اللاذع. لقد قاوم زوشينكو بالسخرية المريرة والضحك ذلك الواقع الديستوبي الذي حاولت السلطة السوفييتية تقديمه على أنه يوتوبيا ساحرة خلابة. وفي قلب سطوره البسيطة نرى عبقرية فذة، وقد دفع ثمن حفاظه على مواقفه كأديب حرّ، ولم يخضع لهذه السلطة الغاشمة، رغم أنه أصبح واحداً من ألمع الأسماء في تاريخ الأدب الروسي وأكثرها شهرة في عقدي العشرينيات والثلاثينيات، إلا أنه مات في فقر مدقع بعد أن تم تضييق الخناق عليه كاملاً.

حاولنا أن نجمع بين دفّتي هذا الكتاب مجموعة من قصص زوشينكو القصيرة والطويلة من مختلف الأعوام لتقديم صورة شاملة عن أدبه وقصصه. تضم هذه المجموعة عدداً من أشهر وأفضل القصص التي خطها زوشينكو، وهي في أغلبها قصص قصيرة عدا ثلاث قصص طويلة، ويقدم زوشينكو لنا فيها بانوراما شاملة للمجتمع الروسي في تلك الفترة. يتحدث عن الشقق المشتركة وعن الحمامات العامة وعن الشوارع ووسائل المواصلات وعن الكهرباء والفقر والجرائم وأزمة الإسكان والمستشفيات والنظام الطبي، بأسلوب ساخر بسيط بديع، وقد حان الوقت ليتعرف القارئ العربي على أدب زوشينكو.

ISBN: 978-99906-0-603-4

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications